كتاب الحكم

المسمى

بالنفس الرحماني في الطور الانساني

وشرحه المسمى بالجوهر الفريد في علم الوحدة والتوحيد

تأليف

العبد الفقير، لمولاه القدير

سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير

رضى الله عنه، ونفعنا به وبعلومه

وأمدنا بمدده، وأفاض علينا

من نفحاته وأسعدنا

به في الدارين

آمين

يطلب من الناشر

أحمد المصطفى محمد

بام درمان / سودان



حقوق الطبع والنشر والتوزيع والنقل والترجمة
محفوظة للناشر

مكتبة القاهرة

على يوسف سليمان وأولاده

١٢ ش الصنادقية بالأزهر الشريف ت : ٥٩٠٥٩٠٩

١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت : ٥١٤٧٥٨٠

ص . ب ٩٤٦ العتبة

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٦/٥١٧٢
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-401-028-0

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الوهاب ؛ يؤتى الحكمة من يشاء . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ناثر فرائد جواهر الحكم ، وناظم عقد جوامع الكلم ، وعلى آله وأصحابه الذين غاصوا فى حياض بحار القرآن الروية ، ورتعوا فى وارفات رياض السنة الجنية ، فكان كلامهم تنزيلا من التنزيل ، وتبيانا لكل شىء يحتاج إليه الناس فى أطوار سيرهم الدائب إلى الله عز وجل ، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، وأولئك هم أولو الألباب .

أما بعد : فإن اللجوء إلى العبارات الموجزة - التى تحمل من المعانى مالا تطيقه العبارات المطولة - ما زال دأب الأمم قاطبة منذ فجر التاريخ ؛ تحفل بها كل أمة فتصب فى قوالبها الحكمة عصارة أفكارها ، وخلاصة تجاربها ؛ ويقدمها السلف إلى الخلف ليختصروا لهم بها الطريق حسيا كان أومعنويا ، دنيويا كان أو أخرويا ، ولتكون لهم معالم فى رحلة الحياة ، ومنارات فى دروب الكبَد الذى خلق الله الإنسان فيه ، والجهاد الذى كتب الله عليه ؛ فكأنها - والحالة هذه - التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون ، تحمله الملائكة ؛ فلا غرابة إذن أن تتلقاها الإنسانية جمعاء فتحسن قبولها ، ويتلقفها الحكماء من كل فوج يتعهدونها بالحفظ والشرح والإضافة والتعليق .

وتختلف هذه العبارات الموجزة التى تتناقلها الأجيال باختلاف ماترمى إليه ؛ فاذا جمعت خلاصة تجارب البشرية سميت حكمة ؛ وإذا تضمنت ملاحظة نافذة لفرد أو أفراد سميت مثلا ؛ وإذا خاطبت بالهداية شخصا بعينه أو أشخاصا مّا سميت وصية ؛ وهكذا . . . ولا شك أن أنفع هذه الأنواع

الحكم ؛ وأنفع الحكم ما جاء عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، أوعن ورثتهم الذين يهتدون بهديهم ، ويغرفون من بحرهم ، ويستمدون من معينهم .

وما من حكمة فاهَ بها رسول كريم ، أو وليّ حكيم ، ألا وانبثقت عند التحقيق من لاإله إلا الله ، واندرجت عند التحقيق كذلك فى لاإله إلا الله ، فلا إله إلا الله بالنسبة لأمثال هذه الحكم هى الشجرة المباركة الزيتونة التى يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ؛ وكل حكمة من هذا القبيل هى كوكب درى توقد من هذه الشجرة المباركة الطيبة . بل هى الأكلُ التى تؤتيها هذه الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء . . . ومن احتاج إلى شرح مثل هذا الكلام فلا كلام لنا معه .

ولا شك أن كل كلام أهل الله حكم ؛ لأنهم أزهد الناس فى الكلام ، فاقتضى ذلك أن يلجئوا دائما إلى الإيجاز ؛ وهو جمع المعانى المتعددة فى التعبير البسيط القصير – كلما تحركت فيهم داعية إلى الكلام . . . إلا أن بعض أقوالهم رضى الله عنهم أكثر إيجازاً من الآخر ؛ وبعضها أكثر تفصيلا – على إيجازها – من البعض . . . ولذلك انفرد أكثرها إيجاز باسم الحِكم ، دون غيرها مما قالوا أو كتبوا رضى الله عنهم .

وأشهر الحكم المتداولة فى كتب القوم حِكم سيدى ابن عطاء الله السكندرى ؛ وقد تضمنت – فيما قال العارفون بالله – كل معارف القوم من بدء الخليقة إلى يوم البعث ، يأخذ كل مريد منها على قدر استعداده أومقامه .

والحكم التى أتشرف الآن بتقديمها لها مزية خاصة؛ وهى أنها اختصرت الطريق للمريد حتى أنها لتغنيه عن الشيخ حتى يجده ؛ فاذا كانت تلك أجمع ؛ فإن هذه أنفع ؛ وليس فى قولنا تلك أجمع ، وهذه أنفع تميز إحداهما على الأخرى ؛ فإن كلام أهل الله – الكاملين – يكمل بعضه بعضا ، ويفصّل بعضه بعضا ، فهو من ناحية ككلام الله عز وجل ، لايفضل بعضه على بعض، وإنما يختص كل قسم منه بحالة ، ولكل حالة حكم ؛ وظننا أن فى وسع سيدى

ابن عطاء الله أن يضع حكمه بحيث تختصر الطريق إلى الله على سالك، وبحيث تغنيه عن الشيخ ؛ كما أن فى وسع سيدى أحمد الطيب أن يجعل حكمه بحيث تكون متضمنة لجميع معارف أهل الله فى جميع الأزمان ، إن لم تكن كذلك ؛ إلا أن الحاجة فى زمن سيدى ابن عطاء الله كانت أمس إلى جمع المعارف منها إلى اختصار الطريق، نسبة لظهور المشايخ الصادقين مما يستوجب على المريد الاتصال بهم والأخذ عنهم ، بينما كانت الضرورة تدعو فى زمن سيدى أحمد الطيب إلى اختصار الطريق لا لاندراس المشايخ ، ولكن لخفائهم واحتجابهم عن بصائر الناس إلا من رحم ربك ؛ فحلت حكمة رضى الله عنه محل الشيخ لمن لم تنفتح بصيرته - بعد - للأخذ عن المشايخ المحتجبين عن أعين العوام لا يطلع عليهم إلا من أراد الله أن يوصلهم إليه ، ويجمعهم عليه ، ويصطفيهم لنفسه .

ومما يدل على أن تلك أجمع ، وهذه أنفع ، أن سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه لم يشرح حكمه ، ولو شرحها لتطلب أن يستوعب هذا الشرح جميع معارف القوم ، وهو أمر - فضلا عن استحالته عقلا - لا يتمشى مع أهم مبادىء المعرفة عند القوم رضى الله عنهم ، وهو أن علومهم لا تؤخذ من الأوراق ، وإنما تجنى بالأذواق ، لا تنقل بالسطور ، وإنما من الصدور إلى الصدور ؛ فى حين نرى أن سيدى الشيخ أحمد الطيب رضى الله عنه تولى شرح حكمه بنفسه حتى ييسر لقارئها مهمة فهمها ، وحتى يحقق له الغرض الأساسى منها ؛ وهو اختصار الطريق إلى الله عز وجل ، تاركا للمريد أن يأخذ عن الله بلا واسطة حين يصل إلى مطلوبه ؛ فهى بذلك ترفع همة المريد حتى لا يسمع إلا من الله ، ولا يأخذ إلا عن الله ، وحتى لا يتشدق بأقوال العارفين بالله قبل أن يصل إلى مراتبهم العزيزة المنيعة كما يفعل اليوم جهلاء المتصوفة وأدعياء الطريق ، ويحسبون أنهم على شىء !

ولست أحب أن أقول عن هذه الحكم أكثر مما قلت ، فلست من أهل ذلك ؛ بل أتركها للقارىء تتكلم له عن نفسها بنفسها ؛ ولوددت لو وجدت

كلاما عنها لبعض العارفين بالله خاصة سيدى الأستاذ الشيخ عبدالمحمود بن نور الدائم لسان الطريق الناطق ، وعلمه الخافق ، وركنه الركين ، رضى الله عنه والغريب أن سيدى الأستاذ الشيخ عبد المحمود أشار إليها من بين مؤلفات سيدى الأستاذ الشيخ أحمد الطيب حين ترجم له ، فى حين أنه استرسل فى الكلام عن الأحزاب والصلوات التى ألفها سيدى الشيخ أحمد الطيب رضى الله عنهما ، وعنا بهما .. كأنه أراد أن يشتغل المريد بالمطلوب منه أولا ، وهو العمل بالأحزاب والصلوات ؛ وهذا من أدب القرآن الكريم الذى تأدب به الأستاذ الشيخ عبد المحمود حفيد المؤلف ، ووارث مقامه ، وأثير فيوضاته ، رضى الله عنهما .. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى حين قال « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله الآية ، استرسل القرآن الكريم فى تفصيل ماحدث لسيدنا موسى عليه السلام من بعد ، فى حين أنه لم يورد أى إشارة لما حدث لأهله صلوات الله وسلامه عليه ؛ وذلك ليشتغل المسلم المقبل على الله بما هو المطلوب منه ، ولا يشغل همه بما تكفل الله له به من الخلافة فى الأهل والمال والولد ، ولا يسبح فكره فى متاهات الفضول والترف الذهنى الذى لايقدم بل يؤخر ، ولايسمن ولايغنى من جوع فى طريق القوم رضوان الله عليهم أجمعين .

أما الشرح الذى تُوّجت به هذه الحكم ـ وهو للمؤلف نفسه ، رضى الله عنه ـ فهو شرح واضح الغاية ، محدد الهدف ؛ لامجال فيه لاسترسال ، أو تزيد أو استطراد ؛ ولامحل فيه لاقتضاب أو إخلال ، كل كلمة فيه تقوم على خدمة الهدف الذى وضعت الحكم من أجله ، وهو اختصار الطريق على المريد ؛ ولذلك جاء الشرح فى جملته مختصراً من غير قصور أو تقصير ، وهذه مزية فى التأليف ندر أن تكون ؛ فإن أكثر ماتضمنته كثير من المؤلفات والشروح يعتبر من الفضول الذى لايخدم الهدف من المؤلف أو الشرح ، وربما صرف ذهن القارىء عنه .. ولقد تولى سيدى الأستاذ الشيخ عبدالمحمود رضى الله عنه شرح هذه الحكم نفسها ، فأتهم وأنجد ، وشرّق وغرب ،

وأطال وأطنب وأسهب ، متمشياً فى ذلك مع الهدف الذى يهدف إليه من الشرح ؛ كان هدف سيدى الشيخ أحمد الطيب اختصار الطريق ، فتطلب ذلك اختصار الكلام ؛ وكان هدف سيدى الشيخ عبد المحمود التشويق إلى سلوك الطريق فاقتضى ذلك الإطناب والإسهاب ، ولكل مقام مقال :

عباراتهم شتى وحسنك واحد وكلٌ إلى ذاك الجمال يشير

هذا ومؤلف هذا الكتاب أعرف من أن يعرّف ؛ وأعظم من أن يتكلم عن أمثاله مثلى ؛ ومن أراد أن يقف على حقيقة أحواله ، ومجاهداته ، وسياحاته ، وأصول طريقته ، وكراماته إلى غير ذلك فليرجع إلى كتاب « أزاهير الرياض » أو إلى كتاب « الكئوس المترعة » وكلاهما لسيدى الأستاذ الشيخ عبدالمحمود رضى الله عنه ، إلاأنى أحب أن أقحم قلمى القاصر فى هذا الخضم الزاخر الذى لاساحل له بقصد التبرك ، فأشير إلى بعض مايدل على علو مقام المؤلف رضى الله عنه مما به يدرك القارىء علو مقام هذا الكتاب .

لايشك أهل البصائر النافذة ، بل أهل العقول الراجحة ، أن مكانة سيدى الأستاذ الشيخ أحمدالطيب مكانة فريدة بين سائرمكانات الكمل من المرشدين رضوان الله عليهم أجمعين ، ولا أدل على ذلك من أنه لم يحدث قط ـ فيما وصل إليه علمنا ــ أن تخرج على أى شيخ سابق عدد من المشايخ مثل العدد الذى تخرج على يديه رضوان الله عليه ؛ لامن حيث الكثرة فحسب ، ولكن من حيث الرفعة والسمو والأثر والتأثير ، فقد كان كل شيخ منهم أمة وحده ، وكان كل منهم نسيج وحده ، ولك أن تتفكر فى أحوال أمثال سيدى الشيخ القرشى ، أو سيدى الشيخ التوم ، أو سيدى الشيخ البصير إلى غير هؤلاء من المشايخ العظام والسادات الكرام الذين لايتسع المقام لذكرهم ، وإنك لتعجب كيف تيسر أن يجتمع مثل هذا الجمع الحاشد من كمل الرجال على رجل واحد ، يأخذون عنه ، ويتتلمذون عليه ، ويبلغون مراتب الكمال على يديه ؛ بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً . . هذا فضلا عن أبنائه من صلبه

الذين كانوا جميعاً مضرب المثل فى الرفعة والكمال ، والهدى والإرشاد ؛ لما تحققوا به من وراثته المعنوية .

ولئن امتدت نفحته رضى الله عنه فسرت إلى الأقطار الإسلامية قريبها وبعيدها ، فقد امتدت نفحته — أيضاً — فيمن خلفوه إلى يومنا هذا ؛ فما زالت كئوسه رضى الله عنه دافقة ، وما زالت أعلامه خافقة ، وما زالت رياضه عابقة ، وما زالت ساحاته فى كل من تولى الإرشاد من بعده حتى اليوم مراح الأئمة العاملين ومطاف الأولياء العارفين ، وكعبة السائرين والمسترشدين ، وملتقى الأنوار المقدسة من غار حراء وطور سينين . .

ولقد بلغ من علوّ مقامه رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان يناديه بين الأولياء إلا بالطيب إبنى ، كما ذكر هو رضى الله عنه ، كما كان يقول له : « أنت وإبراهيم ابنى كهاتين ، مشيراً بالسبابة والوسطى من أصابع يده اليمنى صلوات الله وسلامه عليه ! كما ورد عن الثقات أنه كان يقول : « أنا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم » ولا يهم هنا أن تكون هذه البنوة حسية أو لا تكون ؛ فحسبها أنها أولا وقبل كل شىء البنوة المعنوية التى كان بها النبى - صلوات الله وسلامه عليه - أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، والتى كانت بها أزواجه أمهات المؤمنين ، والتى ارتقى بها سيدنا سلمان — وهو مولى فارس — ذروة النسب فكان « منا آل البيت » كما ورد ذلك عن الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه .

إذا عرفت ذلك ، عرفت مكانة المؤلف رضى الله عنه وعنّا به،وعرفت بالتالى مكانة هذا الكتاب المفيد الفريد ؛ والله المسئول أن يهدى به كل من قرأه،وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ؟

المتطفل على موائد الكرام
خادم أعتاب السادة السمانية
محمد على يوسف

كتاب الحكم

المسمّى

بالجوهر الفريد في علم الوحدة والتوحيد

تأليف
العبد الفقير لمولاه القدير
سيدى الشيخ أحمد الطيب بن البشير
رضى الله عنه، ونفعنا به وبعلومه
وأمدنا بمدده، وأفاض علينا
من نفحاته وأسعدنا
به فى الدارين
آمين

يطلب من الناشر
أحمد المصطفى محمد
بأم درمان / سودان

الطبعـــــة الخامسة
١٤٢٧ هـــ - ٢٠٠٦م

مطبعـــــة الصفـــــا
الوايلى الكبير – القاهرة
ت : ٤٥٢٣٨٠٨٧

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيد الأولين والآخرين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار ، وأصحابه الأخيار ، وبعد :

فهذا كتاب الحكم وشرحها المسمى « بالنفس الرحمانى فى الطور الإنسانى » لسيدى وملاذى ، قطب العارفين ، أبى البركات ، سيدى أحمد الطيب . نفعنا الله به وبأبنائه وأحفاده آمين .

وقد اهتم بهذا الكتاب وإخراجه ، سيدى الوالد الأستاذ الجليل ، والقطب الكبير ، وارث آبائه وأجداده الكرام ، الشيخ السمانى بن سيدى الشيخ البشير ابن الملاذ الأعظم الشيخ نور الدائم ، ابن القطب الكبير والغوث الشهير ، سيدى الشيخ أحمد الطيب مؤلف هذا الكتاب .

وقد أجرى الوالد الشيخ السمانى ، مراجعة هذا الكتاب على عدة نسخ مكتوبة بخط اليد ، وبعد البحث والاستقصاء ، اطمأنت نفسه إلى نشرهذا الكتاب ليستفيد منه أهل التصوف، والمريدون والأحباب، وندعو الله أن يكون عملا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينتفع به كل من اطلع عليه . وأن يضاعف الأجر والمثوبة ، لمؤلفه رضى الله عنه . ولناشر هذا الكتاب سيدى الوالد الشيخ السمانى رضى الله عنه . الذى له فى الطريق نسبان . فقد أخذ الطريق أولا ، عن والده سيدى الشيخ البشير عن والده أبى الأشبال سيدى الشيخ نور الدائم ، عن والده غوث العارفين سيدى الشيخ أحمد الطيب . والنسب الثانى ، عن والده عن الشيخ القرشى ود الزين عن سيدى أبى البركات الشيخ أحمد الطيب . وبذلك جمع بين الحسنيين . وهو يعتبر بهذه الحالة خادم الفقراء والمساكين ، وأعتاب السادة السمانية بالسودان ،

أدامه الله وأبقاه ذخرا ، ونفعنا به وبآبائه وأجداده الكرام ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

أما نسب مؤلف هذا الكتاب ، فمشهور ومعروف لدى الخاصة والعامة ، ولا يخلو بيت من بيوت الدين بالسودان ، إلا اغترف من منهله العذب ، وشرب من كأسه الصافية ، وله رضى الله عنه ، مؤلفات عدة فى كل العلوم والفنون ، لاسيما فى علم التصوف ، وهو القطب والبحر الطامى ، الذى ارتوت منه الصوفية بالسودان ، ومن بعده أبناؤه وأحفاده العظام . ومن أراد المزيد ، فليرجع إلى كتاب « أزاهير الرياض » لحفيده ملاذنا الأكبر ، وفخرنا الأعظم ، سيدى الشيخ عبد المحمود بن سيدى الشيخ نور الدائم ابن سيدى الشيخ أحمد الطيب الكبير . ففيه الكفاية لكل مستزيد .

أسأل الله تعالى ، أن يجزل الثواب لناشره ، وأن يعم النفع به ، ويجعله عملا خالصا لوجهه الكريم ، والحمد لله أولا وآخرا ، وهو ولى التوفيق ؟

حفيد الحفيد
مصطفى عبد الله الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلى على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال الإمام العالم العلامة المحقق المدقق فى علوم الطريقة والحقيقة ، شيخ المريدين ، وقنديل المتصوفين ، ومفتاح الواصلين . ذو الأسرار القدسية والعلوم النورانية الإلهامية الهاهوتية اللاهوتية الصادرة من الذات المحمدية ، العارف بمظاهر التجليات ، المشاهد لوحدة الذات ، سيدى أحمد الطيب طابت إن شاء الله ببركته قلوب المريدين ، وجعل الله رضاه له فى كل وقت وحين ؟

تقديم

الحمد لله منه ، والشكر له ، على مافطم به قلوب العارفين عن الخيالات الوهمية ، بمشاهدة الوحدانية ، وغيبهم عن كل مخلوقاته من علوية وسفلية ، وخلفية وأمامية ، وشمالية وجنوبية ، وأظهر لهم تجليات الأزل فى الأزل فى مشهده المنزه عن العلل .

وبعد ، فلما من الله سبحانه على أفقر عبيده إليه ، وأحوجهم فى المعارف الإلهامية لديه ، بالحكم المسماه بالنفس الرحمانى فى الطور الإنسانى ، تحرك خاطرى بإرادة خالق ، أن أشرح عليها شرحا يشرح الصدور بقدرة من قال والطور وكتاب مسطور ، وأسميه « الجوهر الفريد فى علم الوحدة والتوحيد » .

فأسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يديم النفع به لكل قلب سليم وسقيم ، بجاه سيدنا محمد وآله أهل المعرفة به والتعظيم ، صلى الله عليه وسلم ؟

(م) بسم الله الرحمن الرحيم

(ش) افتتحنا الحكم الناشئة به عنا ببسم الله والحمد لله اقتداء بالكلام القديم والكتاب العظيم أى فى الوضع لا فى النزول . فقد اختلف العلماء رضى الله عنهم فى أول آية نزلت منه تعالى على حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، انظر ذلك فى التفاسير ، فانهذا الشرح فى شبحه قصير ، وقد اتفقوا على أنه يستحب الابتداء ببسم الله الرحمن الرحيم فى كل أمر فيه الخير شرعا لقوله عليه الصلاة والسلام : كل أمر ذى بال لايبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر ، معناه ناقص خال من البركة ، ومعنى ذى بال أى حال يهتم به شرعا فخرج عن ذلك المحرم والمكروه فلا يبدأ فيه بالبسملة بل هى على المحرم محرمة ، وعلى المكروه مكروهة .

وقد اشتملت هذه الآية العظيمة التى تسمى آية الأمان على ثلاثة أسماء من أسمائه تعالى ، اسم الجلالة ، واسم الرحمن ، واسم الرحيم .

وقد اختلف الراسخون فى اسم الجلالة هل هو مشتق من معنى أم لا ؟ فنهم من قال : هذا الاسم غير مشتق من معنى ، بل هو اسم تفرد به مولانا جل وعلا . فكل اسم من أسمائه يصلح للتخلق إلا هذا الاسم فانه يصلح للتعلق فقط دون التخلق . ومنهم من قال إنه مشتق من معنى لكن اختلفوا فنهم من قال الأصل فيه اله والاله مايؤله إليه فى الحوائج ويفزع إليه فى النوائب . وقيل مشتق من الوله وهو الطرب ، فمن عرف الله كان بين حالين : تارة قبض ، وتارة بسط ، فالقبض توجده له الهيبة ، والبسط للفرح . قال سيدى حسين الحلاج : أربعة أحرف بها هام قلبى وتلاشت هموى وفكرى

يعنى بها لفظ الجلالة . وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرحه على الأسماء الحسنى : الاشتقاق حيثما ذكر فى الأسماء فالمراد به أن المعنى المذكور ملحوظ فى الاسم المذكور ، فشرط المشتق أن يكون مسبوقا بالمشتق منه ، وأسماء الله تعالى قديمة لأنها من كلامه . وقال شارح «ياقوتة التوحيد» فى هذا الاسم : كل الأسماء راجعة إليه فالمعرفة به معرفة بها ، وهو دال الصيغة على ذات المسمى به ذاتا ، وصفات ، وأسماء ، ومايجرى لذلك من أفعاله ، فالمعرفة به تفيد الفناء فيه للعارفين ، والتعظيم والإجلال والهيبة والأنس للمريدين ، ومن أراد التقرب ، يعنى به ، فعليه بسبعة أمور : استحقار ما سوى الله ، وتعظيم أمر الله كشفا، وإسقاط الأكوان شهودا ، والفناء فى الجمع استغراقا، وتعلق الهمة بالله أبدا ، ومراقبة الأنفاس سرا وجهرا ، وذكر الله الأعظم ظاهرا وباطنا، إلى أن يبدو له من الوله مايستغرق وجوده فيه ، فيفنى وجوده فى حقيقة شهوده لايرى غيره ، ولا يحس بمن سواه .

وقال سيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه : اسم الله الأعظم هو الله ، وأما اسمه الرحمن فقال سيدى الشيخ عبد الرحيم الجيلى فى كتابه المسمى بالإنسان الكامل : إن هذا الاسم تحته جميع الأسماء النفسية وهى سبعة وأحرفه سبعة . الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام اهـ .

وقال سيدى الشيخ زروق فى شرحه على الأسماء الحسنى : إنما قرن الرحمن باسم الجلالة فى قوله تعالى : قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن : لاختصاصه به تعالى كاسم الجلالة وذلك لأنه يفهم معنى الرحمة الخاصة به ، ومن ثم جاء معنى الاستواء فيه يعنى فى الآية ، وأما اسمه تعالى الرحيم فهو اسم جليل القدر من تخلق به وتعلق ، صار رحيما على خلق الله ، يعين كل مسكين ويغيث كل ملهوف ، ويرفق بعباد الله أجمعين طائعهم ، وعاصيهم .

ولنرجع إلى مانحن بصدده من فيض المولى ومدده فى جملة : بسم الله الرحمن الرحيم : قال فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه أمورا عجيبة وأسرارا غريبة ، قال ابن عباس رضى الله عنه أخذ بيدى على ابن أبى طالب وذهب بى إلى البقيع وقال لى اقرأ ياابن عباس ، فقلت بسم الله الرحمن الرحيم ، فأخذ يتكلم فى الباء ونقطتها إلى الفجر ، يعنى من أول الليل . وروى أن الكتب المنزلة من السماء إلى الأرض مائة كتاب وأربعة كتب : صحف شيث ستون ، وصحف إبراهيم ثلاثون ، وصحف موسى قبل التوراة عشر ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان . ومعنى كل الكتب مجموعة فى القرآن ، ومعانى القرآن مجموعة فى الفاتحة ، ومعانى الفاتحة مجموعة فى البسملة ، ومعانى البسملة مجموعة فى بائها ، ومعناها : بى كان ما كان، ومايكون . وروى أن بسم الله الرحمن الرحيم لما نزلت اهتز العرش لنزولها، وقالت الملائكة الزبانية لم يدخل النار من قرأها ، وهى تسعة عشر حرفا على عدد الملائكة الموكلين بالنار أعاذنا الله منها ، وروى أن جابرا رضى الله تعالى عنه قال : لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق، وسكنت الرياح ، وهاجت البحار ، وأصغت البهائم بإذن الله ، ورجمت الشياطين من السماء ، وأقسم رب العزة لايسمى اسمى على مريض إلا شفى ، ولا على شىء إلا بورك فيه . وقال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : من أراد أن ينجيه الله تعالى من الزبانية التسعة عشر فليكثر منها فانها تسعة عشر حرفا كل حرف نجاة من واحد منهم، ومن أكثر ذكرها رزق الهيبة عند العالم العلوى والسفلى، وبها أقام الله ملك سليمان بن داود عليهما السلام ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : مابين بسم الله الرحمن الرحيم وبين اسم الله الأعظم إلا كما بين بياض العين وسوادها . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : مابين الآدميين والشياطين بسم الله الرحمن الرحيم ، وقال البونى وهى أول ماخطه القلم العلوى على صفحة اللوح وهى التى أقام الله تعالى بها ملك سليمان ، وبها أقام الله تعالى شجرة الأكوان . وظهر فيها أسرارها .

وقد سأل الإمام عثمان النبي صلى الله عليه وسلم عن بسم الله فقال هى اسم الله الأعظم . واعلم أن حقيقة البسملة على القوة الحاملة للسموات والأرض ، لأن هذه هى حقيقة القرآن ، والبسملة تجمع حقيقة القرآن كما تقدم .

وقال بعض العارفين بالله : بسم الله الرحمن الرحيم من العارف بمنزلة كن من الله . وقال بعضهم أيضا : بسم الله منك ، بمنزلة كن منه . فالباء سر القدرة وسر القيام بالأشياء من العرش إلى الفرش ، فإذا قلت بسم الله فكأنك تقول بقدرة الله وهو أصل معناها ومنشؤها . وقال الإمام البوتى رضى الله عنه فى شمس معارفه الكبرى : إن بسم الله الرحمن الرحيم لما نزلت فرح أهل السموات بها من الملائكة ، واهتز العرش لنزولها ، وازدادت الملائكة إيمانا وخرت الجبال وتحركت الأفلاك وذلت لعظمتها الأملاك ، وكانت بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة على جناح جبريل عليه السلام يوم نزوله على إبراهيم عليه السلام ، وقال بسم الله الرحمن الرحيم يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وإن بسم الله الرحمن الرحيم كانت مكتوبة على عصا موسى عليه السلام وكانت كتابتها بالسريانية ، ولولاها ما انفلق البحر ، وإن بسم الله الرحمن الرحيم كانت مكتوبة على لسان عيسى عليه السلام حين تكلم فى المهد ، وكان يتلوها على الموتى فيحيون بإذن الله تعالى ، وإن بسم الله الرحمن الرحيم كانت مكتوبة على خاتم سليمان بن داود عليهما السلام ، وعند الإمام الشافعى : بسم الله الرحمن الرحيم آية من كل سورة .

وقال البوتى رضى الله عنه : واعلم وفقنى الله وإياك أن بسم الله هى الاسم الأعظم ، وأن الرحمن الرحيم نعت بهما نفسه فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، والحمد لله رب العالمين قبالة بسم الله الرحمن الرحيم : بسم الله قبالة الحمد لله ، ورب قبالة الرحمن ، والعالمين قبالة الرحيم . واعلم أن ذلك كله معتبر فى قوله تعالى : مالك يوم الدين ، وظهور الربوبية فى ملك ومالك

ومليك : يتجلى للعقول والأسرار واللطائف بصفة الملك فيكون ملك الملوك ، ويتجلى للنفوس بالقهر والغلبة والملك فيكون مالك الملك ، ويتجلى بالقربات بالتمليك لقوله تعالى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . وهذا كله فى بسم الله الرحمن الرحيم ، فبسم التى فى بسم الله لتوصيل الخير مع جمع إلى الملك الحق . ورفع النداء باللسان اللطيف باسم الجلالة الله صعود ، لا هبوط . الرحمن الرحيم هبوط إلى المبدأ ، كما أن بسم الله الرحمن الرحيم طلوع إلى المبدأ ، ففيهما سر الابتداء ، وفيهما مراتب التوحيد ، لأن بسم قبالة شهد ، والله قبالة الله ، وفيهما مراتب التوحيد ، والملائكة قبالة الرحمن ، وأولو العلم قبالة الرحيم . فأول دائرة بسم الله الرحمن الرحيم كآخرها ، وباطنها كظاهرها ، وبها أقام الله شجرة الأكوان وأظهر بها سائر التعليق وكيف تفرعت العوالم عن بسم الله الرحمن الرحيم .

وفى الحديث : من جاء وفى صحيفته بسم الله الرحمن الرحيم ثمانمائة مرة وكان مؤمنا بى موقنا بربوبيته تعالى أعتقه الله من النار وأدخله دار القرار .

وفى الحديث لا يرد عمل أوله بسم الله الرحمن الرحيم ، وقال بعضهم من أراد قضاء حاجته كتب فى كفه الأيسر بسم الله الرحمن الرحيم لهوب ملهوب ملهوب ملهوب اقضى حاجتى ياملائكة ربى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وفى الإنجيل : يا عيسى ، ولتكن بسم الله الرحمن الرحيم فى افتتاح قراءتك ، وصلاتك ، فإن من جعلها فى افتتاح قراءته وصلاته لم يرعه منكر ونكير ، وإذا مات على ذلك هون الله عليه الموت وسكراته وضيق القبر ، وفسح له فى قبره مد البصر ، وأخرج من قبره أبيض الجسم ووجهه يتلألأ نورا ، وحاسبه الله حسابا يسيرا وثقل ميزانه ، وأعطاه النور التام على الصراط حتى يدخل الجنة ، وينادى عليه فى عرصات القيامة بالسعادة والمغفرة . قال عيسى عليه السلام هذا لى خاصة ؟ قال لك ، ولمن اتبعك

وأخذ بأخذك ، وقال بقولك ، ويكون ذلك لمحمد وأمته من بعدك ، فأخبر بذلك عيسى أصحابه ، فلما رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وانقرضت الحواريون ، وجاء آخرون ضلوا فغيروا وبدلوا واستبدلوا الدين بالدنيا فرفعت آية الأمان من صدور النصارى والرهبان وبقيت فى صدور أهل الإنجيل حتى بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فكتبت فى أوائل السور والدفاتر ، ورءس الرسائل ، وحلف رب العزة بعزته لا يسميه عبد مؤمن على شيء إلا بورك له فيه . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم وكان مؤمنا حقا سبحت له الجبال واستغفرت له ولا يسمع تسبيحها . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم قالت الجنة لبيك . وقال صلى الله عليه وسلم : إن من أمتى قوما يأتون يوم القيامة وهم يقولون بسم الله الرحمن الرحيم فتثقل حسناتهم عن سيئاتهم، فتقول الأمم سبحان الله ما أرجح حسنات أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول لهم أنبياؤهم ، إنما كانوا كذلك لأنهم كان ابتداء كلامهم ثلاثة أسماء من أسماء الله تعالى العظام لو وضعت فى كفة ميزان ووضعت السموات والأرضون ومن فيهن فى الأخرى لرجحت بهم وهى بسم الله الرحمن الرحيم ، قال : وجعلها الله أمانا من كل بلاء ودواء من كل داء ، وحرزا من الشيطان الرجيم ، وقد أمنت هذه الأمة من الخسف والغرق والمسخ ببركتها ، فتقربوا بها إلى ذى الجلال والإكرام .

وقال الحسن البصرى رحمه الله تعالى فى معنى قوله تعالى : وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا : ومعنى ذلك بسم الله الرحمن الرحيم . وقال فى قوله تعالى : وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها : إنها كانت بسم الله الرحمن الرحيم ، وقيل أنها كانت لا إله إلا الله .

وقال بعض العارفين بالله : من كتب بسم الله الرحمن الرحيم وجودها

إعظاماً لها غفر له ، وكتب عند الله من المقربين . وروى عن عكرمة أنه قال : كان الله ولا شيء معه ، فخلق النور ، ثم خلق من النور اللوح والقلم ، ثم أمر القلم أن يجرى على اللوح بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأول ما كتب القلم فى اللوح بسم الله الرحمن الرحيم ، فجعلها الله أمانا لخلقه ما داموا على قراءتها ، وهى قراءة أهل السموات السبع وأهل الأرضين وأهل سرادقات المجد من الملائكة الكروبيين والصافين والمسبحين . وأول ما نزل من السماء على آدم عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : علمت أن ذريتى لا تعذب ما داموا عليها ، ثم رفعت بعده ، وأنزلت على إبراهيم الخليل فنزلت عليه وهو فى كفة المنجنيق فنجاه الله بها من النار ، ثم رفعت بعده إلى زمن سليمان عليه السلام فلما نزلت عليه قالت الملائكة : الآن قد تم ملك سليمان بن داود ، وأمر الله سبحانه وتعالى أن ينادى فى جميع الأسباط والزهاد والعباد : ألا من أراد أن يسمع آية الأمان فليأت إلى سليمان عليه السلام فى محراب أبيه قال : فاجتمعوا إليه فقام سليمان عليه السلام ورقى المنبر وقرأ آية الأمان وهى بسم الله الرحمن الرحيم ، فلما سمعوها ازدادوا فرحا ، وقالوا : نشهد أنك رسول الله حقا يا ابن داود ، ثم رفعت من بعده إلى زمن موسى عليه السلام ، فلما نزلت عليه قهر بها فرعون وجنوده ، وقارون وجنوده ، وهامان وجنوده ، ثم رفعت بعده إلى زمن عيسى عليه السلام ، فأوحى الله إليه يا ابن مريم أما علمت أن آية نزلت عليك ؟ فقال لا يارب ، فقال أنزلنا عليك آية الأمان وهى بسم الله الرحمن الرحيم فالزم قراءتها ليلك ونهارك ، ومسيرك وإقبالك وقعودك وقيامك ، وأكلك وشربك ، وجميع أحوالك ، فإن من جاء يوم القيامة وهى فى صحيفته غفر له ما تقدم من ذنبه .

وقال الإمام البوتى : وبها النجاة حين تدخل فى بيتك وحين تخرج لقوله عليه الصلاة والسلام ولتقل إذا دخلت بيتك وخرجت بسم الله الرحمن الرحيم ولجنا ، بسم الله خرجنا وعليه توكلنا . وتقولها أيضا عند غلق الباب ، فإن الشيطان لا يدخل بابا غلق عليه بسم الله الرحمن الرحيم ، وقال صلى الله

عليه وسلم : لاوضوء لمن لم يسم الله . وكان عليه الصلاة والسلام يفتتح بها سفره : وكان عيسى عليه السلام يسترق ويرق بها من الأوجاع والآلام .
وقال عالم العلماء (هو الإمام البوني) رضي الله عنه : إن بسم الله الرحمن الرحيم محتوية على أنواع منها الباء التي هي متعلق القدرة بالجر ، إذ هي تجر الأسماء باتصالها بأوائلها ، وهي أولى مراتب القدرة الحادثة : يقول القادر الحق على لسان القدرة بي علمت ، وبي أدركت ، وبي كنت . كما قال تعالى فبي يسمع وبي يبصر . قلت : اعلم يا أخي أن الباء إشارة إلى عين القدرة ، والسين إلى سريانها في الأشياء ، والميم إشارة إلى إحاطتها بالكائنات .

وقال بعضهم : الولي المحبوب يعطى التصريف في سرها فعلم الظاهر اعتقاد ، وعلم الباطن ذوق .

وروى قتيبة أن رجلا جرب ، وتقشر جلده ، ولم ينفعه دواء ، فسافر مع قافلة إلى مكة فعجز عن الوصول مع القافلة ، وبقي منقطعاً في السفر قريباً من الكوفة،قال:فأويت إلى مشهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال فرأيته في المنام فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى ما حل بي؟ فقال علي كرم الله وجهه بسم الله الرحمن الرحيم فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، فأصبح الرجل وقد كسي لحما صحيحا فصار يحرس المشهد حتى مات .

وروى أيضاً أن رجلا يسمى المعمر أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم السوط لما سقط منه فقال له الرسول عليه السلام مد يدك ، مد الله عمرك ، قال الرجل وكنت أبرص برصا غلب الأطباء فأتيت إليه ، وشكوت إليه حالي،فرقى علي بسم الله الرحمن الرحيم أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون ، وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ثم قال لي افتح فمك ففتحته

فبصق فيه ، فتقشر جلدى ، وأبدلنى الله مكانه جلدا خيرا من هذا الجلد : فهذا معنى قولهم المتقدم بسم الله من العارف بمنزلة كن من الله ، افهم تغنم وانظر هذه الآية ماأعظمها ، روى أن القلم ما كتبها إلا فى مدة سبعمائة سنة ، وقال له سبحانه : وعزتى وجلالى مامن رجل أوأمة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال بسم الله الرحمن الرحيم إلا وكتبت له ثواب سبعمائة سنة ، ذكر هذا الحديث القدسى الشيخ على بن برى فى شرحه وهو عجيب جدا ، قلت من ذكر البسملة على بساط المعرفة أعطاه الله مالاعـــين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال شارح ياقوتة التوحيد وفى حديث على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن كتاب فيه بسم الله الرحمن الرحيم يلقى ببقعة من الأرض إلا بعث الله من يرفعه ، فإذا رفعه أدخله الله الجنة ، وخفف عن والديه وإن كانا مشركين ، وفى الخبر : إذا كان يوم القيامة وزنت أعمال عباد هذه الأمة فزادت ركعة واحدة من صلاتهم على ألف ركعة من بنى إسرائيل فيقولون : ياربنا ما بال أمة محمد صلى الله عليه وسلم ركعة واحدة من صلاتهم تزن ألف ركعة من صلاتنا ، فيقول الله تعالى : لأن فى صلاتهم بسم الله الرحمن الرحيم .

(م) الحمد لله الذى قسم فى أزله معرفته على أرواح الأنام .

(ش) قلت به عنه : « الحمد لله » هو الثناء على المحمود بحق وهو الله سبحانه وتعالى ، الحمد رأس الشكر لقوله عليه السلام : الحمد رأس الشكر ماشكر الله من لم يحمده ، وقال عليه السلام : اللهم لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . وروى أن سيدنا داود عليه السلام قال يارب كيف أشكرك والشكر نعمة أخرى فأوحى الله تعالى إليه: ياداود إذا علمت أن كل مامنك من نعمة فهى منى فقد شكرتنى ، وإن لم تذكر ذلك بلسانك .

وقال الإمام البوتى رحمه الله تعالى فى شمس معارفه : اعلم هدانا الله وإياك أن الحمد هو حقيقة البقاء ، وسر الدار الآخرة الديمومية الوجودية التى هى الجنة فى اليوم الآخر ، وذلك أنه تعالى حمد ذاته بذاته ، وأمر عرشه أن يحمده فحمده ، وأمر كرسيه أن يحمده فحمده بالنسبة لما فيه من أعداد الموجودات ، وأمر القلم أن يحمده فحمده بما أنزل إليه من معرفته بحصر المعارف والتصريف بالقدرة ، وأمر السموات أن تحمده ، فحمدته بعدد مافيها ، وأمر الجنة أن تحمده ، فحمدته بما فيها من الثواب والحور العين ، وأمر النار أن تحمده ، فحمدته بما فيها من العقارب والحيات ، وكل بالسنة قدرها ، ومحامد يسرها ، ثم جمع الله حمد الأولين والآخرين من تعداد أنواع العالمين فى أم القرآن فهى أم الكتاب . كما أن الحمد فى الجنة هو أس النعيم وسر البقاء ، قال الله تعالى : دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين : فآخر دعواهم الحمد ، وأول الكتب الحمد ، فافهم سر الحمد فى الجنة واتصاله بحمد الكتاب .

واعلم أن الحمد على أربعة أقسام : حمد على التعظيم لله تعالى ، وهذه رتبة العامة المحفوظين وهى من مراتب السالكين ، وحمد على كل حال من الأحوال ، وهو حمد الصادقين المحققين ، وحمد الله تعالى على إلهامه ، وهو حمد العارفين . وحمد الله نفسه لنفسه ، فالذى يفرحك هو منة الله تعالى عليك بالمدح لسائر خلقه ، وإياك أن يجرى على لسانك كلمة كذب ، أو غيبة ، فإن من كذب فى يومه كذبة واحدة لم يقبل الله حمده ، فإن كنت من عالم الجسم فاحمده على نعمة الصحة ، وإن كنت من عالم أرباب القلوب ، فاحمده على ما وهبك تعالى من العقل الوافر ، ثم احمده على الإيجاد ، وهو أفضل النعم وأعظمها ، فالأطوار كلها حامدة لله تعالى على الدوام .

قال بعض العارفين بالله : إن الشخص إذا لم يثن على المنعم بما يدل على تعظيمه وإكرامه لم يظهر منه شكر .

(م) الذى قسم فى أزله معرفته على أرواح الأنام .

(ش) أعنى قسم فى قدمه أول ماخلق خلقه معرفته الدالة على ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، على أرواح الأنام ، على الأرواح يوم « ألست بربكم » ، وفى الحديث : أن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور هدى ، ومن أخطأه ضل ، فعرفة العبد لربه على قدر نوره الذى رش على روحه ، فإذا ظهر رشحه قذفت تلك المعرفة فى قلبه بسبب أو بغير سبب . وهى من النور المحمدى .

وقال على كرم الله وجهه : ركضت أرواح الأنبياء فى ميادين المعرفة ، فسبقتها روح نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فخلع عليها المعرفة ، وهو صلى الله عليه وسلم السابق فى الأزل .

فالمعرفة هى ثلاثة أقسام : إجمالية ، وتفصيلية ، وإلهامية ، وأهل كل قسم من تلك الأقسام يتفاوتون فيه على حسب مامنحهم العليم العلام ، وفضل الله الرجال بعضهم على بعض فى معارفه ، ومراتب الدين أيضاً ثلاثة أقسام: إسلام ، وإيمان ، وإحسان ، وكلمة الحق سبحانه وتعالى أعنى (لاإله إلاالله) لها ثلاثة معان لأهل كل مرتبة معنى يليق بهم ، وينجيهم الله تعالى به من الكفر والضلال ، فمعرفه الله تعالى الإجمالية لأهل الإسلام ، والتفصيلية لأهل الإيمان ، والإلهامية لأهل الإحسان ، فأهل المعرفة الإجمالية والتفصيلية يستدلون بالآثار على المؤثر سبحانه وتعالى ، وأهل المعرفة الإلهامية يستدلون بالمؤثر على الآثار لقيامها به تعالى ، وسميت هذه المعرفة الإلهامية لأن غالبها يأتى للولى من وحى الإلهام .

قال الشيخ محي الدين بن العربى فى حكمه : وحى الأولياء بالإلهام ، ووحى الأنبياء بالملائكة الكرام ، وأما الدليل على معرفة الله الإجمالية

ومعنى لاإله إلا الله فى مرتبتها أنه إذا قال أحدهم لاإله إلا الله صدق وحقق بأن لارب له غير الله تعالى ، ولهـا أيضا دليل عقلى ، ونقلى من الكتاب والسنة : فأما النقلى فقوله سبحانه وتعالى : وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ، وقال تعالى ربكم ورب آبائكم الأولين .

وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام : الله ربى ولا أشرك به شيئا . وقال عليه السلام : الرب واحد ، وقول الملكين السائلين للميت فى قبره ، أعنى منكراً ونكيراً الواردة فيهما الأحاديث فانهما لايسألانه إلا عن معرفة الله تعالى الاجمالية ، ولايسألانه عن الواجب والمستحيل والجائز فى حقه تعالى ، بل يقولان له ماربك ، وما نبيك وما دينك إلى آخر قولهما ، فيقول لهما : الله ربى ، ومحمد نبيى ، والإسلام دينى ، من غير تفصيل فى المعرفة الإلهية ، والشقى إذا سألاه يقول لاأدرى ، ومن الدليل عليها أيضاً حديث الجارية السوداء ، كما ورد أنه كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم رجل وقع عليه ظهار ، وأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما وقع عليه فأمره بعتق رقبة مؤمنة فأخذ له جارية سوداء وأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : أين ربنا ياسوداء فرفعت طرفها إلى السماء ، ثم قال لها أين محمد ، فأشارت إليه فقال عليه الصلاة والسلام أعتقوها .

ومن الدليل العقلى قول الشيخ السنوسى رضى الله عنه : أما برهان وجوده تعالى فحدوث العالم وهو من الأدلة العقلية على معرفة الله الإجمالية . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة أصحاب الكهف : فلما كان فى بعض الليالى والأيام ، ويمليخا وإخوته نائمون فى أعلى سطح قصورهم ، انتبه يمليخا ونظر إلى السماء وهى محتبكة بالنجوم ونظر إلى القمر وتفكر فى مخلوقات الله تعالى ، وقال فى نفسه : لابد لهذه القدرة من إله عظيم ، فقام من ساعته ونبه إخوته من نومهم ، وقال ياأخوتى هذه السماء ، وهذه النجوم دقيانوس خلقها ؟ قالوا له لا . قال : هذه الجبال دقيانوس أرساها ؟ قالوا

له : لا . قال لهم هذه البحار دقيانوس أجراها ؟ قالوا له لا . قال يمليخا إذن تعالوا نعبد الله الذى خلق هذا كله ، فلابد لهذا أن يكون له إله خلقه، وهو إله موسى وهرون والنبيين من قبله ، فقال له إخوته : الذى تقوله هو الصواب .

فهذه أدلة معرفة الله الإجمالية ، فعجب لمن يسيء الظن بأربابنا ، ويعتقد كفرهم ، فانه فى الدرك الأسفل ، من الجهل . لكن صاحب هذه المعرفة لايقول : سمعت الناس يقولون شيئا ـ قلت : فهذا مقلد حقا .

هذا وقد ذكر شارح ياقوتة التوحيد فى شرحها فقال : يحكى عن قس ابن ساعدة الايادى لما ألهمه الله تعالى النظر الصحيح النافع فرأى فى بعض أسفاره علامة المسير وفضلة البعير ، فنظر ببصره ، وتفكر بعقله ، قال : البعرة تدل على البعير ، والأثر على المسير : سموات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، أفلا يدلان على الواحد القدير.؟ فهذا هو النظر الصحيح ، وقد قيل إنه يبعث أمة . وأيضا من أدلة معرفة الله الإجمالية قول الإعرابى حين سألوه : كيف عرفت ربك ؟ قال بنقض العزائم ، أنا أعزم وهو ينقض . وأوصيك يا أخى وصية نافعة : لاتظن بأهل المعرفة الإجمالية ما يظنه بعض الموحدين القائلين بتكفير المقلد أوعصيانه ، مع أنه لايرجع عن قوله : الله ربى ، ومحمد نبى ، من غير تفصيل . فان ذلك يؤدى إلى سوء الظن بعباد الله الموجب لسخط الله تعالى .

قال سيدى الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرحه على الحكم العطائية : ورد فى الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال خصلتان ليس فوقهما من الخير شيء : حسن الظن بالله . وحسن الظن بعباد الله . وخصلتان ليس فوقهما من الشر شيء : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله . قلت:وهذا الحديث إنما نسوقه لأهل معرفة الله التفصيلية العارفين بتفصيل الواجب والمستحيل

والجائز فى حقه تعالى وفى حق رسله عليهم الصلاة والسلام حينما يظنون ظن السوء بأهل المعرفة الإجمالية ولم يعرفوا أنهم هم أنفسهم عميان بصيرة فى استدلالهم على الحاضر المؤثر بالآثار .

فلا تظن يا أخى بأهل المعرفة الإجمالية الذين يعرفون أن الله ربهم ما يظن هؤلاء القائلون بكفر المقلد أو عصيانه . وقد رأيت بعض أهل هذه المعرفة الإجمالية ولا يعرفون التفاصيل يقولون لأهل المعرفة التفصيلية : الرسول ماجاهد الكفار بالسيف إلا على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله من غير تفصيل لواجب ولا مستحيل وجائز بل قال عليه الصلاة والسلام: إذا قالوها عصموا منى دماءهم ، وأموالهم إلا بحقها . ومعرفة حقها معرفة معناها إجمالا لا تفصيلا فيما يخصهم ، وإن كان ذلك يقتضى معرفة التفاصيل فيما يخص القائمين بالأمر .

وقد سمعنا من بعض أكابر العلماء الموحدين العارفين معنى الحديث : حقها قواعد الإسلام التى بعدها . وقال بعضهم حقها أن يترك الصلاة أو يزنى بعد الإحصان أو يفعل ما يوجب الحد فى المال أو الدم .

وقد روى فى منتخب الأحكام عن ابن القاسم ، وسحنون ، وابن وهب : من ترك إحدى الفرائض يؤكل ماله شرعا ، ويقتل تارك الصلاة بعد المطالبة إذا امتنع ؛ فأين من ذلك الدم والمال ؟ نكتة عظيمة فيها معان جسيمة ، وبشارة كريمة : اجتمعت برجل مات وأحياه الله تعالى فقال لى قلت للملك الذى أتانى برجوع روحى بإذن الله تعالى : أنا ماقرأت الكتاب : فقال لى المؤمنون ما هم مسئولون عن الكتاب ، مسئولون عن قواعد الإسلام الخمس .

واعلم يا أخى أن المعرفة الإجمالية أكثر فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من التفصيلية والإلهامية . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: من ساءته سيئته،

وسرته حسنته فهو المؤمن ، ولهم فى ذلك أسوة حسنة . وقال عليه الصلاة والسلام : أمتى ثلثا أهل الجنة ؛ ولا يكمل سر هذا الحديث إلا بأهل المعرفة الإجمالية ، فالعاقل يتوقى من تكفيرهم ، ولايسيء الظن بهم .

قال صاحب ياقوتة التوحيد رضى الله عنه :

وبه بعض الأئمة صرحوا ... وكفى ، إذهم به قد أفصحوا
كالشيخ أبى منصور الماتريدى ... إذ اكتفى بصحة التقليد
وجملة الأئمة الفحول ... جاءوا بمثل هذا القول

قال شارحها : نقل الشيخ أبو طاهر القزوينى فى كتاب سراج العقول عن أحمد بن زاهر السرح أجل أصحاب الشيخ أبى الحسن الأشعرى رضى الله عنه : فلما حضرت الشيخ الوفاة بداره ببغداد قال لى اجمع أصحابى ، فجمعتهم له ، فقال لنا الإمام رضى الله عنه : اشهدوا على أنى لم أقل بتكفير عوام المسلمين من أهل القبلة ، لأنى رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبود واحد ، والإسلام يشملهم ويعمهم .

وقال أبو طاهر: انظر كيف سماهم مسلمين.. وقال أيضا من كتاب اليواقيت والجواهر للشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : كان شيخ مشايخنا الكامل كمال الدين الهمام رحمه الله تعالى يقول : تصور التقليد فى مسائل الإيمان عسير جدا ، فقل أن ترى مقلدا فى الإيمان بالله تعالى من غير دليل ؛ حتى آحاد العوام فإن كلامهم فى الأسواق محشو بالاستدلال بالحوادث على وجود الحق تعالى وصفاته ، وصورة التقليد هى أن يسمع الناس يقولون إن للخلق ربا خلقهم وخلق كل شيء وهو يستحق العبادة عليهم وحده لاشريك له فيجزم السامع بذلك ، فإذا كان ذلك الجزم بحيث لايجوز معه كون الواقع على النقيض منه فقد قام بالواجب من الإيمان ؛ ومقصود الاستدلال هو ذلك الجزم . فإذا هو قد حصل ما هو المقصود منه ثم قيامه

بالواجب ؛ وفى هذا تحسين للظن بهؤلاء وتكبير لشأنهم عن الخطأ (فى الإقرار بربوبية الله ووحدانيته عن طريق الإجمال لا التفصيل) وقول الناظم: وجملة الأئمة الفحول قال يريد الأئمة الأربعة أهل المذاهب ، فإنهم لم يقولوا بالتكفير ، فالحذر ثم الحذر من تكفير هذه الأمة .

وأما معرفة الله تعالى التفصيلية ، فهى المعرفة التى عليها مدار أهل السنة والمتكلمين فى علم الكلام ؛ وفيها تنزيه للبارى جل وعلا ذاتا وصفاتا وأفعالا . وها أناذا أتكلم فيها بحسب الإمكان ، لكن ، كما قيل ، من التطويل كلت الهمم .

فمعنى لا إله إلا الله عندهم : لامستغنى عن كل ماسواه ، ومفتقرا إليه كل ماعداه إلا الله تعالى . وها أناذا أذكر لك ماقاله الشيخ فرح وغيره فى هذا الباب .

اعلم يا أخى أن التوحيد أول قاعدة من قواعد الإسلام ، وهن خمس التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .. والتوحيد تدخل فيه أركان الإيمان الستة : الإيمان بالله ـ والإيمان بالرسل ، والإيمان بالكتب السماوية ، والإيمان بالملائكة ، والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بالقدر ، ومعنى الايمان التصديق القلبى بذلك ، والإيمان بالقدر هو تصديقك بفعل القدر عليك من خير وشر على أن تكون راضياً به ، وذلك من أدلة الذوق فى توحيد الأفعال ، فلا يكمل إيمان المرء إلا بذلك .

والإيمان بالله يعتمد على ثلاثة أقسام فى المعرفة : معرفة الواجب والمستحيل ، والجائز . فالواجب عشرون صفة ، والمستحيل كذلك ، والجائز واحد . والجملة إحدى وأربعون عقيدة مأثورة عن أكابر أهل السنة .

فالواجبات العشرون هى : الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والمخالفة

للحوادث ، والقيام بالنفس ، والوحدانية ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، وكونه تعالى قادرا ، ومريدا ، وعالما ، وحيا ، وسميعا ، وبصيرا ، ومتكلما .

والمستحيلات العشرون هى العدم ، والحدوث ، والفناء ، والمماثلة للحوادث ، والافتقار إلى المحل والمخصص ، والتعدد فى الذات والصفات والأفعال ، والعجز ، والكراهة ، والجهل ، والموت ، والصمم ، والعمى ، والبكم ، وكونه ـ تعالى ـ عاجزا ، وكارها ، وجاهلا ، وميتا وأصم وأعمى وأبكم ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

والجائز فى حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه .

وأما التقسيم الجامع فهو أن الوجود واجب لله ، يقابله العدم وهو مستحيل عليه ، والقدم واجب لله ، والحدوث مستحيل عليه ، والبقاء واجب لله تعالى ، والفناء مستحيل عليه ، والمخالفة (للحوادث) واجبة لله تعالى ، والمماثلة مستحيلة عليه ، والإرادة واجبة لله تعالى ، والكراهة مستحيلة عليه ؛ والعلم واجب لله تعالى ، والجهل مستحيل عليه ، والحياة واجبة لله تعالى والموت مستحيل عليه ، والسمع واجب لله تعالى ، والصمم مستحيل عليه ؛ والبصر واجب لله تعالى ، والعمى مستحيل عليه ، والكلام واجب لله تعالى ، والبكم مستحيل عليه ؛ والقدرة واجبة لله تعالى ، والعجز مستحيل عليه ، والإرادة واجبة لله تعالى والكراهة مستحيلة عليه ، وكونه مريدا واجب لله تعالى ، وكارها مستحيل عليه ، وعالما واجب لله تعالى ، وجاهلا مستحيل عليه ، وحيا واجب لله تعالى ، وميتا مستحيل عليه ، وسميعا واجب لله تعالى ، وأصم مستحيل عليه ؛ وبصيرا واجب لله تعالى ، وأعمى مستحيل عليه ؛ ومتكلما واجب لله تعالى ، وأبكم مستحيل عليه ؛ وجائز فى حقه تعالى فعل كل ممكن أو تركه .

والواجبات العشرون تنقسم إلى أربعة أقسام : نفسية ، وسلبية ، ومعان،ومعنوية . فالنفسية واحدة وهي الوجود ؛ والسلبية خمس،وهي القدم، والبقاء والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس ، والوحدانية ؛ والمعاني سبعة : القدرة ، والإرادة ، والعلم والحياة ، والسمع ، والبصر، والكلام . والمعنوية سبع : قادر ، ومريد ، وعالم ، وحي ، وسميع وبصير ، ومتكلم ، والمعاني سميت معاني لأن كل واحدة لها معنى موجود قائم بذاته تعالى . زائد عليها ، والمعنوية سميت معنوية لأنها فرع منها ، قائمة بقيامها .

وكل واحدة منها لها سبعة مطالب : إلا الحياة لها ستة ، فالجملة ثمانية وأربعون مطلبا .

فالقدرة مطالبها السبعة : نشهد ونعتقد أن قدرة الله تعالى موجودة ، وقديمة ، وباقية ، ومخالفة لقدرتنا الحادثة ، وغنية عن المخصص ، وواحدة، وعامة التعلق بجميع الممكنات .

والإرادة مطالبها : نشهد ونعتقد أن إرادة الله تعالى موجودة ، وقديمة ، وباقية ، ومخالفة لإرادتنا الحادثة ، وغنية عن المخصص ، وواحدة ، وعامة التعلق بجميع الممكنات .

والعلم مطالبه : نشهد ونعتقد أن علم الله تعالى موجود ، وقديم ، وباق ، ومخالف لعلمنا الحادث ، وغني عن المخصص ، وواحد ، وعام التعلق بجميع المعلومات .

والحياة مطالبها الستة : نشهد ، ونعتقد ، أن حياة الله تعالى قديمة ، وباقية ، ومخالفة لحياتنا الحادثة ، وغنية عن المخصص ، وواحدة ، ولا تعلق لها بشيء .

والسمع مطالبه : نشهد ونعتقد أن سمع الله تعالى موجود ، وقديم ، وباق ، ومخالف لسمعنا الحادث ، وغني عن المخصص ، وواحد ، وعام التعلق بجميع الموجودات .

والبصر مطالبه : نشهد ونعتقد أن بصر الله تعالى موجود ، وقديم ، وباق ، ومخالف لبصرنا الحادث ، وغنى عن المخصص ، وواحد ، وعام التعلق بجميع الموجودات .

والكلام مطالبه : نشهد ونعتقد أن كلام الله تعالى موجود ، وقديم ، وباق ، ومخالف لكلامنا الحادث ، وغنى عن المخصص ، وواحد ، وعام التعليق بجميع المعلومات .

وصفات المعانى السبع تنقسم إلى أربعة أقسام : قسم لايتعلق بشىء ، وهو الحياة ، وقسم يتعلق بجميع الممكنات ، وهو القدرة والإرادة ، وقسم يتعلق بجميع الموجودات ، وهو السمع والبصر ، وقسم يتعلق بجميع المعلومات ، وهو العلم والكلام .

والتعلق على ثلاثة أقسام : تعلق تأثير ، وتعلق انكشاف ، وتعلق دلالة ، فتعلق التأثير للقدرة والإرادة ، وتعلق الانكشاف للسمع والبصر والعلم ، وتعلق الدلالة للكلام . . فافهم .

والقدرة والإرادة يتعلقان بجميع الممكنات .

والممكنات على خمسة أقسام : ممكن وجد وانقضى ، وممكن موجود فى الحال ، وممكن سيوجد فى المستقبل : وممكن علم الله أنه لايوجد ، وممكن علم الله أنه لاينعدم كالجنة والنار واللوح ، والسمع والبصر يتعلقان بجميع الموجودات .

والموجودات على قسمين : موجود قديم ، وموجود حادث ، فالموجود القديم هو ذات الله وصفاته ، والموجود الحادث كذواتنا وصفاتنا .

والعلم والكلام يتعلقان بجميع المعلومات .

والمعلومات على ثلاثة أقسام : واجب ، ومستحيل ، وجائز ، فالواجب

ذات الله تعالى ، وصفاته وأسماؤه ، والمستحيل ، كالشريك له تعالى والولد والنقائص ، والجائز كذواتنا ، وصفاتنا ، وأسمائنا .

والقدرة والإرادة أيضاً يتعلقان بجميع الممكنات .

والممكنات (هى) المتقابلات والمتنافرات التى لايصح اجتماعها فى محل واحد ، وهى ستة ، تقابلها ستة : الوجود والعدم ، والمقدار والمقادير ، والجهة والجهات،والصفة والصفات ، والزمان والأزمنة ، والمكان والأمكنة. والسمع والبصر يتعلقان (كما ذكرنا آنفا) بجميع الموجودات .

والموجودات (من حيث المحل والمخصص ، لامن حيث القدم والحدوث المذكورين آنفا) على أربعة أقسام : قسم غنى عن المحل والمخصص وهو ذات مولانا عز وجل ، وقسم محتاج إلى المحل والمخصص وهو (صفات الحوادث) وتسمى (الأعراض) ، وقسم محتاج إلىمخصص دون المحل وهو (ذوات الحوادث) وتسمى (الأجرام) وقسم موجود فى المحل وغنى عن المخصص وهو صفات مولانا عز وجل الوجودية كالمعانى السبعة .

والعلم والكلام (كما أشرنا سابقا) يتعلقان بجميع المعلومات .

والمعلومات (من حيث العدم والوجود لامن حيث الوجود والاستحالة والجواز) على قسمين : معلوم موجود ، ومعلوم معدوم ، والمعلوم الموجود علىقسمين : قديم وحادث ، فالقديم ذات الله تعالىوصفاته ، والحادث كذواتنا وصفاتنا ، والمعلوم المعدوم على قسمين أيضا : مستحيل وجائز ، فالمستحيل كالشريك والولد والنقائص ، والجائز كالممكنات الثلاثة المعدومة .

وعلم أن الله موجود بلا مكان ، ويرى يوم القيامة بلا كيف ولا جهة ، وكلامه تعالى بلا حرف ولا صوت ، حيث إن الحروف والأصوات حادثة كما أن كلامه تعالى قديم .

وكل من أنكر دلالة المخلوقات على صانعها فهو كافر ، ولذلك قال المتكلمون:

من حدوث العالم أصل عظيم لسائر العقائد ، وأساس كبير من الفوائد . فمن قال بقدمها ، أو شك فى حدوثها فهو كافر بالله العظيم ، ومن رأى بها قيام الوحدة ، فهو (الذى قد) وحده . افهم مقالى ذلك . ولا تكونن هالك .
(ولتوضيح ذلك) اعلم أيها المكلف أن الوجود واجب لله تعالى ، والعدم مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات لأن الله تعالى لو لم يكن موجودا ، لكان معدوما ، ولو كان معدوما لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والقدم واجب لله تعالى ، والحدوث مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله تعالى لو لم يكن قديما لكان حادثا ، ولو كان حادثا لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والبقاء واجب لله تعالى ، والفناء مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن باقيا لكان فانيا ، ولو كان فانيا لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والمخالفة للحوادث واجبة لله تعالى ، والمماثلة مستحيلة عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن مخالفا للحوادث ، لكان مماثلا لها ، ولو كان مماثلا لها لم يوجد شيء ، من هذه المخلوقات .

والقيام بالنفس واجب لله تعالى ، والافتقار مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن قائما بنفسه ، لكان مفتقراً ، ولو كان مفتقرا لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والوحدانية واجبة لله تعالى ، والتعدد مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن واحدا ، لكان متعددا ، ولو كان متعددا لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والقدرة واجبة لله تعالى ، والعجز مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه

المخلوقات . لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن متصفا بالقدرة ، لكان متصفاً بالعجز ، ولو كان متصفا بالعجز ، لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والإرادة واجبة لله تعالى ، والإيجاد مع الكراهة مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن متصفا بالإرادة لكان متصفا بالإيجاد مع الكراهة ونحوها ، ولو كان متصفا بالإيجاد مع الكراهة لم يوجد شيء من المخلوقات .

والعلم واجب لله تعالى والجهل وما في معناه مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن متصفا بالعلم ، لكان متصفا بالجهل ، ولو كان متصفا بالجهل وما في معناه ، لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والحياة واجبة لله تعالى ، والموت مستحيل عليه . والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن متصفا بالحياة ، لكان متصفا بالموت ، ولو كان متصفا بالموت لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والسمع والبصر واجبان لله تعالى والصمم والعمى مستحيلان عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن متصفا بالسمع والبصر ، لكان متصفا بالصمم والعمى ، ولو كان متصفا بالصمم والعمى لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

والكلام واجب لله سبحانه وتعالى ، والبكم مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات ، لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يكن متصفا بالكلام، لكان متصفا بالبكم ، ولو كان متصفا بالبكم لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

وكونه تعالى قادرا واجب لله تعالى ، وعاجزا مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات .

ومريدا ، واجب لله تعالى ، وكارها مستحيل عليه ، والدليل ذلك هذه المخلوقات .

وعالما واجب لله تعالى ، وجاهلا مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات .

وحيا واجب لله تعالى ، وميتا مستحيل عليه ، والدليل على ذلك هـذه المخلوقات .

وسميعاً وبصيراً ، واجب لله تعالى ، وأصم وأعمى مستحيلان عليه ، والدليل على ذلك هذه المخلوقات .

ومتكلما ، واجب لله تعالى ، وأبكم مستحيل عليه ؛ والدليل على ذلك هذه المخلوقات . لأن الله تبارك وتعالى لو لم يكن قادرا ، لكان عاجزا ؛ ولو لم يكن مريدا ، لكان كارها ؛ ولو لم يكن عالما لكان جاهلا ، ولو لم يكن حيا لكان ميتا ، ولو لم يكن سميعا وبصيرا ، لكان أصم وأعمى ، ولو لم يكن متكلما لكان أبكم ، ولو كان عاجزا ، أوكارها ، أوجاهلا ، أوميتا ، أوأصم ، أو أعمى ، أو أبكم ، لم يوجد شيء من هذه المخلوقات .

واعلم أيها الناظر فى الصفات الواجبة لله تعالى أن صفات المعانى منها قائمة بالصفات المعنوية والمعتقد فيها واحد ، فافهم تغنم .

(هذا) والجائز (فى حقه تعالى كما ذكرنا) فعل كل ممكن أو تركه ، والفعل يشمل وجهين : الإيجاد والإعدام ، والدليل على ذلك المشاهدة ، فإننا نشاهد ممكنات وجدت وانعدمت ، فلو كانت مستحيلة (عليه سبحانه وتعالى) لما وجدت ، ولو كانت واجبة (الوجود) لما انعدمت ، فهذا دليل الجواز .

* * *

واعلم يا أخى أن خاتمة معرفة الله (هى) معرفة رسله (عليهم الصلاة والسلام) ما يجب فى حقهم وما يستحيل وما يجوز ، فالواجب فى حقهم

أربع صفات : الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة ؛ والمستحيل فى حقهم أربع : الكذب ، والخيانة ، والكتمان لما أمروا بتبليغه ، والبلادة .

وأما معرفة الله الإلهامية ، فهى أصل العلوم اللدنية ، ومعنى لاإله إلاالله عندهم ، أن تشهد بقلبك ، وتحضر بسرك ، وتذوق بروحك (أن) لافاعل فى الوجود إلا الله ، فإذا سرى فى كليتك هذا المعنى شهدت لاحى فى الوجود إلا الله . فإذا أدهشتك أنوار الأزل فى مشهده المنزه (عن الأين ، والكيف، والعلل) شهدت لا موجود إلا الله تعالى .

ثم إن معرفة الله الإلهامية على قسمين ، كسبية ووهبية ، فالكسبية تأتى للولى بواسطة ذكر الله تعالى حتى تهب عليـــه هبوب الرحمة منه تعالى ، والوهبية خواطر تهجم (على) القلب ، من حضرة الرب ، من غير سبب ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . قال تعالى :كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك،وما كان عطاء ربك محظورا . . فالمدد للكسبية والعطاء للوهبية . فافهم . فيقول أهل المعرفة الإلهامية لمن حجبوا عنها : متى غاب ، حتى يستدل عليه ، ومتى بعد حتى تكون الآثار موصلة إليه ، مع قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) أى عملكم ، فهو الفاعل لما تفعلون (فكيف يبعد)،ومتى غاب ، مع قوله تعالى ، (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) أم كيف يكون له تعالى شبيه ومثيل ونظير ، مع قوله تعالى : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ، وكيف يكون له تعالى شريك ومعاند، مع قوله تعالى : (لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد)،فالعجز عن درك الإدراك إدراك ، وهذا القدر فى التوحيد كاف ، وأقوال الورى فى الأرض شتى ، وما قصر هاهنا من معرفة الله الإلهامية تجده أمامك فى الحكم اللدنية ، وفوق كل ذى علم عليم .

(م) والصلاة والسلام على نبيه الذى نشأ منه الوجود فى البدء والختام .

(ش) قلت به عنه ، ناسجا لما انطوت هذه الحكمة عليه ، من المعانى والفضائل فى الصلاة والسلام على نبيه المقرب لديه :

الصلاة من الله (هى) الرحمة المقرونة بالتعظيم لنبيه محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، ومن الملائكة استغفار ،ومن الآدميين تضرع ودعاء. وقال شارح ياقوتة التوحيد فى شرحه عليها : قال مجاهد رضى الله عنه : الصلاة من الله التوفيق والعصمة،ومن الملائكة العون والنصرة ، ومن المؤمنين المتابعة والمحبة . اه . من الغنية للشيخ عبد القادر رضى الله عنه .

وقال بعض العـــارفين رضى الله عنهم : صلاة الرب على نبيه تعظيم للحرمة ، وصلاة الأمة عليه طلب للشفاعة .

فصلاة الله الرحمة ، كما تقدم ، وصلاة الآدميين الدعاء ، وصلاة الملائكة الشفاعة والاستغفار للمؤمنين ، وقال الله تعالى : (ويستغفرون لمن فى الأرض) .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه فى كتابه المسمى (بالغنية) الصلاة من الله تعالى رحمة ، ومن الملائكة شفاعة واستغفار الخ . ومن هنا كان الكلام فى أفضلية الملائكة على الأنبياء ، وفيها أقوال ثلاثة : الأول أن الملائكة أفضل ، الثانى أن الأنبياء أفضل ، الثالث : فرق بين ملائكة السماء فهم أفضل من الأنبياء ، وبين ملائكة الأرض فالأنبياء أفضل منهم . وهذا الخلاف جار فيما عدا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد انعقد الإجماع على أن النبى صلى الله عليه وسلم أفضل مخلوقات الله عز وجل . قال التاج السبكى : أفضل من العرش والكرسى ، ولذا قال النيسابورى لو احتاج فضل نبيا إلى دليل ، لاحتاج النهار إلى دليل . واعلم أن الجن صلاتهم عليه كالآدميين .

والسلام معناه الأمان ، وهو زيادة تأمين له ، عليه الصلاة والسلام ،

وتحية ، وإعظام . هذا وقد ألف أهل الدين فى الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم وفضلها وأسرارها ، مايزداد به العاشق لجماله حبا وطربا ، والمحب لجلالة (سوقا) (و) شوقا .

فمن ذلك ماروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى عليه مرة واحدة أمر الله كاتبيه ألا يكتبا عليه ذنبا ثلاثة أيام .. ففى هذا الحديث الشريف ترغيب قوى فى الإكثار من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وبشارة عظيمة بأن المصلى على النبى صلى الله عليه وسلم مرة واحدة يبقى فى ضيافتنا ثلاثة أيام،فكيف بمن أكثر من الصلاة عليه ؟ ولهذا لايخلو مؤمن من هذا الفضل لأنه قل من لايصلى عليه كل يوم من أمته مرة ، فله تعالى الفضل والمنة .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم على صلاة فى الدنيا . وعنه رضى الله عنه فى الموطأ وسنن النسائى : من صلى على النبى صلى الله عليـــه وسلم مرة واحدة ، صلى الله وملائكته عليه سبعين صلاة .

ونقل الشيخ كمال الدين الدميرى رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من سره أن يلتى الله تعالى وهو راض عنه ، فليكثر من الصلاة على ، فإنه من صلى على فى كل يوم خمسمائة مرة لم يفتقر أبدا ، وهدمت ذنوبه ، ومحيت خطاياه ، وأعين على عدوه ، وعلى أسباب الخير ، وكان ممن يرافق نبيه فى الجنة .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى على كل صباح عشر مرات محيت عنه ذنوبه أربعين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم : الصلاة على نور على الصراط . وقال صلى الله عليه وسلم : لايلج النار من صلى على ،

وفى رواية أخرى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من صلى على صلاة واحدة لم يلج النار حتى يعود اللبن فى الضرع .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ثلاثة تحت عرش الله يوم لا ظل إلا ظله ، قيل : من هم يارسول الله ؟ قال : من فرج على مكروب من أمتى ، ومن أحب سنتى ، ومن أكثر الصلاة على .

ومن كتاب مشارق الأنوار القدسية فى شأن العهود المحمدية ، للشيخ العارف بالله تعالى ورسوله سيدنا الشيخ عبد الوهاب الشعرانى عن شيخه سيدى على الخواص أنه قال : أخذ علينا العهد العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نكثر من الصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ليلا ونهارا، وأن نذكر لإخواننا ما فى ذلك من الأجر والثواب ، وترغبهم فى ذلك كل الترغيب إظهارا لمحبته صلى الله عليه وسلم وأن يجعلوا لهم فيها وردا من ألف صلاة إلى عشرة آلاف لأن ذلك من أفضل الأعمال .

وقد ذكر الثعلبى فى كتاب العرائس أى العرائس الذين جالت أرواحهم فى ملكوت العز أن الله خلق خلقا وراء جبل ق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ليس لهم عبادة إلا الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال فيه أيضا : وقد حبب إلى يا أخى أن أذكر لك جملة من فوائد الصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم تنشيطا لك ، لعل الله يرزقك محبته الكاملة ؛ فيصير شغلك فى أكثر أوقاتك الصلاة والتسليم على رسول الملك الكريم ، وتهب ثواب عملك (هذا) لروح النبى صلى الله عليه وسلم (فيصير بذلك) أفضل من كل عمل ؛ ثم تصير تهدى ثواب كل عمل عملته فى صحيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أشار إلى ذلك خيبرة بن عجوزة رضى الله عنه حيث قال : إنى أجعل لك صلاتى كلها أى أجعل لك ثواب جميع أعمالى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إذن يكفيك الله هم دنياك وآخرتك .

فمن تلك الفوائد وهى أتمها : صلاة الله وملائكته (ورسله) على من صلى عليه صلى الله عليه وسلم . ومنها تكفير الخطايا ، وتزكية الأعمال ورفع الدرجات . ومنها مغفرة الذنوب واستغفار الصلاة عليه (صلى الله عليه وسلم) لقائلها ؛ ومنها كتابة قيراط من الأجر مثل جبل أحد (لقائلها) والكيل (له) بالمكيال الأوفى ؛ ومنها كفاية أمر الدنيا والآخرة لمن جعل ثواب صلاته كلها له كما تقدم .

ومنها أنها أفضل من عتق الرقاب ؛ ومنها النجاة من سائر الأهوال ، وشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقائلها) ووجوب شفاعته له ؛ ومنها رضا الله تعالى ورحمته والأمان من سخطه والدخول تحت ظل عرشه ؛ ومنها رجحان الميزان فى الآخرة ، وورود الحوض ، والأمان من العطش ؛ ومنها الفوز والجواز على الصراط كالبرق الخاطف ورؤية المقعد المقرب فى الجنة قبل الموت ومنها كثرة الأزواج فى الجنة والمقام الكريم ؛ ومنها رجحانها على أكثر من سبعين غزوة فضلا عن قيامها مقامها؛ومنها أنها تقضى له ، يعنى المصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، بكل صلاة تقضى له حاجة بل أكثر . ومنها أنها عبادة و (من) أحب الأعمال إلى الله تعالى ، ومنها أنها علامة على أن صاحبها من أهل الجنة ، يعنى المواظب عليها .

ومنها أن الملائكة تصلى على صاحبها مادام يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ومنها أنها يلتمس بها مظان الخير ؛ ومنها أن فاعلها أولى به صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . ومنها أنها تزين المجالس وتغنى الفقراء ؛ ومنها أنها ينتفع بها المصلى على النبى صلى الله عليه وسلم هو وولده ، وكذلك من أهدى ثوابها فى صحيفته .

ومنها أنها تقرب إلى الله عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومنها أنها تنصر على الأعداء وتطهر القلب من الصدأ .

ومنها رؤية النبى صلى الله عليه وسلم (مناما) وإن أكثر منها رآه فى اليقظة . ومنها أنها تقلل اغتياب صاحبها ، وهى من أبرك الأعمال وأفضلها وأكثرها نفعا فى الدنيا والآخرة وغير ذلك من الأجور التى لاتحصى .

قال بعض أهل الله تعالى : وقد أمرنا بها مولانا أبو العباس الخضر عليه السلام ، وقال لى لازم عليها بعد الصبح كل يوم إلى طلوع الشمس ثم اذكر الله عقبها مجلساً لطيفاً ، قال ففعلت ذلك فحصل لى ولأصحابى خير الدنيا والآخرة . وقال الخليل رحمة الله عليه : رأيت بخط بعض العلماء رحمه الله أنه أصابه هم فرأى فى منامه قائلا ينشد هذين البيتين فانتبه وهو يحفظهما :

إذا كنت فى ضيق وهم وفاقة
وأمسيت مكروبا وأصبحت فى حرج

فصل على المختار من آل هاشم فإن إله العرش يأتيك بالفرج .

وأما كيفياتها فكثيرة مما قرر من الواردات وغيرها . وقد سألت شيخى العارف بالله ورسوله الشيخ محمد السمان أمدنا الله بمدده فى كل آن قلت : يا سيدى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم تحتاج إلى شيخ أم لا ؟ فقال رضى الله عنه إنها تحتاج إلى شيخ . يعنى من جهة التربية والترقية لامن جهة الأجر والثواب ، فإن ذلك حاصل لامحالة . هذا مافهمته من كلامه ، فاعتبر لهذه النكتة .

وقال أيضا الشيخ محمد السمان ، أمدنا الرحمن بمدده فى كل آن ، ورحمه الله وأكرم مثواه ، فى رسالته المسماة التصورات : إن التعلق المعنوى بالجناب المحمدى صلى الله عليه وسلم على قسمين : الأول استحضار صورته صلى الله عليه وسلم والتأدب لها حالة الاستحضار بالإجلال والتعظيم والهيبة ، فإن لم تستطع ، يعنى استحضار الصورة المذكورة فى شمائله ، فاستحضر الصورة التى رأيتها فى منامك،فان لم تكن رأيته فى منامك فاذكره يعنى بالصلاة عليه ،

وفى حال ذكرك له صلى الله عليه وسلم تصور نفسك كأنك بين يديه متأدبا أدب الإجلال والتعظيم والهيبة فإنه يراك ويسمعك كلما ذكرته ، لأنه متصف بصفات الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى جليس من ذكره ، وللنبي صلى الله عليه وسلم نصيب وافر من هذه الصفات لأن العارف وصفه وصف معروفه، فهو صلى الله عليه وسلم سيد العارفين بالله تعالى؛ وقد رأيت فى بعض الأحاديث المروية عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أنا جليس من صلى على ، فافهم تغنم.

قال رضى الله عنه (والقسم الثانى) من التعلق المعنوى استحضار حقيقته الكاملة الموصوفة بصفات الكمال ، الجامعة بين الجمال والجلال ، المتحلية بأوصاف الله الكبير المتعال ، المشرقة بنور الذات الإلهية فى الآباد والآزال ، فإن لم تستطع ، فاعلم أنه صلى الله عليه وسلم الروح الكلى القائم بطرفى حقائق الوجود ، القديم والحديث ، فهو حقيقة كل من الجهتين ذاتا ، وصفاتا وأفعالا وآثارا ، ومؤثراتها حكما وعينا .

ومن ثم قال الله تعالى فى حقه : ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى: وإنما كان صلى الله عليه وسلم برزخيا بين الحقيقة الحقية والحقيقة الخلقية ، لأنه صلى الله عليه وسلم حقيقة الحقائق جميعها ، ولهذا كان مقامه ليلة المعراج فوق العرش ، وقد علمت أن العرش غاية المخلوقات ، إذ ليس فوق العرش مخلوق ، فعند استوائه صلى الله عليه وسلم فوق العرش كانت المخلوقات بأسرها تحته وهو فوقها ، فصار برزخيا بالمعنى ، لأنه موجود من الحق ، والخلق موجودون منه ، فهو المتصف بكلتا الصفتين من الجهتين صورة ومعنى ، حكما وعينا ، فإنه صلى الله عليه وسلم قال : أنا من الله والمؤمنون منى ، فإذا علمت ماذكرته لك سهل عليك (تصور) هذا الكمال المحمدى إن شاء الله تعالى .

واعلم وفقنا الله وإياك ، وأذاقنا من هذا المشرب الصافى الزلال ، ومن تبعنا من أهل الصفا والوفا : أن الحقيقة المحمدية لها ظهور فى كل عالم بما يليق به ، فليس ظهوره صلى الله عليه وسلم فى عالم الأجسام ، كظهوره

فى عالم الأرواح ، وليس ظهوره فى عالم الأرواح كظهوره فى عالم المعنى ، فإن عالم المعنى ألطف من عالم الأرواح وأوسع ، وليس ظهوره فى الأرض ، كظهوره فى السماء ، وليس ظهوره فى السماء كظهوره عن يمين العرش ، وليس ظهوره عن يمين العرش ، كظهوره عند الله حيث لا أين ولا كيف ، فكل مقام أعلى يكون ظهوره فيه أكمل وأتم مما دونه . ولكل ظهور جلالة وهيبة يقبلها المحل (وتزداد هذه الجلالة والهيبة ، كلما ازداد المقام علوا عن سابقه) حتى تتناهى إلى محل لايستطيع أن يقوى عليه أحد من الأنبياء والملائكة والأولياء .

وذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم : لى مع الله وقت لايسعنى فيه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل . فارفع همتك ياأخى لتراه فى مظاهره العليا ، بمعانيه الكبرى ، فإنما هو هو ، فافهم الإشارة ، وأوصيك ياصفى بدوام ملاحظة صورته ومعناه ، وإن تكلفت ذلك أول الأمر تكلفا ، فعن قريب تأتلف روحك به فيحضرك صلى الله عليه وسلم عيانا : تخبره ، وتحدثه ، وتسأله . وتخاطبه . فتفوز بدرجة الصحابة ، وتلحق بهم ، إن شاء الله .

قال صلى الله عليه وسلم : أكثركم على صلاة . أقربكم منى يوم القيامة (وأكثر الناس صلاة عليه أكثرهم) بالصورة الروحانية تعشقا ، بموجب المحبة له ، ولدوام الذكر بالصلاة عليه ، صلى الله عليه وسلم . ولأجل ذلك يقرب منه ، ويكون عنده ، ويحشر معه . فإذا كان هذا نتيجة الصلاة عليه باللسان ، فما تكون نتيجة الصلاة عليه بالقلب،فالروح ، فالسر ، نتيجة ذلك أن يكون معه عند الله تعالى (بلاشك) لأن نتيجة العمل الظاهر وهو الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم باللسان ، الفوز بالمكان وهو الجنة ، ونتيجة العمل الباطن ، وهو التعلق والإقبال واستحضار صورته ، هى الفوز بالمكانة ، ومعناها القرب ، فيكون عند الله فى مقعد صدق ، حيث لا أين ولا كيف ، فافهم الإشارة ، تقو على البشارة .

قال رضى الله عنه : واعلم أن الولى الكامل كلما ازدادت معرفته بالله ذكره ، وثبت وجوده عند ذكره على أنه لاينساه ، وكلما ازدادت معرفته برسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب وظهرت عليه الآثار عند ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن معرفة الولى لله تعالى إنما هى على قدر قابليته ومحبته فى الله ، ومعرفة النبى صلى الله عليه وسلم تنتشر من معرفته بالله على (قدر) قابلية النبى صلى الله عليه وسلم عند الله ، ولأجل هذا لايطيق أن يثبت له (أى لذكر النبى صلى الله عليه وسلم) وتظهر (عليـــه) الآثار (عند ذلك) .

وقال رضى الله عنه أيضا فى : تصوراته : بشارة ، ياأهل الإشارة ، من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم أن كل من رآه من الأولياء فى تجـل من التجليات الإلهية لابساً خلعة من خلع الـكمال ، فإنه صلى الله عليه وسـلم يتصدق عليه بتلك الخلعة ، وتـكون له هدية منه ، فإن كان قوياً لبسها على الفور فى دار الدنيا ، وإلافهى مدخرة له عند الله يلبسها متى قوى استعداده ، إما فى الدنيا وإلا ففى الآخرة ، ومن حصلت له هذه الخلعة ولبسها فى الدنيا أو فى الآخرة ، تـكون (له) هذه (المزية) (من جراء) فتوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل من رأى ذلك الولى فى تجل من التجليات وعليه تلك الخلعة النبوية ، فان ذلك الولى يخلعها عليه ، ويتصدق بها له ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وتنزل من المقام المحمدى للولى خلعة أخرى أكمل من تلك الخلعة عوض ما تصدق به عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال الأستاذ رضى‌الله عنه فى تصوراته . . . فإنى والله لأجد محبته صلى الله عليه وسلم فى قلبى وروحى ، وجسمى ، وشعرى وبشرتى ، كما يجد الظمآن سريان المـاء البارد فى وجوده إذا شرب بعد الظمأ الشديد فى الحر الشديد . واعلم يا أخى أن حبه صلى الله عليه وسلم فرض عـين قال تعالى : النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وقال صلى الله عليه وسلم : لن يؤمن أحدكم حتى أكون

أحب إليه من نفسه وماله . . . . وقال رضى الله عنه : فإن لم تجدها أى المحبة، فاعلم أنك ناقص الإيمان ، فاستغفر الله ، وتضرع إليه ، وتب من ذنوبك ، وتوله بدوام ذكره صلى الله عليه وسلم والتأدب معه ، والقيام بما أمر مع الاجتناب عما نهى ، فإذا صليت عليه صلى الله عليه وسلم فلاحظ أنه هو المصلى لا أنت ، لأن جميع الأشياء خلقت من نوره ، حتى تستغرق فيه صلى الله عليه وسلم ، فعند ذلك تكون إنساناً كاملا وارثاً للحقيقة المحمدية ، جامعا للكمالات المصطفوية ، فاحمد الله على ما أولاك وأعطاك ، وكن عبداً طالبا مقام العبودية ، غارقا فى بحار الأحدية ، عارفا بتصرفات الوحدانية .

(م) على نبيه الذى . (ش) أعنى رسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم. (م) نشأ منه . (ش) أعنى وجدت الموجودات من نوره (م) فى البدء والختام . . (ش) أعنى فى ابتداء الخليقة وكمالها (فإن) الأصل فى ذلك (هو) النور المحمدى .

روى عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول شىء خلقه الله تعالى قال : نور نبيك ياجابر ، خلقه الله ، ثم خلق منه كل خير ، وخلق بعده كل شر ، وحين خلقه أقامه قدامه فى مقام القرب اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام فخلق العرش من قسم ، والكرسى من قسم ، وحملة العرش وخزنة الكرسى من قسم ، وأقام القسم الرابع مقام الحب اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام ، فخلق القلم من قسم ، واللوح من قسم ، والجنة من قسم وأقام القسم الرابع فى مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة ، ثم جعله أربعة أجزاء ، فخلق الملائكة من جزء ، وخلق الشمس من جزء ، وخلق القمر والكواكب من جزء وأقام الجزء الرابع فى مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق العقل من جزء ، والحلم والعلم من جزء ، والعصمة والتوفيق من جزء ، وأقام الجزء الرابع فى مقام الحياء اثنى عشر ألف سنة ، ثم نظر إليه فترشح

النور عرقا فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفا وأربعة آلاف قطرة فخلق الله تعالى من كل قطرة روح نبي أو رسول،ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم نور أرواح الأولياء والسعداء ، والشهداء ، والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة : فالعرش والكرسي من نوري ، والكروبيون والروحانيون من الملائكة من نوري ، وملائكة السموات السبع من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري ، والشمس والقمر والكواكب من نوري ، والعقل والعلم والتوفيق من نوري ، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري ، والشهداء والسعداء والصالحون من نتائج نوري ، ثم خلق الله اثنى عشر حجابا فأقام النور وهو الجزء الرابع فى كل حجاب ألف سنة . وهى مقامات العبودية ، وهى حجاب الكرامة والسعادة ، والرؤية ، والرحمة ، والرأفة والحلم والعلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين . فعبد الله ذلك النور فى كل حجاب ألف سنة ، فلما خرج النور من الحجب ركبه الله فى الأرض وكان بين المشرق والمغرب كالسراج فى الليل المظلم ، ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور فى جبينه،ثم انتقل منه إلى شيث ولده وكان يتنقل من طاهر إلى طيب إلى أن وصل إلى جبين عبد الله بن عبد المطلب ومنه إلى وجه أمي آمنه،ثم أخرجني إلى الدنيا ، فجعلني سيدالمرسلين وخاتم النبيين ، ورحمة للعالمين ، وقائد الغر المحجلين ، وهكذا كان بدء خلق نبيك ياجابر اهـ .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : أنا أول الناس إذا بعثوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، ومبشرهم إذا أيسوا ، لواء الحمد بيدى ، ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر . وأنا أكرم الأولين والآخرين (ولا فخر) وأنا أول من يحرك حلق باب الجنة فيفتح الله لى ، فيدخلها معى فقراء المؤمنين ، ولا فخر .

(م) فهذه نبذة لطيفة روحانية ، نورانية ، من الحكم الإلهية ، الجارية

على لسان بعض عبيده بتأثير القدرة الأزلية ، فبالله أقول ، أنه عالم معلم ، من غير منقول ولا معقول .

(ش) قلت « فهذه » إشارة إلى الحكم الآتية البارزة من قدرته تعالى « نبذة » أعنى قطرة يسيرة ، جامعة لعلوم كثيرة من حكم أنشأتها به إذ لاقوة إلا بالله . وفيها مايدل على علم الناسوت ، ومايدل على علم الملكوت،ومايدل على علم الجبروت . ومايدل على علم اللاهوت ، ومايدل على علم الهاهوت ، وهى محتوية على دقائق ، وحقائق ، ورقائق ، وذوائق ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم « لطيفة » أعنى ليست كثيفة فإن اللطافة نور والكثافة ظلمة « روحانية » يعنى بتأييد من روح القــدس الذى هو وحى لمن يشاء الله تعالى ، « نورانية » أعنى ليست ظلمانية ، لأنها دالة على الحق .

قال سيدى أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه : كل ما دلك على الله فهو نور ، وكل ما دلك على غير الله فهو ظلمة . « من الحكم الإلهية » . . . أعنى تلك النبذة ، والدالة به إليه ومنه عليه ، لأنها من حكم الباطن الآتية من حضرته ، المشيرة لوحدته . « الجارية » أعنى منه به « على لسان بعض عبيده » وذلك هو العبد الفقير الحقير ، أحمد الطيب بن البشير ولا أدرى هل أنطقنى الله بها لكشف حجاب عنه واقتراب ، أم لسابقة عذاب منه واحتجاب . « بتأثير القدرة الأزلية » أعنى أن الحكم المشار إليه أولا لاتأثير لى فى إنشائها ، (بل هى) ناشئة به عنى ، لحرفى الباء والهاء (فى به) حقيقة ، والعين والنون والياء (فى عنى) مجاز لاحقيقة ، إذ العاقل العارف بذاته تعالى وصفاته وأفعاله لايدعى ماهو لسيده ، والعلم صفة من صفات الله تعالى .

قال صلى الله عليه وسلم : من ادعى بعلمه كتبه الله من الجاهلين . أو كما قال صلى الله عليه وسلم « فبالله أقول » ، أى بقدرة الله أقول ، لابقدرتى

العاجزة ، التي لاتأثير لها في فعل شيء أو تركه ، ولو رمشة عيني ، أو بطشة يدي،أومشية رجلي . قال سيدي الشيخ زروق رحمه الله : من دخل الأشياء بالله كان فانيا عنها . والعبد صفة المنسوب إليه العجز ، في التأثيرات . قال بعض علماء التوحيد الظاهر : مشكلات التوحيد أربع ، الكلام الذي بلا حرف ولا صوت ونفي الجهة ، ورؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة (بلاجرم) والقدرة الحادثة . . فجعلها أهل التوحيد الظاهر آخر المشكلات، لأنها تشكل على العبد لرؤيته الأفعال منه في كل حركة وسكون ، وغيبته عن قدرته الحادثة التي لاتأثير لها إلا بمقارنة القدرة الإلهية .

وقد عبر بعض العارفين رحمه الله تعالى عن هذه المشكلات المتقدمة فقال : فإن قلت : كيف يكون كلام الله من غير حرف ولا صوت ، فانظر في عقلك ، تجد في وساوسه كلاما ليس له حرف ولا صوت ، فكيف بخالقك ؟ فإن قلت كيف يكون الشيء بلا جهة ، فانظر في روحك أين جهتها ؟ فعجزك عن معرفة جهة روحك يعرفك أن الله تعالى لاجهة له . فإن قلت كيف يرى الشيء بلا جرم ولا جهة ، فانظر في نفسك كيف تبصر الشيء الذي تقدمت رؤيته في حال غيبته ، لا في جهة ، ولا بجرم . فهكذا يراه المؤمنون في الآخرة من غير جرم ولاجهة . والقدرة الحادثة التي هي مشكلة المشكلات . إن قلت فيها « لنا قدرة » فهذه بدعة وافقت القدرية ، وإن قلت ليس لنا قدرة حادثة ، فهذه بدعة وافقت الجبرية ، وطريق النجاة أن تقول لنا قدرة حادثة ليس لها تأثير في شيء حتى تقارن قدرة الله الأزلية ، فيحدث عند ذلك الفعل .

قلت : واعلم أن القدرية سبب ضلالهم أنهم يرون القدرة لهم ، والجبرية ينفون القدرة الحادثة المثبتة للتكليف والجزء الاختياري . قال تعالى : ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك . قال بعض

المفسرين فى ذلك : من حسنة فمن الله ، حقيقة ، ومن سيئة فمن نفسك مجاز، لاحقيقة ، فافهم ياأخى دقائق العلوم ، ولا تكن المحجور المظلوم .

قال سيدى عبدالغنى النابلسى : معرفة الله تعالى على أربعة أقسام ، رقية ، وقولية ، وعلمية ، وعينية ، وما منا إلا له مقام معلوم . « إنه عالم » أعنى أنه سبحانه وتعالى ليس بشاك فى علمه ، ولا ظان ، ولا متوهم ، و « عالم » صفة من صفاته المعنوية ، قائمة بذاته تعالى ، وأما الجهل فإنما هو صفة لعبيده ، قائمة بذواتهم ، فينبغى للعاقل العارف بحقيقة هذه الصفة ألا ينازع الحق فيها ، ولا ينسبها لنفسه ، بل يلزم صفته التى هى الجهل ، ولوكان عالما بالمذاهب الأربعة ، ويعرف من العلوم الباطنة مالا نهاية له من علم ماشاء الله تعالى ، فإن ادعى فى نفسه أنه عالم ، فإن ذلك عند العارفين بالله شرك فى هذه الصفة القائمة بذات الله تعالى وحده . ولا تكمل معرفة ذلك إلا لمن كمل الله عقله بالمعرفة الكاملة .

قالت عائشة رضى الله عنها : قلت يارسول الله بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت : وفى الآخرة ؟ قال : بالعقل . فالعاقل لاينسب إليه ماهو لسيده ، فإن ذلك تعد على الحق فى صفاته القائمة بذاته . « معلم من غير منقول ولا معقول » أعنى أنه سبحانه وتعالى معلم لمن يشاء من عباده ، ولوكان جاهلا بالمعقول والمنقول ، يعلمه المعرفة به تعالى ، أو بكل العلوم إن شاء فلا يعجز الله عن ذلك قال تعالى : (علم الإنسان مالم يعلم) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ماأتخذ الله وليا جاهلا ، ولو اتخذه لعلمه ، أى علمه معرفته الكبرى التى يعلمها لمن يشاء من عباده . واعلم أن الولى الأمى معجزة من معجزاته عليه الصلاة والسلام ، وإذا فتح الله بالعلوم اللدنية عليه فإن ذلك أعظم فى منة الله منه فى الولى العالم قبل إعطاء الولاية

بالعلوم الظاهرة ، ولقد علم الله تعالى جميع العلوم لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام وهو أمى ، وذلك من عجائب قدرة الله تعالى . وأبونا آدم عليه السلام علمه الله تعالى الأسماء كلها فعلمها من غير سابقة تعلم .

قال الإمام البونى رضى الله عنه : واعلم أن الله تعالى قد أودع معلوماته فى خلقه ، وأطلع عليها الأخص من خلقه . قال تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) (أمده بمعلوماتها) ثم بعد (إمداده بالكل) أنزل عليه الحروف ، فركب منها الأسماء ، فكان تحت كل حرف تسعة آلاف وتسعمائة وتسعة وعشرون علما ، وكل علم من هذه تحته ثمانية عشر علماً ، أطلع عليها آدم كلها ، ثم الخلفاء من بعده الذين هم أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم خلفاء الباطن الذين هم أهل الولاية من الأفراد ، وهم الذين يسمون بالأقطاب ، فكانت أدنى درجة الولى منهم أن يكشف الله له من العرش إلى الفرش .

وقال سيدى الشيخ إدريس رضى الله عنه فى قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) المولى علم آدم عشرين ألف اسم : عشرة آلاف اسم عربية ، وعشرة آلاف اسم عجمية .

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى : وعلم آدم الأسماء كلها علم آدم أسماء المخلوقات كلها ، وكل منهم ينطق بما علمه من علمه فى آلاته ، وفوق كل ذى علم عليم ، فإذا كان العلم علم الله ، والعبيد عبيد الله ، فالله تعالى يعلم من يشاء منهم بما شاء من علمه ، لأن القلب فى يديه يقلبه كيف شاء .

قال سيدى الشيخ زروق : إذ لايلزم من إتيان المتأخر مالم يأت به المتقدم أن يكون (ذلك) طعنا فى واحد منهما . لكن الأمر كما قيل : إذا كانت العلوم منحا إلهية ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر الله لبعض عبيده المتأخرين ماعسر على المتقدمين . . نعوذ بالله من حسد يسد

باب الإنصاف ، ويصد عن جميل الأوصاف. وقد قال الولى العارف بالرحمن سيدى الشيخ محمد السمان :

لقد كنت مكنوناً لسر فهمته
وعن فهمه إدراك غـيرى قاصر

ولا شك أن ذلك السر الذى يشير إليه ، علم من العلوم اللدنية الموهوبة من الله تعالى على بعض عبيده من غير منقول ولا معقول وتعالى الله أن يستعين على (تقريب) من أراد أن يعرفه به ذاتاً وصفاتا وأفعالا بأن يكون عالما بالمنقول والمعقول حتى يقربه به وهو الفعال لما يريد . والله تعالى أعلم وفى توحيده أحكم .

الحكمة الأولى

﴿ (م) أول المقامات فى طرق أهل الله ، التوبة لله ، والتزام طاعة الله بخوف الله ، والصبر على مراد الله والزهد فيما سوى الله ﴾ .

(ش) قلت به عنه طرائف هذه الحكمة شارحا لما انطوت عليه « أول المقامات فى طرق أهل الله » أعنى أول الدرجات فى طرق القوم الموصلة إلى الله تعالى بالعهد المتصل بحضرة الله تعالى ، وطرق الوصال كثيرة ، قال بعضهم ، على عدد أنفاس الخلائق . ومن أراد أن يتمسك بطريق أهل الله فعليه بأركانها الأربعة التى ذكرها المشايخ . قال سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى رسالته المسماة بالأنوار القدسية . أن أركان الطريق أربعة أشياء: الجوع والعزلة ، والسهر ، وقلة الكلام ، فإذا جاع المريد تبعته الأركان الثلاثة الباقية بالخاصية ، فمن شأن الإنسان إذا جاع أن يقل كلامه ، ويكثر سهره ، ويحب العزلة عن الناس . وأنشد بعضهم :

بيت الولاية قسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال
مابين صمت واعتزال دائم والجوع والسهر النزيه العالى

قال سيدى أبو القاسم القشيرى رحمه الله تعالى : قرع باب الطريقة الجوع ، لأنهم لم يجدوا ينابيع الحكمة تحصل إلا به ، قال سيدى الشيخ محي الدين فى الفتوحات المكية : وقد بلغنا أن الله لما خلق النفس قال لها : من أنا ؟ فقالت له : من أنا ، فأسكنها فى بحر الجوع أربعة آلاف سنة ثم قال لها : من أنا ؟ فقالت : أنت ربى . وقال سيدى سهل بن عبد الله التسترى : لما خلق الله تعالى الدنيا جعل فى الجوع العلم والحكمة ، وجعل فى الشبع الجهل والمعصية .

وأما العزلة فقد روى أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يا داود

كن بى مستأنسا ، ومن غيرى مستوحشا . وقال صاحب فتح المنان : من علامات المحبة الأنس بالخلوات والفلوات والليالى المظلمات انقطاعا إلى الله تعالى عن الخلق ، فمن استأنس بالناس ، فهو من أهل الإفلاس . فعليك ياأخى بالعزلة إذا دخلت طريق القوم فإن فيها خيرى الدنيا والآخرة .

وأما السهر فهو من أركان الطريق ، قال فى ذلك سلطان الأولياء سيدى إبراهيم الدسوقى : من شرط المريد أن يكون أبعد الناس عن الآثام ، كثير السهر والقيام قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا .. قلت: فإذا قال الله لنبيه هكذا ، وأدخله فى عسى ، فما أنت ؟ وكيف أنت ؟ وكان صلى الله عليه وسلم يرغب فى قيام الليل ويقول : قم من الليل ولو قدر حلبة شاه .

والصمت ، كذلك ، من أركان الطريق المتقدم ذكرها . قال صلى الله عليه وسلم : الصمت يورث معرفة الله، والعزلة تورث معرفة الدنيا، والجوع يورث معرفة الشيطان ، والسهر يورث معرفة النفس . وقال لقمان الحكيم: لو كان الكلام من فضة ، لكان السكوت من ذهب . فعليك ياأخى بالصمت تجد الله واحدا لا وجود لغـــيره ، وبه تبلغ الفتح الربانى والكشف الصمدانى . . . لكن هناك صمت يكون بالحضور مع الله ، بالله ، لله ، فهذا هو المطلوب .

« التوبة لله » : أشير بذلك إلى ثبوت الوحدانية له وافتقار المذنب إليه ، والندم على مامضى خوفا من وقوع عقوبة الله عليه . قال صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه فى وصيته له: ياعلى ، وللتائب ست خصال: الندم على مامضى، وعلى ماعمل من المخالفات، ورد المظالم إلى أهلها ، والإقلاع عن الذنب فى الحال ، ويتوب إلى الله توبة نصوحا ، و (هى أن) يعزم ألا يعود إلى معصية أبدا ، ويترك الحرام ماظهر منه وما بطن ، ويطلب العمل

و (هو أن) يكثر الاستغفار ويذيق نفسه مرارة العبادة كما أذاقها حلاوة المعصية ... اه بالمعنى .

واعلم أيها العاقل المعتبر الناظر أن الذنوب التى تجب التوبة منها على قسمين : ظاهرة وباطنة ، (وهى كثيرة فى القسمين) وهأنذا أذكر لك من الذنوب الظاهرة سبعة ، ومن الباطنة سبعة (مقتصرا على ذلك) خوف الإطالة ، فمن تنحى عن السبعتين ، نرجو الله أن ينجيه ويمنعه بفضله من جميعها إنه على ذلك قدير . فأما الذنوب الظاهرة فالغيبة ، والنميمة ، والكذب ، والزنا . وشرب الخمر ، وأكل الربا وترك الصلاة . وأما الباطنة وهى التى تفسد الباطن ، فالكبر ، والعجب ، والحسد ، والرياء ، والحقد ، والبخل ، والطمع . فينبغى للعبد أن يتخلى عنها ، ويتحلى بضدها . وهأنذا أذكر لك بمشيئة الرحمن من الآى والأحاديث بحسب الإمكان ، فى كل ذنب ظاهر وباطن من أول ماذكرنا على حسب الترتيب المتقدم .

الغيبة : اعلم أن الغيبة ذنب عظيم ، وهى أكثر الذنوب انتشارا فى الناس ولم يسلم منها إلا القليل . وهى ذكر الإنسان أخاه بما يكره ، سواء كان ذلك فى دينه ، أو فى دنياه ، أو عمامته ، أو مشيته أو غير ذلك مما يطول ذكره ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تدرون ما الغيبة؟ قال قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكرهه ، قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقوله قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته .

وروى عن جابر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من الزنا ، فان الرجل يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه وقال صلى الله عليه وسلم : ترك الغيبة أحب إلى من عشرة آلاف ركعة تطوعا .

وأما السامع لها فكقائلها ، وأول من اغتاب إبليس ، أغتاب آدم عليه السلام . وقال الله تعالى فيها: «ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه» . وفي حديث عنه صلى الله عليه وسلم : الغيبة الواحدة أشد من ست وثلاثين زنية في الإسلام . وروى سيدي عبدالوهاب الشعراني في رسالته « الأنوار القدسية » عن شيخه سيدي على الخواص قال : كان يقول : مما يوقف المريد عن الترقى وقوعه في غيبة أحد من المسلمين ، ومن ابتلى بوقوعه في ذلك فليقرأ الفاتحة ، وسورة الإخلاص ، والمعوذتين ، ويهدي ثوابها في صحائف ذلك الشخص، فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، وأخبرني بذلك . وقال لي: إن الغيبة والثواب يقفان بين يدي الله عز وجل ، ونرجو الله أن يكون ذلك بذلك .

النميمة : وأما النميمة فقد قال الله تعالى فيها : هماز مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد أثيم ، وقال صلى الله عليه وسلم : لايدخل الجنة نمام .. والنميمة هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم قال صاحب كتاب «فتح المنان في العزلة وحفظ اللسان»: إن النميمة من المعاصي العظيمة ، ثبت تحريمها بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، قال تعالى : ويل لكل همزة لمزة . . قيل الهمزة النمام . قال ابن عباس رضى الله عنه : ويل ، هو واد في جهنم لو وقعت فيه جبال الدنيا لتفتتت وذابت ، وقال صلى الله عليه وسلم « وإن أبغضكم إلى الله تعالى المشاءون بالنميمة » الحديث . وقال أرسطاليس الحكيم : النميمة تهدي إلى القلب البغض ، وقال الحسن : ومن تكلم إليك ، تكلم عنك .

الكذب : وأما الكذب فهو ذنب عظيم ثبت تحريمه بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، قال الله تعالى : فنجعل لعنة الله على الكاذبين ، وقال تعالى : إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب ، وقال : قتل الخراصون ، أي الكذابون .

وروى عن الإمام أحمد أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كَبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، فعليك بالصدق يا أخى فقد قال صلى الله عليه وسلم : عليك بالصدق وإن كان فيه هلاكك ، فإن فيه نجاتك ، أى من الذنوب . وقال ابن عباس رضى الله عنه : لارفعت للكاذب درجة ، ولا ثبتت له حجة ، وفى حديث (عنه صلى الله عليه وسلم) : ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ، ويل له ، ويل له ، وقال صاحب كتاب « فتح المنان » : الكذب هو الإخبار بالشيء على خلاف ماهو عليه .

الزنا : وأما الزنا فهو أيضاً ذنب عظيم ، وإن كان فعل قوم لوط أعظم منه ، لكنى ماذكرته هنا دون ذلك إلا لكثرة ورود تحريمه فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، قال تعالى : الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، وقال صلى الله عليه وسلم : لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، فاعتبر ياأخى فى هذا الحديث ، فإذا كان الإنسان مصرا على ذلك ومات (متلبسا به) فما حاله عند الله تعالى ، فنى حديث آخر : من أقام نفسه (فى) مقام التهم فلا يلومن من أساء الظن به . فليحذر العاقل من كل أمر يؤديه إلى التهمة فى أى شيء .

شرب الخمر : وأما شرب الخمر فخصلة ردية ، تؤدى إلى أعظم بلية ، وقد ورد تحريمه أيضا بالكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب ، فقد قال تعالى يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . . . وأما السنة فقد قال صلى الله عليه وسلم : من شرب خمرا أخرج الله نور الإيمان من جوفه . . . ذكره صاحب التنبيه ، فانظر لهذا الحديث ، فإن نور الإيمان إذا خرج من جوف المؤمن ، فلا بد من دخول ضده ، وهو الظلمة العظمى التى تؤدى إلى دخول النار . فاحذر .

الربا : وأما الربا فهو ذنب عظيم من أكبر الذنوب ، وقد ورد تحريمه بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، أما الكتاب فقول الله تعالى: الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم فى وصيته لابن عمه على كرم الله وجهه : الذين يأكلون الربا أمر الله بمحاربتهم . قال تعالى : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله .

ترك الصلاة : وأما ترك الصلاة فهو أعظم الذنوب الظاهرة ، ومن عظمته اختلف فيه الأئمة الكرام كمالك وأبى حنيفة النعمان والمحدثون والفقهاء العالمون العاملون ، فأفتى بعضهم بالكفر ، وبعضهم بالعصيان ، فالذين أفتوا بالكفر هم بعض الفقهاء وأكثر المحدثين ، وكذلك الإمام أبو حنيفة النعمان، وأما مالك فقد أفتى بالعصيان ، رضى الله عنهم أجمعين .

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : الفرق بين الكافر والمسلم الصلاة ، وقال عليه الصلاة والسلام: من ترك الصلاة والزكاة فلاتصلوا عليه، وإذا طلب امرأة فلاتزوجوه ، وإن مرض فلاتعودوه ، وإن مات فلاتحضروا جنازته ، ولا تدفنوه فى مقابر المسلمين ، فإنه منافق فى الدنيا والآخرة ، ملعون فى التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : نظرت فى ليلة الإسراء أقواما يعذبون فى مقابر من نار بأضعاف العذاب فى قعر جهنم ، لاأشقى ولاأشد عذابا ولا أكثر حزنا منهم ، يضربون بأعمدة من نار ، حتى يتجرد اللحم من العظم ثم تبقى الروح معلقة فى العظم بالسلاسل . قلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : تاركو الصلاة .

وأما الذنوب الباطنة السبعة المذكورة فيما تقدم فأولها الكبر ، والكبر صفة تنشأ من رؤية النفس فوق غــيرها فى صفات الكمال زيادة لها على

الغير ، وكما أن الصلاة تركها أعظم الذنوب الظاهرة كذلك الكبر أعظم الذنوب الباطنة . قال عز وجل فى الحديث القدسى : الكبرياء ردائى . والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم وفى رواية أبى داود : قذفته فى النار . وقال تعالى : كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ، وقال صلى الله عليه وسلم : لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، وقال صلى الله عليه وسلم : لايدخل الجنة من كان ذنبه معصية (لا) ترجى لها توبة ، ومن كان ذنبه كبرا فلا ترجى له توبة . فاعتبر أيها الناظر فى إبليس وآدم تعرف ذلك .

وقال الإمام البونى رحمه الله تعالى : اعلم أن الرداء الأعظم رداء الكبر ، والكبر من كمال الذات ، وقال عليه الصلاة والسلام : من حلف بغير الله فقد أشرك ، وقال عز وجل : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، كما تقدم ، والحلف بغير الله يدل على التكبير والتعظيم للمحلوف به ، فافهم تداخل معانى الأحاديث بعضها فى بعض . وقال عليه الصلاة والسلام ، فى وصية لابن عمه على كرم الله وجهه : ياعلى ، من تكبر فى نفسه ، أو تكبر بماله ، أو بعلمه ، أو بجاهه ، أو بحسبه أو بسخائه ، أو بعبادته ، أبعده الله من رحمته .

وعنه صلى الله عليه وسلم حاكيا فى ليلة الإسراء ، قال : رأيت فى الطبقة العليا سبعين بحرا من نار وعذاب ، وعلى شاطىء كل بحر مدينة من نار ، فى كل مدينة سبعون ألف بيت من نحاس ، فى كل بيت سبعون صندوقا من حديد ، فى تلك الصناديق رجال ونساء ومعهم الحيات والعقارب فى تلك الصناديق وهم يتصارخون . قلت فما كان ذنبهم يامالك ؟ قال : كانوا يظلمون الناس ، ويأكلون أموالهم ، ويتكبرون عليهم ، ولا ينبغى الكبرياء والجبروت إلا لله .

العجب : وأما العجب فهو داء عظيم مفسد للباطن ، وهو ، كما قال :

صاحب السير والسلوك إلى ملك الملوك : تكبر يحصل فى الباطن بتخيل كمال من علم أو عمل . و (هو من المهلكات) ، قال صلى الله عليه وسلم : ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، قال بعض العارفين : إذا دخل عليك عجب فتذكر فيمن مات على الكفر ، قال الله تعالى : ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم الرجل لجوجا معجبا برأيه فقد تمت خسارته .

الرياء : وأما الرياء فهو ذنب ذميم ، وشرك بالله العظيم . قال تعالى : فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون . وقال تعالى : فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا . وقال صلى الله عليه وسلم : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله عزوجل يوم القيامة ، إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء . واعلم ياأخى أن المرء يريد بالطبع أن تكون له فى قلوب الناس منزلة ، غير أن المخلص من الناس لايلتفت إلى ذلك لمنافاته للإخلاص .

الحسد : وأما الحسد فهومن الذنوب الباطنة العظيمة، ناف لحسن الباطن، ماحق للحسنات ، مضر بالذرارى . قال الله تعالى : ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض . . . قال صاحب السير والسلوك : المراد بالتمنى هنا أن يريد زوال تلك النعمة ، لا أن يتمنى أن ينعم الله عليه بمثلها . وقال صلى الله عليه وسلم : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، قلت والحسد أن يكره نعمة الله تعالى على أخيه ، وقال ابن العربى رضى الله عنه فى حكمه : من حسد فسد .

الحقد : وأما الحقد فهو ذنب عظيم مفسد لطهارة الباطن ، ويقال له الغل أيضا . قال صاحب السير والسلوك : وهو إخفاء العداوة فى القلب لعدم

القدرة على الانتقام . هذا وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه فلق صدره وأخرج منه الغل والحسد ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنى أجد فى صدرى رأفة على الصغير ، ورحمة على الكبير .

البخل : وأما البخل فهو خلق ذميم يؤدى إلى دخول النار ، وفيه العار فى هذه الدار . قال الله تعالى فيه : ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ، وقال صلى الله عليه وسلم : السخى قريب من الله قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار . وجاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل ، وأدوأ الأدواء البخل ؛ وقال صلى الله عليه وسلم فى وصيته لابن عمه على كرم الله وجهه : لاينجو المؤمن من عذاب الله حتى يترك أربعة أشياء : الكبر ، والكذب ، والبخل ، والحسد ، وقال تعالى : ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، وحقيقة السخاء أن تجود بما فضل عن حاجتك ، وأعظم منه الإيثار ، وهو الجود بالمال مع الحاجة إليه ، وقال صلى الله عليه وسلم : إن لله ثلثمائة خلق من أتى بواحدة منها والإيمان أدخله الجنة ، وأحبها إليه السخاء ، وقال سيدى محى الدين بن عربى سلطان العارفين فى حكمه : ماتخلقت العرب والعجم ، بخلق أعظم عند الله من الكرم .

الطمع : وأما الطمع فى الدنيا فمن الخصال الذميمة القاطعة للمريد من دخول الحضرة الإلهية ، لأن الباطن إذا كان فيه الطمع ، لم يدخل النور الإلهى فيه ، فهو من أقبح الخصال ، قال الشيخ أبو بكر الوراق : لو قيل للطمع من أبوك ، لقال: الشك فى المقدور ، أى يشك الطامع أن ما فى الأزل (آتيه) ، (إذ) لو علم (أنه) يأتيه لما طمع ، ولو قيل له : ماحرفتك ؟ لقال : الذل ، ولو قيل له ما غايتك ؟ لقال : الحرمان ، وقال سيدى أبو العباس المرسى رحمه الله : الطماع لا يشبع أبدا . قال سيدى الشيخ زروق رحمه الله : وأقول إن

(بطنه أبدا) يابسة ، فلا تطمع ياأخى إلا فيما كان لله فيه رضا ، وللشيطان فيه سخط ، فهو الممدوح لكل شبح وروح .

(إذا علمت ذلك ، أدركت أن شرط) التائب (أن) يتوب لله من كل وصف ذميم .

والتوبة على ثلاثة أقسام ، توبة المريدين (المبتدئين) من المحرمات كلها ، وتوبة (المريدين) المتوسطين من المكروهات كلها ، وتوبة المريدين (الواصلين) من كل غفلة عن رب العالمين .

وعند الصوفية أمهات الكبائر أربع : أنا ، ونحن ، وعندى ، ولى ، قال أكابر القوم: لأن أول من قال أنا ، إبليس ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ، وأول من قال نحن ، قوم بلقيس ، قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، وأول من قال عندى قارون ، سأله قومه عن سبب ماله فقال : إنما أوتيته على علم عندى ، وأول من قال لى ، فرعون ، قال : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، فافهمها ، وتنح عنها ، فإنها مهلكة الأنام ، وداعية الصحيح إلى السقام ، ومشيرة إلى منازعة ذى الجلال والإكرام .

(م) « والتزام طاعة الله بخوف الله »

(ش) أعنى التزام طاعة الله بامتثال الأوامر واجتناب النواهى . . . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : خير من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أوامره ونواهيه ، « بخوف الله » خوف الله : هو عماد دينه ، وقال صلى الله عليه وسلم فى وصيته لابن عمه على كرم الله وجهه : ياعلى للخائف ثلاث علامات : يخاف من مكر الله ، ويخاف من عذاب الله ، ويخاف من غضب الله ، فالخوف من الله ياأخى أولى بكل مسلم ومؤمن ومحسن ، لأن العبد لايعلم ماهو عليه فى علم الله من سعادة أو شقاء ، قال بعض العارفين بالله تعالى:

السعيد من علم الله موته على الإيمان ، ولو كان كافرا ، والشقى من علم الله موته على الكفر ولو كان مسلما ، فاعتبر فى حال نفسك وانظر فى أى جانب أنت، فإن لم تعلم ، فالزم الخوف منه تعالى .

قال الله تعالى لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم : قل - يامحمد لأصحابك - إن أدرى مايفعل بى ولا بكم ، وقال صلى الله عليه وسلم : يافاطمة بنت محمد، ياصفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملا لأنفسكما ، فإنى لاأغنى عنكما من الله شيئاً ، وقال تعالى لنوح فى ولده يانوح ، إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، وقال تعالى : فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، واعلم أن الخوف من الله تعالى يضاعف الحسنات ، قال صلى الله عليه وسلم لابن عمه على كرم الله وجهه : ياعلى ، من توضأ وأسبغ الوضوء فى جوف الليل ، ثم صلى ركعتين لله تعالى فى خلوة من الأرض ، لايراه أحد إلا الله تعالى و (هو) يتفكر فى عظمة الله ، ويعتبر ، ويبكى على خطيئته خوفا من الله (تعالى) (فإن ذلك) خير له من عبادة ستين سنة .

(م) « والصبر على مراد الله »

(ش) أعنى فيما يحب العبد ويكره أدبا مع الله تعالى الذى لا إله إلاهو إليه المصير ، قال بعض العارفين بالله تعالى — سيدى رسلان الدمشقى فى رسالته : أول المقامات الصبر على مراد الله تعالى ، وأوسطها الرضا بمراده وآخرها ألا يكون لك مراد إلا مراد الله تعالى اهـ بالمعنى ، قال شارحها : إن العبد إذا صبر ، ولازم الصبر أورثه الله الرضا بالقضاء ، قال سيدى عمر ابن الفارض فى مخالفته لنفسه :

فأورثتها ماالموت أيسر بعضه وأتعبتها كيما تكون مريحتى

يعنى أنه أورثها شيئا أشد من الموت ، فاحبس نفسك ياأخى بالصبر على كل نهى وأمر بالاتباع فى مشاق التكليف ، وبأن تمنعها أيضا من الكسل

فى عبادتك آناء الليل وأطراف النهار ، وبأن تصبر على الأذى من الخلق ، قال مسلم بن قتيبة : من أعظم المروءة الصبر على أذى الرجال ، ومعنى الصبر احتمال المكاره فى سبيل الغايات .

قال الإمام البونى رحمه الله تعالى فى الصبر إنه على أربعة أقسام : صبر الروح وهو التلقى لنعيم الجنان ، وصبر القلب على ماأودعه الله تعالى ، وصبر العقل على مايقتضيه الدليل من الأفعال ، وصبر الجسم على مايقاسى من الأمراض والأسقام ، قال صلى الله عليه وسلم : من صبر على حمى يوم ، كانت له كفارة سنة ، والعبد لايسمى صبورا لأنه مفطور على العجلة ، والحق سبحانه وتعالى منزه عن العجلة ، فهو الصبور ، وليس أصبر من الله تعالى ، لأنه ينظر العاصين فى معاصيهم ، ولا يعذبهم بذلك فى الدنيا ، وقال بعض العارفين بالله تعالى : الصبر على القضاء والبلاء أحسن من الشكر على النعماء .

(م) « والزهد فيما سوى الله »

(ش) أعنى بذلك الزهد عن غير الله تعالى بحيث لايحب القلب إلا الله ، (ولا يتأتى حب القلب لله ، وفيه فضلة من حب الدنيا) ففى ماأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : إن كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبى وحبها لايجتمعان فى قلب واحد ، وقال عليه الصلاة والسلام : من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا مايبقى على مايفنى . وقال صلى الله عليه وسلم : حب الدنيا رأس كل خطيئة .

وقال الصديق رضى الله عنه للشيخ أبى الحسن الشاذلى فى المنام : أتدرى ماعلامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قال لا . قال : بذلها عند الوجد ، ووجود الراحة منها عند الفقد ، ذكر ذلك سيدى زروق فى قواعده ، وقال رضى الله عنه : أصل الزهد معرفة الله ، وحقيقته الثقة بالله ، قال صلى الله

عليه وسلم : ليس الزهد بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ، إنما الزهد أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، واعلم يا أخى أن الزهد منه ظاهر وباطن ، ومنه باطن لا ظاهر ، فالمبتدىء يتجرد من الدنيا ظاهرا وباطناً ، والمنتهى العارف يتجرد منها باطنا لا ظاهرا ، لأنه يمسكها لمصالح العباد فيكون لهم بمنزلة الأب للأولاد ، ويشاهد هو نفسه من جملة الدواب ، يقول الله تعالى : وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، (فأوجبه تعالى على نفسه تفضلا منه على عباده) .

قال صاحب «ياقوتة التوحيد» فى شرحه عليها : ذلك تفضل ، لا إيجاب . فلا يشك العبد فى أن رزقه واصل إليه من الله ، لا يتبدل ولا يتغير فلا يألو جهداً فى العطاء مما عنده لثقته بما عند المعطى ، روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، أتدرون ماذا قال ربكم حين استوى على العرش — يعنى بالغلبة والقهر ، لا بالحلول — ونظر إلى خلقه، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال : قال : ياعبادى ، أنا ربكم وأنتم خلقى، أرزاقكم بيدى ، فلا تتعبوا أنفسكم فيما تكفلت لكم به ، فاطلبوا أرزاقكم منى ، وانسبوا أنفسكم لى ، وارفعوا حوائجكم إلى ، أهون عليكم أرزاقكم ، أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : قال : ياعبدى أنفق . أنفق عليك ، ووسع ، أوسع عليك ، ولا تضيق فأضيق عليك ، باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات، متواصل إلى العرش لا يغلق لا ليلا ، ولا نهارا، فأنزل الرزق لكل عبد على قدره وعطيته ، وصدقته ، ونفقته، فمن أكثر أكثر له ، ومن قلل أقلل له ، ومن أمسك ، أمسك عليه .

وروى عن الزبير رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا زبير ، إن الله يحب الإنفاق ، ويبغض الإقتار فكل وأطعم . ولا تقتر فيقتر عليك ، ولا تعسر فيعسر عليك . وإن السخاء من الدين ، والبخل من الشك ، ولا يدخل النار من أنفق ، ولا يدخل الجنة من أمسك . فمن بعض

الأدلة على حب الدنيا إمساكها وقلة إنفاقها ، ومن رآها فانية ، وأن رزقه ليس فى يده ، بل فى يد الله تعالى ، لا تعسر عليه ، يحكى أن رجلا سأل أبا يزيد عن أسباب معيشته ، وكان أبو يزيد قد صلى خلفه ، فقال اصبر حتى أقضى الصلاة التى صليتها خلفك حيث شككت فى أرزاق المخلوقين ، وليس عند الملائكة أخش من قلب فيه هم الرزق ، والزهد فى الدنيا رأس الدين ، وعماد الصالحين .

(إلا إن فوق هذا المقام مقاما آخر أشار إليه) سيدى ابن عطاء الله فى حكمه حيث قال إنما استوحش العباد والزهاد من كل شىء لغيبتهم عن الله فى كل شىء . وقال بعض العارفين بالله تعالى :

تجرد عن مقـــام الزهد قلبى وأنت الحق وحدك فى شهودى
أأزهد فى سـواك وليس شىء أراه سواك ياعين الوجود

والله أعلم .

الحكمة الثانية

﴿ أيها المريد الجاهل بإقبالك،حط بالك لنظر الله إليك فى جملة أذكارك، تكن من أهل حضرته فى غدوك وآصالك ﴾ .

(ش) قلت ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة الحكيمة ، من المعانى الجسيمة: « أيها المريد » أريد بذلك ، كل من كانت فيه إرادة إلى الملك المالك، والإرادة على قسمين عامة وخاصة ، فالعامة هى أن كل من كان فيه إرادة لقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، سمى مريدا ، والخاصة هى أن كل من كان فى قلبه حب الله وبغض ماسواه فهو مريد لله خاصة .

« الجاهل » - الجهل ضد العلم . « بإقبالك » أى إن كنت جاهلا بكيفية إقبالك على الله فى سيرك إليه،ودخولك فى حضرته ، فاعتبر فى هذه الحكمة . أوضح لك عين الوسيلة الدالة عليه والمقربة لديه ، وهى أن تحط بالك لنظر الله إليك فى جملة أذكارك ، بل فى جملة أحوالك . . . كن مراقبا لنظر الله إليك ، بالفكرة ، وجمع الهمة ، ومنع القلب من الشواغل الدنيوية . فنظر الله مسبل عليك أبدا ، وهو (مقتضى) صفة البصر القائمة بذات الله ، المتعلقة بموجودات الله ، من جمادات،ونباتات وحيوانات « فى جملة أذكارك »أعنى فى أى جنس من أجناس الأذكار المتوسل بها إلى حضرة الله تعالى ، فإذا داوم المريد على الحضور مع الله كما ذكرنا أولا ، فانه يكون - أى بتكوين منه سبحانه وتعالى - من أهل حضرة الله بالغدو والآصال .

واعلم أن كيفية الحضور مع الله المراقبة لله . اتباع أمر الله ، والحياء من الله فى كل وقت والشعور بنظر الله (إليه فى كل زمان ومكان) (ودوام) الخوف من (الله) تعالى فمن وفقه الله تعالى على ذلك ، كان من أهل حضرة الله ، وذلك مقام الأولياء الأبرار . قال عليه الصلاة والسلام : إذا عملت عملا بالجوارح فاذكر نظر الله إليك فإذا (تفكرت فى ذلك) ، فانظر علم الله

(فيك) . وحضرة الله تعالى ليس لها مكان مخصوص أو جهة من الجهات الست : العلو والسفل والأمام والخلف واليمين والشمال .

قال الله تعالى:فأينما تولوا،فثم وجه الله ، : لـكن الجهات (بعضها أشرف من بعض) و (أشرفها) الأمام،والعلو ، فالأمام جهة بيت الله تعالى ، والعلو (أشرف) لأنه يشير إلى علو الله تعالى (ورفعته) على ماسواه . واعلم ياأخى أنه لو كان لله مكان مخصوص أو جهة ، لما قال الله تعالى : واسجد واقترب ، ولما قال صلى الله عليه وسلم : أقرب مايكون العبد (من) ربه وهو ساجد . وحاصل ذلك أن للعبد صفتين ليس لله منهما شىء ، وهما الذل والافتقار ، ولايتحققان فى حالة من حالات العبد كما يتحققان فى السجود . وبذلك يكون العبد أقرب مايكون من الله وهو ساجد . فإذا لاحظ مع ذلك نظر الله إليه و « هو » مقتضى « صفة » البصر القائمة بذات الله تعالى المتقدم ذكرها ، إذا لاحظ العبد فى سجوده وغيره هذه الصفة ، ولاحظ معناها « الملازم » لها ، نظر الله إلى سريرته بعين الرحمة ، وأوصله إلى مطلوبه فى أقرب مدة . يقول الله تعالى فى هذه الصفة : إن الله بصير بالعباد .

وقال صلى الله عليه وسلم : أروا الله من أنفسكم خيرا . واعلم ياأخى أن « خير » مايراه الله من عبده هو مداومة ذكره بكيفية الحضور معه بالسمع والبصر والعلم ومشاهدة القدرة والإرادة « الأزليتين » .

والحضور مع الله تعالى على ثلاثة أقسام : أدنى ، وأوسط ، وأعلى . فالأدنى المراقبة ، والأوسط المشاهدة ، والأعلى الشهود . ومعنى المراقبة « تحقق العبد برؤية الله له » أينما كان ، والمشاهدة رؤية « العبد » الحق ، فى كل ذرة من ذرات الوجود ، والشهود رؤية العبد الحق بالحق ، للحق ، وما كل مايعلم يقال .

هذا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : لولا « أن » الشياطين يحومون على

« قلوب » بنى آدم لرأوا ملكوت السموات والأرض » يشير الحديث إلى سر « الحضور مع الله » وإعراض القلب عما سواه ، فافهم تغنم .

وقد ذكر الإمام البونى رضى الله عنه فى شرح اسمه تعالى « البصير » حديثا غريبا قال فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سألت أخى جبريل عن الإحسان فقال : « أن » تشهد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

قلت فى هذا المعنى تشهد الله كأنك تراه من حيث توحيد الأفعال لا توحيد الصفات لأنه أثبت له الحياة والوجود، وذلك منع عن توحيد الصفات والذات فإن لم تكن تراه ، بأن لا ترى فاعلا إلا إياه ، فاشهد بعين قلبك أنه ناظر إليك بصفة البصير .

قال الإمام البونى فى معنى هذه الصفة : البصير هو الذى لا يعزب عنه ، أى لا يغيب عنه ، شىء فى السموات العلى ، ولا فى الأرضين السفلى، ولا فيما بينهما ، ولا تحت الثرى ، منزها عن حدق وأجفان ، منزها عن انطباع الصور فى ذاته ، كانطباعها فى حدقة الإنسان ، هذا والبصر الحسى مقهور قاصر ، لأنه لا يشاهد البواطن والأسرار . قلت : فعليه أن يشهد نعمة الله عليه بأنه بمرأى من الله تعالى . وبالله التوفيق .

الحكمة الثالثة

﴿ لا يخرجك من شهود الوهم والخيـــال ، إلا كثرة ذكر الله بالصدق والابتهال ﴾ .

قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : لايخرجك أيها السالك طريق القوم من شهود الوهم والخيال الذى هو عين الأغيار إلا كثرة ذكر الله . فاذا أكثرت أيها العبد من ذكر الله تعالى . لزم من ذلك الخشية من الله تعالى ، والمعرفة بالله تعالى ، فإذا داومت على ذلك ، كشف الله عن قلبك حجاب الوهم والخيال . فتشهد بعد ذلك فعلك وهما وخيالا ، وحياتك وهما وخيالا ، ووجودك وهما وخيالا . واعلم أن كثرة الذكر لله تعالى من غير إخلاص وحضور لاتنتج نتيجـــة الذكر بالإخلاص والحضور مع الله بالله لله ، فإن الله سبحانه وتعالى غيور لايحب أن يرى فى قلب الذاكر غيره .

قال سيدى الشيخ عبدالوهاب الشعرانى : أقرب الطرق إلى الله مداومة كثرة ذكر الله تعالى ، لأن الاسم لايفارق مسماه ، فلا يزال العبد يذكر ربه،والحجب تنخرق له شيئا بعد شىء حتى يقع الشهود للقلب ، فإذا حصل الشهود استغنى القلب عن الذكر بمشاهدة المذكور ، فإن ذكر العبد ربه فى تلك الحضرة غير لائق بالأدب . جاء فى الأحاديث القدسية أنه تعالى قال : ياعبدى إذا رأيتنى فاصمت ، وإن لم ترنى ، فلا تفارق اسمى . افهم تغنم .

وقال سيدى الشيخ إسماعيل الدقلاشى رحمه الله تعالى : إذا لازم الذاكر الذكر ، وترك الراحة والنوم ، خرج من الوجود الوهمى ، إلى الوجود

الحقيق ، ومن الحجاب الظلمانى ، إلى الحجاب النورانى الذى هو عالم الملكوت .

وقال بعض العارفين بالله: اعلموا أن الذكر عمارة القلب والقلب ما سمى قلبا إلا لتقلبه بين الجسد والروح ، فالجسد خلق من التراب ، والمعرفة فيه من الروح ، وكثرة الذكر تنتج منها المعرفة ، ولا يزال الذاكر يذكر الله حتى يرسل الحق نورا إلى قلبه . فتنبع منه ينابيع الإيمان ، فتخرج منها سهام عظيمة ، فيصيب الشيطان منها شيء ، فيزعق زعقة عظيمة ، فيجتمع أولاده عليه ، فيقولون له مابالك ؟ فيقول هذا رجل أطفأ نوره نارى ، وحال بينى وبين اختيارى ، حتى عدمت رشدى واصطبارى . ولا يزال الذاكر يذكر ، لا إله إلا الله ؛ حتى يسمع قلبه يجاوبه بها ، فإذا انتقل الذكر من لسانه إلى قلبه ، ذكرت مع القلب جوارحه وأعضاؤه ، وعروقه ، ثم يتواتر ذلك حتى يسمع كل موجود كان فى حضرته يقول : لا إله إلا الله .

وقال الإمام القشيرى رضى الله عنه فى كتابه « ثمرات الأعمال » : من حافظ على قول لا إله إلا الله ظاهرا ودوام على ذكرها ، وجعل لسانه مستغرقا فيها ، فتح الله على قلبه نورا يكشف له عن سرها ، فتستغرقه أنوارها ، ويشغف قلبه بذكرها ، وتصطلحه أنوارها وثمراتها ، فيشهد بها من عجائب الملكوت مالا تستطيع العبارة أن تجد له وصفا أو نعتا . وتلك نتائجها . ثم تنعكس أذكاره الظاهرة على باطنه ، وكلما داوم على الذكر ، غلب باطنه على ظاهره ، فيقوى ذكرى الباطن ، ويفتر الذكر فى الظاهر ، إلى أن يقوى سلطان القلب على حركة اللسان ، فتبطل حركة اللسان بالذكر ويتعود القلب الذكر اﻫ .

ثم قال فيه أيضا ، وقال السهروردى رحمه الله : إذا استولت الكلمة على اللسان تشربها القلب ، ثم تتجوهر فى القلب ، وبتجوهرها يسكن نور اليقين فى القلب ، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لم يزل نورها

لتجوهرها ، وهذا الذكر هو المكاشفة والمعاينة ، وهذا هو المقصود الأعلى الأقصى ، حتى إن الذاكر الصادق يغيب عن المحسوسات بحيث لو دخل عليه داخل من الناس أوغيرهم لايعلم به لغيبته فى الذكر كالنائم ، قلت : وقد حكى لى الولى الصالح ابن الفقيه حمد بن المجذوب أن هذه الكيفية حاصلة معه بعدما وهب الاسم الأعظم .

واعلم أيها الراغب فى طريق الله أن الذكر مطلوب ومأمور به من الله تعالى ، قال عزوجل فى كتابه العزيز : واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، وقال: ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا،وقال : اذكرونى أذكركم .

قال بعضهم فى تفسير هذه الآية : اذكرونى بالتوحيد والإيمان أذكركم بالدرجات فى الجنان ، وقال بعضهم : اذكرونى بالقلوب ، أذكركم بكشف الكروب ، وقال بعضهم : اذكرونى بالافتقار ، أذكركم بالاقتدار ، وقال بعضهم : اذكرونى ذكرا فانيا ، أذكركم ذكرا باقيا .

وورد فى بعض الأحاديث القدسية : أهل ذكرى فى ضيافتى ، وأهل شكرى فى زيادتى ، وقال بعضهم : اذكرونى بالندم أذكركم بالكرم ، واذكرونى بالإخلاص ، أذكركم بالاختصاص . وفى الخبر أن جبريل قال : يارسول الله أعطيت أمتك مالم تعط أمة من الأمم . قال : وماذاك ياجبريل ؟ قال قوله تعالى : اذكرونى أذكركم ، ولم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة . قال ثابت البنانى رحمه الله : إنى أعلم متى يذكرنى ربى عز وجل ، ففزعوا منه وقالوا : كيف تعلم ذلك؟ قال : إن الله تعالى يقول : فاذكرونى أذكركم ، فإذا ذكرته ذكرنى .

قال أبو الحسن الشاذلى : إذا غفل المريد عن ذكر الله نفسا واحدا صحبه الشيطان فهو له قرين ، فكيف بالنفسين فأكثر . فعليك بكثرة ذكر الله . وفى الخبرعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال:ماعمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل . قالوا : يارسول الله ولا الجهاد

فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع .

وكان معاذ بن جبل رضى الله عنه يقول : آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أنى قلت : أى الأعمال أفضل ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل ؛ وفى حديث رواه الطبرانى وذكره الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى رسالة قال قال صلى الله عليه وسلم : من لم يذكرنى بالإيمان فقد برىء من الإيمان ؛ وقال الله عز وجل : ياابن آدم إنك إذا ذكرتنى شكرتنى .

وقال الله عز وجل : يا ابن آدم إنك إذا ذكرتنى شكرتنى وإذا نسيتنى كفرتنى . قلت: فمن لم يذكر الله فقد كفر بنعمته عليه . والمقصود فى الذكر الأدب حال الذكر ، والأدب على قسمين : خاص وعام . فالأدب العام هو اتباع ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه ، والأدب الخاص هو الأدب مع الله فى عباداته على وجه الحياء منه والحضور معه .

قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى رسالته : أجمع الأشياخ على أن العبد يصل بعبادته إلى حصول الثواب ، ودخول الجنة ، ولكن لا يصل إلى حضرة ربه إلا أن يصحبه الأدب فى تلك العبادة . ومعلوم أن مقصود القوم القرب من حضرة الله الخاصة والبقاء فيها من غير حجاب . قال رضى الله عنه : وقد عد الأشياخ للذكر ألف أدب ، ثم قالوا ويجمع خلاصة تلك الآداب كلها عشرون أدبا ، من يتحقق بها فإنها تقرب عليه الفتح ، خمسة منها سابقة على الذكر ، واثنا عشر حالة الذكر ، وثلاثة بعد الذكر .

فأما الخمسة السابقة على الذكر : فأولها التوبة النصوح وهى أن يتوب من كل ما لا يعنيه ، فضلا عن المحرمات ، الثانى الوضوء أو الغسل ، الثالث الصمت والسكينة ليحصل له بهما كمال الانتباه والتوجه والصدق ، الرابع أن يستمد عند شروعه فى الذكر من همة شيخه بأن يشخصه بين عينيه ليكون رفيقه

فى السير ، الخامس أن يرى استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أنه الواسطة بينه وبين الله تعالى .

وأما الاثنا عشر التى تكون حالة الذكر :

فالأول : الجلوس على مكان طاهر كجلوسه فى الصلاة .

الثانى : أن يضع راحتيه على فخذيه : واستحبوا جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده .

الثالث : تطييب المجلس والثياب بالرائحة الطيبة .

الرابع : أن يكون مكسبه حلالا طيبا .

الخامس : اختيار الموضع المظلم من خلوة أو سرداب .

السادس : تغميض العينين،وذلك أن الذاكر إذا غمض عينيه تنسد عليه طرق الحواس الظاهرة شيئا فشيئا،وسدها يكون سببا لفتح حواس القلب .

السابع : أن يشخص شيخه بين عينيه مادام فى حالة الذكر،وهذا عندهم من آكد الآداب ، لأن المريد يترقى منه إلى الأدب مع الله والمراقبة له .

الثامن : الصدق فى الذكر بأن يستوى عنده السر والعلانية .

التاسع : الإخلاص وهو تصفية القلب وتصفية العمل من كل شوب .

العاشر : أن يختار من صيغ الذكر لفظ لا إله إلا الله فإن لها أثرا عظيما عند القوم لا يوجد فى غيرها من سائر الأذكار ؛ فإن فنيت شهواته وأهواؤه فحينئذ يصلح له أن يذكر الله تعالى بلفظ الجلالة وما دام يشهد شيئا من الأكوان فذكر الله بالنفى والإثبات واجب عليه فى اصطلاحهم .

الحادى عشر : إحضار معنى الذكر فى قلبه على اختلاف درجات المشاهدة ويعرض على شيخه كل شىء ترقى إليه من الأذواق لكى يعلمه طريق الأدب فيه .

الثانى عشر : تفريغ القلب من كل موجود سوى الله ، وإنما شرطوا ذلك ليتمكن لهم تأثير قول لا إله إلا الله .

وأما الثلاثة التى بعد الذكر فهى أن يجلس فى صمت وسكون ، وأن يترقب وارد الذكر ، وأن يزم نفسه مرارا ، وبهذه الآداب الثلاثة يتلقى ورادات الذكر من حضرة الرب جل وعلا .

واعلم أن أفضل الذكر لا إله إلا الله . قال صلى الله عليه وسلم : أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله ، وأن جميع الأعمال تصعد بها الملائكة إلا لا إله إلا الله فإنها تصعد بنفسها ؛ قال الإمام البونى رحمه الله : إن العقل إذا كان مستنيرا لم ير فى الأذكار كلها أحسن من لا إله إلا الله . وورد أن جميع ما خلق الله من الخلق ما علمهم من جميع العلوم أحسن من لا إله إلا الله ؛ وأن علم جميع الأولين والآخرين منطو فى قول لا إله إلا الله .

وذكر شارح «ياقوتة التوحيد» فى خصائصها ، أى خصائص كلمة التوحيد ما رواه ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن قوله لا إله إلا الله تدفع عن قائلها تسعة وتسعين بابا من البلاء أدناها الهم . اهـ . من الجامع الصغير .

الحكمة الرابعة

﴿ التوحيد ظاهره التنزيه عما لايليق بالذات المقدسة وباطنه نفى الحول والقوة منك عنك بالكلية ﴾ .

(ش) قلت به عنه فى طرائف هذه الحكمة ، ناسجا لما انطوت عليه معانيها الحسنة : التوحيد علم من علوم النبوة يشير إلى وحدانية الذات وإطلاقها عن القيود،وهو على قسمين : توحيد العوام ، وتوحيد الخواص ، فتوحيد العوام لأهل مرتبة الإيمان ، وتوحيد الخواص لأهل مرتبة الإحسان ، والفرق بينهما هو أن أهل توحيد العوام يستدلون بالأثر على المؤثر ، وأن أهل توحيد الخواص يستدلون بالمؤثر على الأثر ، فالأول مستلزم لنفى الشرك الجلى ، والثانى مستلزم لنفى الشرك الخفى ، أما ظاهر التوحيد الذى يقتضى التنزيه عمالايليق بالذات المقدسة العلية فمعرفة الواجب والمستحيل والجائز فى حق الله تعالى ، وهو ما ذكره صاحب الياقوتة حيث قال : ـ

يجب عليك يا فتى أن تعتقد
فى حق مولانا العلى الفرد الصمد

بأن ذاته لهـــا صفات ... عدتها عشرون واجبات
كلفنا الشرع بأن نعرفها ... وهأنا أريد أن أثبتها
فى هذه الأبيات قصد النفع ... لى ولمن كان سليم الطبع
أولها الوجود ثم القدم ... كذا البقـــاء واجب محتم
رابعها من واجب فى حقه ... إن كان غير مشبه لخلقه
لأنه لو ماثل الحوادث ... لكان جرماً وافتقر لمحدث
خامسها قيامـــه بنفسه ... جل الإله فى علاء قدسه
فليس يحتاج إلى المحـــل ... كذا المخصص فاستمع لقولى

سادسها بأن يكون واحدا فلا ترى له فى ملكه معاندا
فهذه ست صفات يافتى معدودة كما تراها ، فاثبتا
أولها عندهمو نفسية وخمسة من بعدها سلبية
وواجب فى حقه معانى سبع صفات واسمها المعانى
إرادة قديمة سنية ثابتة لذاته العلية
كذاك أيضاً قدرة له تجب
فاقبل كلام الحق واطرح الكذب
تأثيرها سار بكل الجائزات
واثبت لها التخصيص أى فى الممكنات
وثالث من صفة المعانى العلم ، فاعلم فزت بالفرقان
له تعلق بكل مايجب
يجوز ، يستحيل ، خف من الكذب
الرابع الحياة للفرد الصمد واجبة قد كفر الذى جحد
ليس لها تعلق بشى هذا هو الصواب يا أخى
إلا محلها الذى قامت به فاطلب لهذا العلم تتصف به
لكنها فى الكل شرط لازم والكل مشروط لها ملازم
الخامس السمع لرب واجب كذا البصر قله ولا تجانب
دليلنا الكتاب ثم السنة أسكننا الله بأعلى الجنة
فكل موجود به تعلقا من ذاته أو غيرها قل مطلقا
وسابع خاتمة المعانى كلام ربنا العظيم الشان
منزه عن الحروف بل والصوت وعن تقدم ، تأخر ، وسكت
له تعلق كما للعلم قل ذا وكن متصفاً بالفهم
فهذه سبع ، وست قد مضت أتبع بها سبعا سواها بقيت
تسمى لدى الأقوام معنوية العارفين أهل صفو النية
فكونه تعالى قادرا فلتفهما وكونه حيا ، مريدا عالما

وهو السميع والبصير مثل ما ... كان ولم يزل متكلما
ومما يستحيل عن مولانا ... سبحانه من نطفة سوانا
عشرون أيضا كالتى تقدمت ... واجبة فى حقه قد علمت
وجوده سبحانه ينفى العدم ... كذلك الحدوث ينفيه القدم
ثم البقا ينفى طرو العدم ... إذ كنت ياهذا لبيبا فافهم
كذا مخالف نفت فلا ... مثل له جل وعز وعلا
فى فعله كذا وفى صفاته ... وليس ذات ثم مثل ذاته
وصفة القيام بالنفس حكت ... له الغنى ، وضده عنه نفت
كذا تركب فى ذاته العلية ... قد انتفى بالوحدة السنية
كذلك العجز نفته القدرة ... عنه تعالى من شديد المرة
فهاك ذا من نبذة الأضداد ... وقس عليها باقى الأعداد
يجوز فى حق الإله الواحد ... من جهة العقل فلا تعاند
تنعيم عاص إن أراد فضلا ... تعذيب من شاء كذاك عدلا
كذاك يبعث رسله للخلق ... لجائز اصغ لقول الحق
وكل فعل من فعال ربنا ... لجائز هكذا اعتقادنا
لأنه ليس يجب عليه شىء ... سبحانه عليه رزق كل حى
جل الإله ربنا ماأعظمه ... ومن عزيز واهب ماأكرمه

فهذه المنظومة الجليلة جامعة للواجب والمستحيل والجائز فى حق مولانا جل وعلا ، فمن عرف معناها وحفظها عن ظهر قلب ، واستدل على جميع الصفات بالكتاب والسنة والإجماع ، سواء أكانت هذه الصفات هى النفسية ، أو السلبية أو المعنوية أو المعانى . . . من عرف ذلك تمكن من معرفة توحيد الظاهر ، وكان عارفا به ، لكن يخشى عليه من إساءة الظن بالعباد ، فإن إساءة الظن بهم تؤدى إلى ظلمة القلب والفساد .

أما قوله فى المنظومة : قد انتفى بالوحدة السنية . فقد قال شارحها :

الوحدة السنية أى الشريفة التى لايعلمها على الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى ، ولايجوز التفكير فيها لقوله تعالى : ويحذركم الله نفسه،أى لاتتفكروا فيها ، قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه المسمى كشف الحجاب والران عن أسئلة الجان : لايجوز التفكير فى ذاته إجماعا لقوله تعالى : ويحذركم الله نفسه . قلت : وورد فى الخبر : تفكروا فى مخلوقاتى ، ولا تتفكروا فى ذاتى ، وحقيقة المنع عن الذات لا عن الصفات ، لأن الذات لايعرفها غيرها ، فاعرف قدر ما وصل إليك ولا تكن من الجاهلين .

أما باطن التوحيد الذى هو للخواص ، والذى قلت فيه بإرادة الله وقدرته إنه « نفى الحول والقوة منك عنك بالكلية » فإنما أعنى به أن من أراد الله أن يطهر باطنه ويجعله بيت وحدته لايرى لنفسه قولا ، ولا فعلا ، ولا حركة ، ولا سكونا إلا من الله ، فإذا داوم على ذلك فإنه يغيب عن الآثار برؤيا المؤثر .

قال بعض العارفين بتوحيد الخواص : من قال كن ، ويسمعها من الحق كان له ، لكن ، بدايته على منهاج المقربين من أهل الله تعالى فانهم يبدأون من أول قدم بمشاهدة وحدة الأفعال ، بخلاف أهل الجذب الإلهى .

قال سيدى حجازى بن المضرى عفا الله عنه : ولما كان الناس فريقين : عاما وخاصا ، خص الله سبحانه وتعالى كل فريق بما يليق به من عام وخاص .

ومن أبدع ماقيل فى التوحيد الخاص من المختصرات ؛ وأنفع ماصنف فيه من الرسائل المعتبرات ، رسالة العارف بالله تعالى ، شيخ الطريقة ، الجامع بين الشريعة والحقيقة ، من صفا مشرب توحيده الخاص عن كدور رؤية الأغيار ، وكرع من صرفه حتى غاب بمعانيه المؤثر عن الآثار ، الشيخ رسلان الدمشقى طيب الله ثراه ورضى عنه وأرضاه قال : كلك

شرك خفى ، ولا يتبين لك توحيد إلا إذا خرجت عنك .

قال الشيخ حجازى بن المضرى فى شرحه عليها : كاف — يخاطب كل إنسان مكلف ، والمراد الواقف عليها ممن يشرب من هـــذا المشرب . ويرغب فى هذا المطلب — أراد أن لكل ذات من صفاتها وأفعالها شركا خفيا لمشاهدة الوهم والخيال ، حيث أنهما يثبتان الغير ، كالمراتب الباطلة ، والمقامات الزائلة ، ولاحقيقة لهما فى نفس الأمر كما هو وصف الوهم والخيال وفى الغير الذى يثبته الوهم والخيـال ولا حقيقة له ولا وجود ، أن ترى نفسك موجودة ، وأنت فى الحقيقة غير موجود ، لأنك موجود بالله ، ومن كان موجودا لغيره كان معدوما بنفسه والمطلوب منك أن ترى نفسك بعين الحقيقة ، فهى معدومة على الأصل وأن الوجود حقيقة إنما هو الله تعالى ، فهو الموجود بنفسه ، الواجب الوجود لذاته .

ولله در العارف بالله تعالى تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندرى حيث قال فى حكمه : ماحجبك عن الله وجود موجود معه ، إذ لاشيء معه ، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه ، فإذا فنيت عنك ، وعن الغـير فى مشهدك بان لك بالعلم الإلهى المستفيض عليك من أنوار الألوهية توحيدك الخاص النافى للشرك الخفى المستلزم لنفى الوهم والخيال اللذين ينشأ عنهما هذا الشرك الخفى .

ومن لازم هـذا التوحيد الخاص إثبات التوحيد العام المستلزم لنفى الشرك الجلى . فبان لك أنه بفنائك عنك ، وإفنائك الغير عنك فى مشهدك يتحقق لك التوحيد : ولا يتبين لك ذلك التوحيد إلا إذا خرجت عنك ، أى فنيت عنك ذاتا ، وصفات ، وأفعالا ، وعن سائر الأغيار ، بأن ترى كل كائن معدوما بنفسه ، موجودا بالله ، كما هو الأمر فى الحقيقة ، وإنما ساق الخطاب لك بالخروج عنك ، وإن كان المطلوب منك أيضا الخروج عن رؤية الأغيار

كلها : لأن الأمر فيك أتم ، إذ لا يتم لك الخروج عنك إلا بعد الخروج عن رؤية الأغيار كافة ، فاقتصر على الغاية . فأنت حجابك عن رؤية التوحيد الخاص بالموحدين الخواص ، فما دمت تشهد لك وجودا فلا يتم لك التوحيد الحقيق لإثباتك نفسك ، وبذلك تثبت الأنية فتنتفى الوحدانية ، أى يثبت لك الوجود معه تعالى ، وهو له صفة نفسية ، فتشاركه فيها تعالى وتدعى لنفسك ماهو له ، وفى ذلك منازعة الربوبية ، والخروج عن رق العبودية ؛ فيبطل التوحيد ، ويثبت الشرك ، نعوذ بالله منه .

قال العارف بالله تعالى الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربى قدس الله سره العزيز :

ماوحد الواحد من وحده   إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته   عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده   ونعت من ينعته لاحد

فما وحد الله فى الحقيقة إلا الله ، قال رضى الله عنه : وإنما أردنا شهود الأشياء موجودة بالله . قال ابن عطاء الله فى حكمه : لولا ظهوره فى المكونات ما وقع عليها ظهور أبصار ، وقال أيضا : الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، أثبتها كما أثبتها لحكمته ، وانعزل عنها بأحديته ؛ وقال سيدى عبد الكريم الجيلى فى عينيته :

وما الخلق فى التمثال إلا كثلجه
وأنت لها الماء الذى هو نابع
فلما يذوب الثلج يرفع حكمه
ويوضع حكم الماء والأمر واقع

هذا ، وتوحيد الخواص على ثلاثة أقسام : أدنى وأوسط وأعلى ، فالأدنى لعوام الأولياء ، والأوسط لخواص الأولياء ، والأعلى لخواص الخواص

فأدناه توحيد الأفعال ، وأوسطه توحيد الصفات ، وأعلاه توحيد الذات ، والمولى يتجلى لأوليائه بقدر مقام كل واحد منهم ؛ وقد قلت فى هذا المعنى :

إذا شئت أنظر فى ذات الحبيب فانتفى
وإن شئت أنظر فى نفس الصفات فاختفى
وإن شئت أنظر فى فعل القديم فاختفى
وإن شئت أنظر فى أسماء سلمى فاكتفى

فهذا العلم لايحويه إلا عبيد فى الوجود متجلى متبحر متطهر من جنابته وللذات نفسه تارك : فإنى وحق الحق لو لوحته به عن فهم ، فهمنى من لايعرفه طوايا زواياه عن الله فافهم .

———————

الحكمة الخامسة

﴿ من المحال أن يفتح لك باب شهود حضرته ، وأنت لم تطهر قلبك من جنابة شركك ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : من بعض المحال أن يفتح لك الفتاح ، أيها السالك طريق أهل المعرفة والنجاح ، باب شهود حضرته اللاهوتية ، حتى تغيب فيها عن العوالم العلوية والسفلية ، وأنت أيها القاصد المريد ، لحضرته الفعال لما يريد ، لم تطهر قلبك الذى قال فيه نبيك عليه الصلاة والسلام : ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت الجسد كله،وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب . وتطهير القلب من الأوصاف الذميمة الظاهرة والباطنة الموجبة لجنابة الشرك الخفى الذى لاتزكو أعمال القوم إلا بعد خروجه والذى هو أخفى من دبيب النمل ، قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : اتقوا الشرك الخفى فانه أخفى من دبيب النمل .

واعلم وفقنا الله وإياك أن الإنسان لايخرج من الشرك الخفى إلا بالفناء عن ذاته وأفعاله بحيث لايرى ذلك لنفسه .

قال سيدى عبد الوهاب الشعرانى حاكيا عن أبى المواهب الشاذلى فى صفاته : وكان الشيخ أبو المواهب يقول : من المحال أن يفتح لك باب الملكوت - أى ماخفى إدراكه من العلوم والمعارف وفى القلب شهوة ، كما أن من المحال أن يفتح لك باب العلم بالله من حيث المشاهدة وفى القلب محبة للعلم بأسره فى الملك والملكوت : قال : وكان يقول:التطهير من الجنابة المعنوية مقدم على الحسية ، فالحسية ربما رخص لصاحبها فى بعض الأوقات،والمعنوية لايرخص فيها البتة ، ولهذا ترى كثيرا من الموسوسين ليس عندهم سعة من نعيم الحضرة القدسية لعمى بصيرتهم ، قال : وكان يقول فى معنى قول الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله تعالى :

توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر ... وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر
وقدم إماما كنت أنت إمامه ... وصل صلاة الفجر فى أول العصر
فهذى صلاة العارفين بربهم ... فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر

قال رضى الله عنه المراد بالوضوء طهارة أعضاء الصفات القلبية من النجاسات المعنوية ، وماء الغيب خلوص التوحيد بالعيان ، يعنى التوحيد الخاص بالخواص ، فان لم تخلص لك بالعيان فتطهر بصعيد البرهان ، يعنى بذلك التوحيد الظاهر .

وقدم إماما كان فى يوم الخطاب ثم صرت إمامه بعد سدل الحجاب ، وصل صلاة الفجر التى هى صلاة نهار كشف الشهود بعد حجاب ظلمة الوجود ، صلها فى أول العصر ، الذى هو أول زمان انفجار فجرك ولا تتأخر لآخر دورك ، لأن الحكم للوقت ، والتأخير له مقت . فهذى صلاة العارفين بربهم ، وهم الذين لم يخرجوا عن متابعة الأحكام الشرعية فى جميع مشاهد الربوبية ، فإن كنت منهم فانضح البر يعنى اغسل دنس بر الحقيقة بماء بحر الشريعة .

قال أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعلى طهر ثيابك من الدنس تحظ بمدد الله فى كل لحظة . قلت وما ثيابى ؟ قال : إن الله تعالى كساك حلة الإسلام أى معرفة توحيد الأفعال ، ثم حلة المعرفة أى معرفة توحيد الصفات ، ثم حلة المحبة أى الذريعة الموصلة إلى الله ، ثم حلة الإيمان أى مقام الوجود يعنى الفناء ، فمن عرف الله صغر عنده كل شىء ، ومن آمن بالله أمن من كل شىء ، ومن سلم لله قلما يعصيه شىء فإن عصاه اعتذر ، وإن اعتذر إليه قبل عذره ، قال : ففهمت من ذلك معنى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) .

واعلم أن فتح الله لك باب الحضرة الإلهية هو الكنز الذى لا يفنى ، فاذا أردت ذلك فعليك بصرف العوائق من القلب أى كل ما يلهيك أو يشغلك

أو يصدك عن الله فاتركه ، وأول ذلك المراءاة والثانى تدبير نفسك : فإنك بعد ذلك تنال الخوارق .

قال الشيخ أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه : إذا أردت أن تفتح لك كنزا فإياك أن تلهو عن صرف العائق ، أو تغفل عن العزيمة قبل حضور صاحب الكنز ، فإذا فتحت الكنز . فإياك أن تشتغل بشىء من الأمتعة عن الملك ، بل اجعل قصدك الملك لاغير حتى تنال خاتم الاستخدام ، إن شاء الملك ذلك ، فإن لم يعطك الملك سر الخاتم فإنما ذلك لكونه يريد اتخاذك جليسا له ، وذلك أعظم من سر الخاتم ، فإن جليس الملك لايحتاج إلى استخدام ولا تعب .

ومعنى كلام الشيخ رحمه الله يشير إلى الفناء بعد طهارة القلب من السوى وهو الإشراك مع الله ذاتا وصفات وأفعالا . وأعطاك سر التكوين يكون بعد ذلك ، فعليك بصرف العوائق الكائنة بينك وبين الحق يفتح لك باب شهود حضرته العلية ، المنزه عن الجهات الست المرئية ، واعلم أن من شاهد حقيقة حضرته لايصرف فى حالة جمعه غيره فافهم ، ومن يسلك طريق المقربين فليخل قلبه من جميع الشواغل حتى لايشغله فى حالة التوجه إليه عنه شاغل .

قال سيدى أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه: لما خلت المرآة المحسوسة من جميع الألوان انطبعت فيها صور الأكوان ، وكذلك القلب إذا تفرغ من جميع الشواغل ومن انطباع الطبائع والأوهام ، أشرق فيه نور الشعاع ، فأحرق بهيم هشيم المشاهد ، وتراءت له المغيبات . فأبصر ما مضى ، وما هو آت .

الحكمة السادسة

﴿ لا تعتمد على عمل ليس لك فيه تأثير ، ولا تفعل فعلا حتى تشهد فيه القادر القدير ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى الحسنة، لأنها حكمة منسوجة على مشرب المقربين ، لا على مشرب الأبرار ، فان الأبرار يشهدون أعمالهم معمولة بأنفسهم لله ، ولهم التزام الطاعة ، ورؤية التقصير فيها ، فهم يشهدون فى أنفسهم قوله تعالى : يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ، والمقربون يشهدون فى أنفسهم قوله تعالى : والله خلقكم وما تعملون : قال الله تعالى : قد علم كل أناس مشربهم ، يعنى من طريق أذواقهم فلا تعتمد أيها السالك طريق المقربين ، العارفين برب العالمين ، على عملك ، لأنك عاجز عنه ، لا تأثير لك فى فعله أو تركه ، إنما المؤثر فى وجودك، وصفاتك ، وأفعالك هو الله سبحانه وتعالى . فاذا اعتبرت فى ذلك، وتحققت به شهدت فعل قدرة الله ساريا سره فى كل الوجود ، وعلمت حينئذ أن الشهود لفعلك منك شرك خفى ناشىء عن وهم وخيال ، وأن الفاعل حقيقة هو الله الواحد الجبار .

فاعمل أيها السالك طريق المقربين بربك ، ولا تعمل بنفسك، ولا تعتمد على عملك ، لقوله عليه الصلاة والسلام : اعمل ولا تعتمد . يعنى على عملك . فحقيقة العارف بالله من صرف أعماله لله ، وشهدها من الله .

قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله : لا تطلب عوضا على عمل لست له فاعلا ، يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا .

قال الشيخ أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه : الاعتماد على العمل أول

عائق يعرض لأصحاب السلوك فى بداياتهم،وذلك من غلبة الوهم على وجودهم، وتراكم الخيال على مرايا عقولهم ، فلا يخرجون عن ذلك إلا بنور الكشف بأن الله تعالى خالق الأعمال .

وقال رحمه الله تعالى : من تحقق بمعارف الحضرة الإلهية ، وانمحق وصفه بوصفها خرج عن الاعتماد على علمه وعمله وعن كل شىء من بقايا كونه وكينونته التى كان بها مع معية وجوده تدقيقا وتحقيقا لا بباطل وهمه فى إثبات وجوده .

وذكر سيدى الشيخ زروق فى مقسميه على الحكم العطائية قال ، قال الواسطى رحمه الله تعالى،لما دخل نيسابور لأصحاب أبى عثمان رحمه الله تعالى: بم كان يأمركم شيخكم ؟ قالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعة ورؤية التقصير فيها فقال : أمركم بالمحسوسية المحض هلا أمركم بشهود مجريها ومنشئها . . . فافهم أيها السالك ذلك ، فاذا عملت عملا صالحا فلا تنسبه إليك بل اشهد ذلك منة منه عليك .

قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى : قطع السائرين له والواصلين إليه عنه رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم .

قال سيدى الشيخ زروق : الناس أربعة :

الأول : رجل عمل بنفسه لنفسه فنظره مقصور على نفسه ، إن عمل اعتمد ، وإن لم يعمل حزن على مافقد ، وهذا من عوام المؤمنين .

الثانى : رجل عمل بنفسه لربه فهو يطالب نفسه له ، ولا يطالبه لها ، وهذا حال أهل البداية من المتوجهين .

الثالث : رجل عمل بربه لنفسه ، فهو يشكر على ماوفق إليه لما يرجو بتوفيقه ويلجأ إذا لم يوفق لما يخشى من فقد عمله ، وهذا قريب من الذى قبله، وهو بساط المريدين فى بداياتهم .

الرابع: عامل بربه لربه ، وهذا حال العارفين الذين خرجوا عن أنفسهم، لمولاهم وبه .

وقد قال بعضهم : كن فى البداية كأنك قدرى ، يعنى من فرط الجد . ووجود المطالبة للنفس ، وفى النهاية كأنك جبرى ، يعنى من شهود التقدير ووجود التسليم .

وقال صلى الله عليه وسلم : لايكن أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ، أو كالأجير السوء إن لم يعط لم يكن يعمل .. فافهم سر الحديث واعمل عملا خالصا لله بالله ، لأنه تعالى أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا وأشرك فيه غيره تركه لشريكه ، فلا يكن عملك لغير الله ، ولا تشهد عملك إلا من الله ولا عملك إلا بالله ولا حالك إلا من فضل الله ولا أنسك بالوجد إلا فى الله بالله من الله .

قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى : وقد جاء فى الأخبار عن الله سبحانه وتعالى لاتركن لشىء دوننا فانه وبال عليك ، وقاتل لك ، فانك إن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن ركنت إلى العمل رددناه إليك ، وإن وثقت بالحال وقفناك معه ، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اعتذرت بالمعرفة نكرناها عليك، فأى حيلة لك وأى قوة معنا ؟ فارضنا لك ربا ، نرضاك لنا عبدا . اهـ . وفقنا الله للعمل به .

قال سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه : لاعمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويحتقر عندك وجوده . قال الشيخ زروق رضى الله عنه : قلت لاعمل . أى لاشىء من الأعمال ، وهى الحركات الموافقة لأمر الله أرجى أى أكثر رجاء للقلوب أى لصلاحها ، ومعنى « يغيب عنك شهوده » هو أن تكون ناظرا فيه لتدبير الحق سبحانه وتعالى ، فلا ترى لنفسك حولا ولا قوة فى وجوده، ومعنى « يحتقر عندك وجوده » هو ألايقوم فى نظرك لما ترى من علته وآفته مايفضى بك لعدم الاعتبار له لشهود نقصه وتقصيره ،

فأن لم تكن نافياً عن نفسك الحول والقوة فى أعمالك فانظر عملك بعين العلة وحالك بعين الدعوى،واحتقر وجود عملك لتقصيرك فيه . وبعض الأولياء يضيق الله عليهم الدنيا حتى لايشتغلوا عن الأعمال المطهرة لقلوبهم حتى تصلح مستودعا للأسرار .

قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى:وقد قيل إن الله أوحى إلى الدنيا فقال لها : تضيق وتشددى على أوليائى ، وتوسعى وترفهى على أعدائى ... تضيق على أوليائى حتى لايشتغلوا بك عنى فلا يتفرغوا لذكرى . فالعاقل يعمل الأعمال الموصلة ويشهد كونها عارية من الله إليه ويشهد المنة فيها لله عليه .

قال سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه : وإياك وذهول القلب عن وحدانية الله تعالى ، فإن أول درجات الذاكرين استحضار وحدانية الله تعالى ، وماذكره الذاكرون وما فتح لهم إلا باستحضار ذلك ، وماطرد الحضور منهم إلا بذكرهم مع الغفلة والذهول عن استحضاره والاستعانة على ذلك لاتكون إلا بمنع شهوتى البطن والفرج ، ولا يضارك فى الله إلا نفسك ، ما أكثر توددك للخلق وما أقل توددك للحق ، لو فتح لك باب التودد إليه لرأيت فيه العجائب . والله أعلم .

الحكمة السابعة

﴿ إذا أرصد الحق وحده فعله فى فؤادك فلا تبال معها وإن قل عملك ﴾

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : إذا أرصد أى أثبت وسكن سبحانه وتعالى . . وحقيقة الرصد ما كان على كنز ، والقلب كنز من كنوز الحضرة الإلهية ، ورد فى الحديث القدسى . ما وسعنى سمائى ولا أرضى ، وإنما وسعنى قلب عبدى المؤمن . أى سعة علم ومعرفة ، لاسعة حمل وإحاطة،فافهم .. « الحق » اسم من أسماء الله تعالى ، والاسم عين المسمى، وهو يدل على أن ذات الله حق ، وصفات الله حق ، وأسماء الله حق ، وأفعال الله حق .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : الحق اسم من أسماء الله تعالى أكثر مايجرى على ألسنة القوم فى مخاطباتهم كما يجرى البارى على ألسنة المتكلمين ، والرب على ألسنة الحكماء ، وكل ينطق من بساط حاله .

وقال الإمام البونى رحمه الله تعالى : اعلم أن اسمه تعالى الحق هو سيف الله فى أرضه يقطع به حبال الباطل . والحق ضد الباطل ؛ وكل ماعبر عنه إما حق أوباطل ، وذلك على الإطلاق والحق الواجب المطلق بذاته ، والحق من حيث إيجاده حق ، والمعقول لا يكون باطلا .

واعلم أن الحق تعالى أبرز الموجودات على مايشاء من اعتباره وتخصيص إرادته ، فاعتبر لابراز كل موجود اسما من أسمائه ، وبسط عليه ، ذلك الاسم ليتقبل على توحيد الفطرة والإيجاد به من حيث الاسم الذى يكون عليه وذلك به يكون توحيده ثم إنه بسط معنى اسمه الحق على كل الموجودات خصوصا فى قوله تعالى : وخلق الله السموات والأرض بالحق،فكل موجود قائم بسر اسم من أسمائه تعالى ظاهرا وباطنا ، وسر الحق مودع فيه وهو

موضع الاعتبار والتذكر والتدبر ، وهو لايعتبر الأسر الإيجاد من كل اسم ، وهو سر من الأطوار الأربعة التركيبية لأى حقيقة هذه الأطوار الأربعة مبدأها السر البرزخى لشهود القدرة على التوحيد بشهود الجامع بشهود القيام يوم البعث ولا تكشف حقيقته إلا فى هذه العوالم الأربعة علما وكشفا ، والأربعة فى قوله تعالى:ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها ، والمتخلق بهذا الاسم يشهد مصنوعات الله كلها حقا ، وكل مانطق به الكتاب حقا ، ويشهد كل حركة وكل نفس ، وكل فعل هو من فعل الحق تعالى ، ويسمعها ويبصرها ويتكلم بها على أنواع تراكيبها . قال عليه الصلاة والسلام : لو كشف الغطاء ماازددت يقينا ورأيت سائقا يسوق وقائدا يقود .

وذكر البونى رضى الله عنه : إن أعوان هذا الاسم دائرون فى الدنيا يظهرون الحق وأصحاب الكشف يميزون بين الحق والباطل لما يرون من وقوف هذا العالم حول أصحاب الحق، ولعمرى لقد رأيت ذلك مرارا، والمتخلق بهذا الاسم يشم الكلام ويعرف نتيجته وهل هو حق أم باطل هذا ماذكره فى معنى الاسم (الحق) الإمام العارف بالله تعالى وبرسوله (البونى) .

وقد قيل فيه أن ابن عطاء الله يسميه عالم العلماء كان يقول :

سبرت العـــلم حتى صرت قطبا
وطفت الكون بالتحقيق كلـه
فـا فى الكون غير الله شىء تجلى بين معـلول وعـله

ومعنى «وحدة فعله فى فؤادك» ، إشارة إلى معرفة وحدة الأفعال وذوقها على الكمال حتى يغيب السالك طريق المعرفة فيها ، وذلك عين الفتح الإلهى المستفيض من الحضرة الربانية ، وحقيقة الوحدة ماانفرد به الواحد الأحد ذاتا وصفات وأفعالا ، والفعل الحقيقى ماصدر من عين القدرة

الأزلية لاللذى يصدر بشهود الحجاب من القدرة الحادثة لأن هذا لايسمى عند العارفين بالله حقيقياً ، بل مجازياً . فإذا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعرف السالك بوحدة فعله غيبه عن فعل القدرة الحادثة وأشهده شهودا خاليا عن فعل القـدرة الحادثة ، فعل القدرة القديمة ، حيث لايرى لنفسه ولا لغيره فعلا ، ويشهد الفاعل واحداً لاشريك له فى فعله . قال بعض العارفين : ومن أبصر الأشياء والحق قبلهـا يغيب مصنوعا بمن هو صانع ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : إن الله صانع كل مصنوع وصنعته . فالعارف المشاهد يرى الأفعال من الله ، فإذا عمل عملا لله تعالى ، وكان بالله تعالى ، فإن ذرة واحدة من عمله هذا تزن عند الله تعالى جميع أعمال من عمل بنفسه لله ، فهذا معنى « فلا تبـال معها » أى مع شهود الفعل من الله وإن قل عملك .

قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله : إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها ، وإن قل عملك ، ومشاهدة وحدة الأفعال وجهة من التعرف لأنها دون مشاهدة وحدة الذات والصفات .

وقال سيدى أبو المواهب الشاذلى : رضى الله عنه : إذا فتح على السالك فتح المعرفة فلايبال قل العمل أكثر ، فمن أراد أن يعمل عملا بالله لله يحضر فى باله معنى لاحول ولا قوة إلا بالله .

فعليك ياأخى بالدخول فى جميع أعمالك بقدرة الله القديمة ترى نتيجة أعمالك وجودة أحوالك فى الدنيا والآخرة . قال سيدى الشيخ زروق رضى الله عنه فى مقسميه : وقد جاء فى الخبر فى تفسير لاحول ولا قوة إلا بالله : لاحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ، ولاقوة على طاعة الله إلا باعانة الله . قال : وهو حسن جدا ، فاعلمه فالحقائق ملحوظة ، أى بفكرة القلب ، فى أفعال الرب ، والنسب محفوظة أى موجودة ، أى نسبة الأفعال للمخلوق ،

وماهو إلا فضله فى توفيقك ، قال ابن عطاء الله فى حكمه : لاتطلب عوضا عن عمل لست له فاعلا ، يكفى من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلا .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : لاتنظر لعملك وإن صح ، انظر لمن وفقك إليه ولا تره صحيحا ، بل انظر إليه بما هو عليه من العلة ، فبالأول يغيب عنك شهوده ، وبالثانى يحتقر عندك وجوده .

قال النهرجورى : من علامة من تولاه الله فى أحواله أن يشهد التقصير فى إخلاصه والغفلة فى أذكاره ، والنقصان فى صدقه ، والفتور فى مجاهدته ، وقلة المراعاة فى فقره ، فتكون جميع أعماله عنده غير مرضية ، ويزداد فقره إلى الله تعالى فى قصده وسيره حتى يغيب عن كل شىء دونه .. والله أعلم .

الحكمة الثامنة

﴿ الاعتماد على عملك بك مثبت لتأثير قدرتك فيه ، إن أردت أن تخرج عنه ، أرح نفسك من اعتمادك عليه ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : الاعتماد على عملك ، أيها السالك طريق المقربين ، دون نظرك لحركاتك ومسكنك فيه ، شرك خفى . يظهر لمن قلبه ذكى لأنه يثبت التأثير لقدرتك الحادثة التى لا تأثير لها فى أثر ما ، وإن قل ، إن أردت أن تخرج عن الاعتماد عليه أرح نفسك من نظارك إليه ، قال الله تعالى : والله خلقكم وما تعملون ، فكيف تطلب الجزاء على العمل ، أى من الله ، وأنت لم توجد هذا العمل كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلا كما قال ابن عطاء الله ، فالعارف يشهد منه العمل منه تعالى ؛ وقال رضى الله عنه : من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل ، أى عدم تحسين ظنه فى الله .

قال سيدى الشيخ زروق فى معنى هذه الحكمة : العمل الحركات البدنية والقلبية عموما والنقصان ضد الزيادة ، والزلل الخروج عن المقصد ، ثم قال والناس على ثلاثة :

الأول : رجل يزيد رجاؤه بعمله ، وينقص بوجود زلله ، لاستشعاره حصول المراد بالعمل ، وفوات المقصد بوجود الزلل ، وهذا معتمد على عمله فى تحصيل أمله ، فإن كان مستمرا فهو من العاملين وإن قصر فهو من الغافلين ، بساطه قوله تعالى : ولتنظر نفس ماقدمت لغد ، ومقامه التحقق بالإسلام فى الجملة والله أعلم .

الثانى : رجل زاد شكره بعمله ، وزاد التجاؤه بزلله لاستشعاره منة الله فى العمل وضرورة رجوعه لمولاه فى الزلل ، وهذا معتمد على فضل الله وناظر

إليه فيما تولاه ، فهو يرجع إليه في السراء بالحمد والشكر ، وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر ، تحققاً بقوله تعالى : وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون،ومقامه التحقق بالإيمان ، إذ بساطه ما اقتضاه عقد إيمانه،فافهم .

الثالث : رجل سلم نفسه لمولاه فلم يزعجه ما به تولاه ، بل شأنه السكون تحت جريان الأحكام ، وفقد الاضطراب والاتهام ، لا يزيد رجاؤه لعلة ، ولا ينقص خوفه لسبب ، بل لو وزنا لتعادلا في كل حال من أحواله وذلك من عدم اعتباره لأعماله ، نظرا للسابق في القسمة ، وقياما بحق الحرمة ، وعملا بقوله تعالى : قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ، فهو دائم البشر متواصل الأحزان كما جاء في وصفه عليه الصلاة والسلام ، وذلك من تحققه بمقام الإحسان ، إذ صارت له الحقيقة في معد العيان ، فافهم .

وقد قال بعض المحققين رضي الله عنهم:من بلغ حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل بسوى الله . أي يشهده من الله ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن ينظر إلى أحد غير الله ومن بلغ حقيقة الإسلام لم يقدر ان يفتر عن العمل لكن الإسلام وماذكر فيه أول مراتب الدين والسلوك .

قال سيدي زروق رضي الله عنه : بلوغ كل لحقيقة ما بلغ هو تمكين حقيقته من قلبه حتى يظهر ذلك في جوارحه . والإسلام هو عمل الجوارح فمن تمكن من قلبه فهو الذي يرى الاتجاه ، ولا كمال إلا بالعمل ، وهو العابد ومن يجري مجراه ، والإيمان عقد القلب ومن تمكن من قلبه علم أن ما قضى عليه سبق أو أن الأعمال بفحوى نتيجتها وهي لا توجب شيئا فلذا لا يلتفت إلى العمل حالة كونه عالما عاملا به ، لحق الحكمة ، وإلا فهو زنديق والإحسان ربط الحق بالحقيقـــة ، وذلك يقضي بالغناء عن الخليقة ، لذلك لا يلتفت صاحبه لغير مولاه عز وجل فافهم ، والله وأعلم .

الحكمة التاسعة

﴿ من علامات شركك به ، اعتمادك على عملك بك ، فإن خرجت عنه بكليته ، جال قلبك فى جبروته ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناتجا لما انطوت عليه هذه الحكمة ، من علامات شركك به : أيها السالك طريق المقربين ، القاصد لحضرة رب العالمين ، الطالب الخروج من الشرك الخفى بمنة إله الاولين والآخرين اعتمادك على الأعمال الصادرة من حضرة ذى الجلال مشاهدا أنها منك إليه كأنك مهديها ومدخلها عليه ، وتلك الكيفية فيها منازعة الربوبية فى أفعالها ، ويستحيل أن يكون فى الوجود فاعلان ، والله سبحانه وتعالى أغنى الشركاء ، فمن عمل عملا وشهد أنه الفاعل له فقد أشرك به سبحانه وتعالى ، فكن يا أخى من الخواص الذين عملوا بالإخلاص ، ولا تلتفت لعملك أنه بك ومنك .

قال سيدى رسلان العارف بالرحمن ، فى رسالته العجيبة : العوام أعمالهم تهمات ، والخواص أعمالهم قربات ، وخواص الخواص أعمالهم درجات ، قال سيدى الشيخ حجازى فى شرحه ذلك : العوام وهم العباد الذين دون عوام العارفين ، أعمالهم تهمات لرؤيتهم لها ، ولطلبهم الأجر عليها فهى مشوبة بحظوظهم لأنهم كالأجراء الذين يعملون بالأجرة إن أعطوا عملوا وإلا أهملوا وهؤلاء هم الذين يناقشون فى أعمالهم لأن من طلب الأجرة طولب بحسن العمل ، فإن أحسنوا أخذوا وإلا أخذوا .

قال سيدى على الخواص : متى طلبت من الله الأجر على العمل طولبت بحسنه واعلم أنه لايصح للمريد أن يسأل الله الثواب على أعماله كالأجير ، إلا إن أحكم مقام التوحيد ، فمن لازم طلب الثواب فى مقابلة عمله كما عليه طائفة العباد ، ومن لم تربهم الصوفية لم يشم للمعرفة رائحة ، يقول الحق تعالى لهم

أدخلوا الجنة برحمتى ، فيقولون : بل بعملنا ولو أن أحدهم ذاق مقام التوحيد فى الفعل لم يقل لربه ذلك لأنه جهل وخروج عن الأدب . أما العبد الحر لله فمن شأنه أن يخدم سيده قياما بواجب حق السيادة لالعلة أخرى من علل النفوس ، والله لو أن أحدا عبد الله منذ افتتاح الوجود إلى نهايته لم يوف شكر تأهيله للوقوف بين يدى الله عز وجل ويطارد كما يطرد تاركو الصلاة فلم يكن أحد منهم ليقف بين يدى الله عزوجل ومن تأمل أن حكم وقوفه امتثالا بين يدى الله تعالى حكم العبد المجرم الذى فسق فى حريم الوالى لايخطر بباله أن يخلع عليه خلعة أبدا دائما يسأل ربه العفو أو ترك العقوبة ، انتهى كلامه وهو معنى قول صاحب الحكم كفى من جزائه إياك على الطاعة إن رضيك لها أهلا فإذا فهمت ماقلناه فهمت مقام العارفين . والخواص أعمالهم قربات .

قال رضى الله عنه : وهم الفانون عن حظوظهم لاينظرون لأعمالهم ولا لجزاء عليها وإنما يعملون أعمالهم امتثالا لأمر الله ، وقياما بواجب حرمته وحقه عليهم ، ومن ثم كانت أعمالهم قربات يتقرب بها إلى الله تعالى، فإن قصدوا، ولابد، فقصدهم القرب من الله تعالى .. وخواص الخواص أعمالهم درجات لاشهوة لهم إلى عمل ، ولا يقصدون شيئا مطلقا ولو قربا ، لأن الله تعالى أفناهم عنهم فيه ، وأبقاهم به له ، فهم يؤدون حقه قياما بواجب حق السيادة فقط .

واعلم يا أخى أن سالك طريق المقربين لايخرج من الشرك الخفى إلا إن عرف أن الله هو الفاعل العامل أما إن كان باطنه مقتصرا على شهود الأفعال من الخالق ، لامن الحق، فهذا لاحظ له فى علم الحقيقة الذى هو أصل الأصول . قال سيدى الشيخ رسلان ، الذى هو من سلاطين أهل العرفان فى رسالته النيرة ، عامل لايكاد يعمل إلا لعلة ، وهو حينئذ كالعامل بأجرة قلت فهذا وصف العباد الذين لم يدخلوا فى عوالم الجبروت ، ولم يشهدوا حقائق اللاهوت ولم يذوقوا مذاق المقربين .

قال سيدى على الخواص : لا فرق بين عباد الأصنام وبين من يعبد الله لغرض فاسد فإن عابد الأصنام وعابد الله لغرض فاسد على سواء ، لأن كلا منهما اتخذ من دون الله آلهة لم يأذن بها الله تعالى ، وهم فى ذلك ، يعنى العباد، على طباق : فمنهم من يقصد بعلمه وعمله حصول المكانة فى صدور قلوب الناس وانتشار الجاه بالصيت ، ومنهم من يقصد علو الدرجات وظهور الكرامات، ومنهم من لايقصد شيئا من هذه الدنيا ، إنما يقصد الجنات والتمتع فيها وثواب الآخرة ، ومنهم من يقصد السلامة فى الناس ومنهم من يخاف شدة الحساب ، ومنهم من يقصد القرب من الله والرضا عنه والمحبة له ، ومنهم من يعبد الله امتثالا لأمره ، لاقصد له من عمله إلااستحقاق العبادة لمولاه . والتذلل له ، والخضوع أمامه ، والوقوف عند أمره ونهيه . قد تبرأ من الاعتماد على حوله وقوته ، وعلمه وعمله ، وقصده وإرادته ، فأتى بأعماله على وجه الإخلاص ، وهو خائف من الله تعالى لايرى أنه قام بذرة واحدة من الأمور التى كلف بها على الوجه الذى أمره الله به .

ومن هنا يترقى السالك فى مراتب إخلاص الخواص الذين كل ذرة منهم، أى من أعمالهم ، تعدل عبادة ألف سنة من عبادة تلك الأقسام السابقة . والله الموفق ، فالعبد حر من رق الأغيار لايذكر إلاالله بعمل إلاوهو فان عنه ، وهذا مقصد العارفين بالله قال الله تعالى : ولذكر الله أكبر .

قال الإمام البونى فى شمس معارفه الكبرى : وإن ذكر الله تعالى أكبر أنواع العبادات لحق على العبد ألا يشتغل بشىء غيره ، وإذا ذكر العبد ربه فليكن ذكراه امتثالا . لا لقصد دنيوى أو أخروى فقد قال بعض السلف الصالح : من ذكر الله لقصد دنيوى أو أخروى كان ذلك حظه من الذكر ، ومن ذكر الله تعبدا وامتثالا أعطاه الله تعالى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لقوله تعالى : من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فعلى العامل العارف أن يخلص أعماله بالله لله ، قال العارف بالله ورسوله شيخ شيخى مصطفى البكرى . رضى الله عنه : ووسم من أخلص كالخواص . ألا يرى لحالة الإخلاص .

ومعنى أن خرجت عنه أى عن عملك وذكرك . . . بكليته أعنى بكماله بحيث لاتترك فيه بقية لغير الباقى سبحانه وتعالى ... جال قلبك فى جبروته : أعنى جال فكرك الخارج من فؤادك وذهنك فى جبروته ، وهو علم حقيقة ذاته التى لاتدركها الحقائق ولا يفصح العارفون عن معانيها الدقائق والرقائق والله تعالى أعلم ، وفى توحيده أحكم .

الحكمة العاشرة

﴿ سبب الهموم والأحزان الاحتجاب عن رؤية الملك الديان . إذا رأيت فاعلا متصرفا فى كل مايريد ، فقد من عليك بأول جوهرة من جواهر التوحيد ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : سبب الهموم والأحزان الاحتجاب عن رؤية الملك الديان ، اعلم أن السبب قد يكون باطنا أو ظاهرا على حسب أحوال العباد ، والهم قوة سريانية ناشئة عن القلب تنفى عنه ماسوى ما اهتم به حالة التلبس بذلك ، وأكثر دليله على الشيء المستقبل .

قال الإمام على رضى الله عنه وكرم وجهه : أقوى ماخلق ربى ابن آدم ، وأقوى منه السكر الذى يزيل العقل ، وأقوى من السكر النوم ، وأقوى من النوم الهم ، فالهم أقوى خلق ربى ؛ وأما الغم فدليله ما كان حالا .

قال بعض العارفين بالله : العارف لايكون عليه غم أبدا ؛ والحزن أيضا قوة سريانية ناشئة عن القلب تنفى عنه ماسوى التحزن حالة تلبس الحزن بالقلب ، وأكثر دليله على الشيء الماضى ، فافهم المعنى ، تفز بعلم من آل المصطفى ، وكل هم وحزن يكون على المريد فسببه عدم مشاهدة الحقيقة الربانية .. والاحتجاب حائل ظلمانى كثيف من جهة العبد ، لا من جهة الرب سبحانه وتعالى ، فانه منزه عن ذلك فافهم . ومعنى « عن رؤية الملك الديان » إشارة إلى حقيقة رؤية الفعل منه تعالى من غير حجاب رؤية أفعال الخلق ، فإن من عرف الله حقيقة ارتاح قلبه برؤيته ، فلم يشهد فى الخير والشر فعلا لغيره تعالى . والملك اسم من أسماء الله تعالى داخل فى التسعة والتسعين اسما .

قال الإمام البونى رحمه الله تعالى فى معناه . هو الذى يتحقق له ملك كل شىء ، وينتهى إليه كل شىء ، ولا يكون ذلك إلا لله تعالى وقد احتوى ملكه على ثلاث عوالم : عالم ملك، وملكوت ، وجبروت ، كما جعل حروف الملك على ثلاثة : ميم ولام وكاف ، فالميم من كسر الأحد ودوائر الحروف وهو ظاهر الهاء لأن الله تعالى ، لما أبرز الهاء ، وهى حرف إحاطى فى ظاهر تشكيله وباطن استطالته إذ ليس له حقيقة تتلق عليه الحروف ، فخلق الميم وجعلها شكلا إحاطيا تتلق سرها فيالها بباطن التوحيد بسقوط العبادة، والميم ظاهر وخلق الله سبحانه وتعالى سرها الملكوتى وخلق من أجلها الكرسى لأنه أحاطه بصورة مناجاة الموجودات وخلق من نورها اللوح وخصه من الكلمة العليا وخلق منها كلمة الإحاطة على إطلاق الربوبية وخلق من السموات سر الربوبية وسر الإحاطة بسر الملكوت وخص أنواره لأن تعلقها بقائمة من قوائم العرش تخدمها علوم علوية مخصوصة باسمه الملك وحروف الميم وكذلك تكرر هذا الحرف فى اسم نبينا ثلاثة إثارات فان أنت قابلته بالملك قابلتك عوالم الملكوت وإن قابلته بالملكوت قابلتك أنوار الملكوت . فى العقول وهو آخر حرف ، وأما اللام وهو حرف أمد الله به عالم الجبروت وأنه لما ثقل حملة بأنوار الملكوت لم يجد من يتلقى منه فعند ذلك أبرز الله عالم الكاف من باطن اللام الذى يصرف بسكن فخلق الله منه عالم الملك بأسرار الجبروت .

انظر شمس المعارف الكبرى الجزء الرابع صفحة ٣١ .

الديان اسم من أسماء الله تعالى أيضا، لكنه خارج عن التسعة والتسعين اسما ومعناه الواهب العطايا لعباده من غير عوض أبدا ، ولنرجع إلى ما نحن بصدده من معانى الحكمة .

قال صاحب التنوير : ولو أن الحق سبحانه وتعالى تجلى لأهل النار بجماله وكماله لغيبهم ذلك عن إدراك العذاب .

وقال رضى الله عنه فى حكمه الشافية : فسبب العذاب وجود الحجاب .

وقال أيضا : ماتجده من الهموم والأحزان فلأجل مامنعت من وجود العيان .

واعلم أن الهموم والأحزان والأكدار والأفكار صولة تقع على القلب لسبب من الأسباب فتزعج القلب ، وتقبض السر ، وتظهر آثار ذلك فى العبد ، واعتبر فى الرجل الذى ضرب تسعة وتسعين صوتا فما صاح ولاتأوه ، فلما ضرب الواحد المكمل للمائة صاح ، وفى ذلك نظر العارفين ، لأن المحب العارف بمحبوبه لايشهده سواه ولا يعتبر إلا إياه .

هذا ، وقد قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى : النظر إلى وجه الكريم فى هذه الدار بالبصيرة ، وفى تلك الدار بالبصر ، فينبغى للسالك طريق المقربين ألا يشهد فاعلا فى الوجود غير الله ، والعارف لايكون عليه غم لأنه لايرى فاعلا سوى الله .

والرؤية على ثلاثة : رؤية تجلى الذات ، ورؤية تجلى الصفات ، ورؤية تجلى الأفعال ، فمن شهد وحده الأفعال لم يتكدر بشىء أبدا ولم يحزن من شىء أبدا ، قلت به :

أتحمق فى الأفعال من مشهد الورى ولا تشهد الفعال فى كل ماجرى
ألم تعلم الإنسان يعطاس مكرها ولم تنظر التثويب يأتيه بادرا

فان كنت تطلب وصولا به ، فلا تشهد الأفعال من الكل إلا بقدرته .

وقد قيل إنما قال أيوب عليه السلام « مسنى الضر » لأنه فقد لذة دودة سقطت منه ولم يقدر على ردها لعدم الأصابع .

وقد روى أن عروة بن الزبير رضى الله عنه قطعت رجله فى الصلاة فلم يشعر بها .

واعلم أيها الأخ المعتبر أن الأبرار سريرتهم تخاطبهم بالتفريط فى طاعة

الله تعالى كأنها تقول: ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله، والمقربون سريرتهم تخاطب ربهم ولا يشهدون خطابها لهم إلا منه وبه « إذا رأيته » أى الله « فاعلا » يعنى رأيت وحدة فعله « متصرفا » يعنى فى ملكه من خير أو شر فى كل مايريد « بإرادته القديمة » فقد من عليك بأول جوهرة من جواهر التوحيد وجواهر التوحيد أربع : جوهرة وحدة الأفعال ، وجوهرة وحدة الصفات ، وجوهرة وحدة الأسماء وجوهرة وحدة الذات ، فافهم ، والتوحيد ربط القلب بوحدة الرب فى رؤية الحق فى هذه الجواهر الأربع، ويختلف الأولياء فى ذلك كل منهم يذوق بحسب منحته الأزلية، فمن شرب من هذه الجواهر الأربع فأى جهة توجه إليها من الجهات الأربع غرف منها . فافهم أسرار توحيد الحال ، ولا تكن عنها فى ضلال . والله أعلم .

الحكمة الحادية عشرة

﴿ السلوك على توحيد الحال طريق المقربين لا الأبرار فمن سلكه على يد خبير عارف كان من أهل حضرة الله ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : السلوك هو الطريق الموصل إلى الله ملك الملوك وصاحبه يحتاج إلى معانى خمسة أحرف وتلك الأحرف هى خ ز ز ر س فالخاء خبير عارف بالله تعالى ، والزاى الأولى زاد وهو التقوى . قال الله تعالى : وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، والزاى الثانية زاملة وهى الهمة التى تسير بها إلى عين النعمة ، والراء الرفاق وهم الإخوان ، المساعدون على طاعة الرحمن ، والسين سلاح ترهب به النفس والشيطان ، وهو الأسماء ، واشتغال القلب بمعانيها فى كل حال وعلى كل حال ، فمن سافر لحضرة الله تعالى بهذه الخمسة نال السعادة الأبدية ، والنعمة السرمدية ، إذ أنها أصل السلوك فى طريق خاصة الأولياء وعامتهم وقولنا « على توحيد الحال » أردنا بذلك طريق خاصة الأولياء المقربين ، أهل الحضرة والتمكين ، والمشاهدة والتلوين .

والسلوك على توحيدهم هو الإفلاس ، والفناء وعدم الإحساس ، وتوجه القلب إليه بين العام والخاص . ورؤيته فى كل ذرة من ذرات وجوده من غير التباس ، والله يعصمنا من ملاحظة الناس ، فإن ذلك شرك فى طريق المقربين لا الأبرار ، فالمقربون سيرهم بالأرواح ، والأبرار سيرهم بالأشباح ، الأولون لا ينتهى سيرهم لأنهم مشاهدون للكمالات الإلهية ، وكمالات الله تعالى لا نهاية لها ، والآخرون ينتهى سيرهم لأنهم فى أطوار النفوس الثلاث فى طريقتنا القادرية بخلاف طريقتنا الخلوتية البكرية ، القائلة بأن النفوس سبع ، أمارة ولها من الذكر كلمة التوحيد ولوامة ولها من الذكر « الله » ، وملهمة ولها من الذكر « هو » ، ومطمئنة ولها من الذكر « حق » ، وراضية ولها

من الذكر «حى» ، ومرضية ولها من الذكر «قيوم» ، وكاملة ولها من الذكر «قهار» وكلها نفس واحدة وإنما تختلف باختلاف أحوالها ، ومرادنا تبين طريقتنا القادرية على النفوس الثلاث : اللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة .

لكن اعلم أولا أن نفسك هى عدوك الأكبر . قال صلى الله عليه وسلم فى حقها : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وقال صلى الله عليه وسلم : أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك ولا يقدر الشيطان اللعين أن يدخل على المريد إلا بواسطتها ، فكن منها على حذر ، ولا تساعدها ، ولا تنتصر لها ، إذا آذاها أحد ، بل كن له معينا عليها كما قال ذلك صاحب سير الملوك حتى تصير بعد الظلمة نورانية .

قال الشيخ رضى الله عنه ، فى النفس اللوامة : فسيرها لله ، وعالمها عالم البرزخ ، ومحلها القلب ، وحالها المحبة ، ووردها الطريقة ، وصفاتها اللوم والفكر والعجب والاعتراض على الخلق ، والرياء الخفى ، وحب الشهرة ، والرئاسة ، وقد يكون فيها بعض صفات النفس الأمارة بالسوء،وترى الحق حقا ، والباطل باطلا ، وتعلم أن هذه الصفات مذمومة ، وترغب فى المجاهدة وموافقة الشرع ، ولها أعمال صالحة من قيام ، وصيام ، وصلاة ، وغير ذلك من أعمال البر ، فيحب صاحب هذه النفس أن يطلع الناس على ماهو عليه من الأعمال الصالحة مع أنه يخفيها عنهم ، ولا يعمل لهم بل عمله لله تعالى ، إنه يحب أن يحمد ويثنى عليه ، ويكره كل خصلة مذمومة كامنة فى قلبه .

قلت : ولا يمكن الخلاص من تلك الخصال القبيحة إلا بالإكثار من لا إله إلا الله ليلا ونهارا فإنه يتخلص من ذلك ، وتصير نفسه ملهمة ببركة هذه الكلمة الشريفة ويكون سيرها على الله ، بعد ما كان سيرها لله ، ومعنى على الله ، أن السالك لا يقع نظره فى هذا المقام إلا على الله لظهور الحقيقة

الإيمانية على باطنه ، وفناء ماسوى الله تعالى من شهوده ، ويصير من أهل توحيد الحال ، وعالم هذه النفس عالم الغيب ومحلها الروح ، وحالها العشق وواردها المعرفة بالله ، وصفاتها الحب والسخاء والقناعة ، والعلم والتواضع والصبر والحلم وتحمل الأذى والعفو عن الناس ، وحملهم على الصلاح ، وقبول عذرهم ، وشهود أن الله آخذ بناصية كل دابة ، وأن بيده مقاليد السموات والأرض فلا فاعل سواه ، فلم يبق له اعتراض على مخلوق أبدا ، فليس له اشتغال إلا بالحق .

ومن صفاتها الشوق والهيمان أى جولان القلب ، والبكاء ، والقلق ، والاعراض عن الخلق ، والاشتغال بالحق ، والتلوين ، وتعاقب القبض والبسط ، وعدم الخوف والرجاء ، وحب الأصوات الحسنة ، وزيادة الهيمان عند سماعها ، وحب الذكر ، وبشاشة الوجه ، والفرح بالله تعالى ، والتكلم بالحكم والمعارف ، والمشاهدة ، فهذه صفات النفس الملهمة ، وسميت ملهمة لأن الحق ألهمها فجورها وتقواها .

قال بعض العارفين بالله : ما كشف لعبد بكشف أكمل من كشفه له عن حقيقة نفسه ، وتسمع هذه النفس الملهمة بآلة وبغير آلة أى بواسطة وغير واسطة ، لأنها صارت نورانية ببركة الذكر ، ولا يخرج صاحبها من ظلمة الشبهات إلا بالمسلك لأنه ترد عليه معارف لايفك طلسمها إلا الشيخ العارف بها وبتجلياتها ، ولا يفرق بين الجلال والجمال ، ولا بين إلقاء الملك وبين إلقاء الشيطان لأنه لم يخلص من الطبيعة بالكلية بعد ، وذكره الجاذب الخاص له هو الاكثار من اسم الذات ليلا ونهارا حتى ينتقل إلى مقام النفس المطمئنة الراضية المرضية الكاملة الزكية المحمدية وهو مقام حق اليقين ، وهذه النفس الزكية الكاملة سيرها مع الله ، فى الله ، عن الله ، بالله ، وعالمها الحقيقة المحمدية وعالم اللاهوت ، وعالم الوحدة فى الكثرة والكثرة فى الوحدة ، ولها جزء فى عالم الشهادة لكمال العبودية ، وحالها المطمئنة والراضية المرضية ، ولها الفناء الذى فيه محو الصفات البشرية ، والخفاء ،

ووأردها الشريعة والطريقة وكمال الحقيقة،وصفاتها جميع الأوصاف الحسنة ومحلها السر وسر السر ، ومقامها البقاء بالله تعالى .

واعلم أن من بعض صفاتها الجود والتوكل والحلم والعبادة والشكر والرضا بالقضاء والصبر على البلاء ولا يلتفت صاحبها إلاإلى التخلق بأخلاق المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ولا تطمئن نفسه إلا باتباع الشريعة لأنه فى مقام التمكين ، وإذا تكلم طول الدهر لايمل مؤمن بالله من كلامه ، وهو مطابق لما قاله الله ورسوله من غير مطالعة فى كتاب ولا من سماع من أحد لأنه يسمع بغير آلة حاسة مايلقيه الله فى سره : أنا سرك أيها الحبيب وأنت سرى : فاطمأن ماكان فيه من الاضطراب ، وغرق فى بحر الحياة والآداب ، ولزمته الخشية والهيبة وخلعت عليه الخلافة الكبرى والوقار والقبول ، وظهرت له حقيقة الكون، وعلم معنى قوله تعالى : كل من عليها فان،لأن الله وهبه من علم الصدور،لا من علم السطور ، واشتغاله فى هذا المقام بالاسم الثالث ، وهو اسمه تعالى « هو » بياء النداء ، ليلا ونهارا ، مدة ، وهو اسم ناطق من اسم الذات . ثم بالتجريد حتى تحصل له جذبة الكمال ، وينادى على نفسه بلسان سر السر : ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى ـ المطمئنة : بتنفيذ أحكام الله فى خلقه ، راضية بمراده ، مرضية يعنى راضيا عنها مولاها . وحقيقة مقامها البقاء بذات الله لابذاتها ، مصداق قوله عليه الصلاة والسلام : اللهم أرنا الأشياء كما هى .

ومعرفتها هى المعرفة التى لايقابلها الجهل ، وخلقها كنت سمعه الذى يسمع به : الحديث بكماله ، وتحققها العبودية المحضة : من عرف نفسه بالذل والفناء عرف ربه بالعز والبقاء ، ليس له مطلب من الأجر سواه ، حركاته حسنات وأنفاسه قدرة وحكمة والله أعلم بحكمه .

الحكمة الثانية عشرة

﴿ الهداية فضله ، والضلالة عدله،فماذا تقول ، ياجهول ، سلم الأمر إليه فى أحكامه ، تشرب من رحيق أعلامه ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ .

(ش) قلت به عنه ، ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى الحسنة : الهداية على مراتب الدين الثلاث ، الإسلام والإيمان والإحسان ، ويتفاوت فى ذلك عباده على حسب المنح الإلهية « فضله » يعنى المتفضل به من باب كرمه وجوده ، « والضلالة » كالكفر والنفاق والشرك الخفى وكل معصية من المعاصى « عدله » .

فماذا تقول ياجهول ياجاهلا بلطائف التوحيد، ومعارف التمجيد وأسرار التصعيد ، وأنوار التفريد ، ومشاهدة الواحد الرشيد « سلم الأمر إليه فى أحكامه إن كنت تطلب الوصول إليه » . « فى احكامه » ، وأعنى بذلك العشرة الكاشفة لعين قدرته وإرادته وهى الإيجاد ، والإعدام ، ويشملان الأقوال والأفعال وغير ذلك مما يقال ومما لايقال ، والرزق . والإحياء والإماتة ، والإعزاز ، والإذلال ، والإغناء والإفقار ، وكلها من أسماء الجبار ، قال الماتريدى رضى الله عنه :

صفات الذات والأفعال طرا قديمات مصونات الزوال

معناه : أن صفات الأفعال إن نسبتها إلى القديم قديمة ، وإن نسبت إلى الحوادث حادثة ، على ماقاله الأشعرى رضى الله عنه .

وقال العارف بربه المشاهد لقربه ، تعالى ، سيدى الشيخ زروق رضى الله عنه : علم الحقيقة أحكام القدرة والإرادة « تشرب من رحيق أعلامه » معناها تشرب بقلبك وقالبك من ألذ العلوم وأعلاها ، وهو علم الحقيقة ، المغنى لصاحبه من مشاهدة الخليقة ، الجاذب لحضرة المعانى الرقيقة، والمعارف

الدقيقة ، وهو العلم بالله تعالى ، لا العلم بأحكام الله . فإن العلم بأحكام الله له حد ينتهى إليه ، والعلم بالله تعالى لاحد له ينتهى عنده ، فإن ربنا كل يوم هو فى شأن ، وصاحبه كل يوم هو فى إحسان ، لما يرد على باطنه من تجليات الحق سبحانه وتعالى ، مما يدلك على شرف توحيد الحال .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له بعض أصحابه: أى الأعمال أفضل يارسول الله ، فقال : العلم بالله عز وجل . قيل يارسول الله نسأل عن العمل فتجيب عن العلم . فقال : إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لاينفع مع الجهل بالله . فمن لم يصل إلى العلم بالله ، فعليه بالعلم بأحكام الله تعالى .

وروى عن الغوث الأعظم أنه قال : رأيت الرب تبارك وتعالى فقال لى ياغوث الأعظم : من سألنى عن الرؤية بعد العلم فهو محجوب ، ومن ظن أن الرؤية غير العلم فهو مغرور برؤية الرب ، والمعنى بالعلم هنا هو العلم بالله المتلاشية فيه مخلوقات الله كلها من معدوم وموجود بالنسبة لذات المعبود . افهم تغنم .

قال الشيخ العارف بالله تعالى العيدروس رضى الله عنه : لو أن جميع الأدلة العقلية والنقلية تظهر للإنسان لاتفيده شيئا مالم تحل فى قلبه عناية الله تعالى ، فالعلم بالله هو الجاذب لحضرة الله تعالى ومفتاحه الذى يفتح به هو الفكرة فى جريان القدرة ، والتسليم لله تعالى فى أحكامه المتقدمة .

قال العيدروس رحمه الله تعالى : أفعال الله كلها حسنة لأنها إما عدل أو فضل ، وكل مافى الوجود فعله ، مع أنه حرم الفواحش فسلم ولا تناقش « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » أى فليبادر المبادرون فى ذلك أى فى الفناء فى الله عن ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم ، فمن لم يدخل بحر الفناء فى معارف المولى ، فلا عبرة بولايته عند المقربين ، أهل المشاهدة واليقين ، الخارجين من الشرك الخفى ، الناظرين إليه فى كل شىء ، والله أعلم .

الحكمة الثالثة عشرة

﴿ إذا أخرجك من شركك به فى وحدة الأفعال ، أدخلك بحر التسليم، وأسقاك من كئوس الوصال ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : إذا أخرجك الحق سبحانه وتعالى من حجاب الظلمة إلى نور الوحدة ، والخروج ضد الدخول . . . . . « من شركك له فى وحدة الأفعال » . . . أى من بعض شركك ، على حذف المضاف ، وهو « بعض » لأن الشرك الخفى يكون فى الذات والصفات والأفعال ، والشرك فى الفعل ماهو إلا شعبة واحدة من شعب الشرك .

قال سيدى رسلان الدمشقى رحمه الله : كلك شرك خفى ، يعنى فى ذاتك وصفاتك ، وأفعالك . وشرك الفعل هو التعلق بالأسباب والاستناد عليها دون الله عز وجل ، وهو شرك لأن من كان فاعلا بغيره ، فهو غير فاعل فى عين فعله .

واعلم يا أخى أن وحدة الأفعال أقسى وأصعب من غيرها ، وأن كانت أدنى فى المقام من وحدة الذات والصفات ، وهى مزلقة الأقدام عند العارفين ، لأن الإنسان لجهله يرى الأفعال من الخلق ، فيحجب برؤية فعلهم عن رؤية فعل الحق سبحانه وتعالى ، ومن رأى لنفسه أو لغيره فعلا غير فعل الله فقد أشرك به فى وحدة فعله ، ومن ثبت قدمه فى مشهد : لا فاعل إلا الله تعالى ، وصل بفضل الله ورحمته ـ إلى ما بعده وهو توحيد الصفات فالذات .

وقد ورد عن الإمام أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : إن الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل . قال قلت يارسول الله وهل الشرك إلا ماعبد من دون الله تعالى؟قال : ياصديق الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل .

قال بعض العارفين بالله في معنى ذلك : الشرك أن تقول أعطانى الله وفلان ، ولولا فلان لقتلنى فلان ، فمن أكثر من مشاهدة وحدة الأفعال والمداومة عليها كان واصلا متصلا . قال الشيخ مصطفى البكرى :

شهودك الفعل من الفعال	فى كل شىء وحدة الأفعال
متى تحققت به ، صفى ،	تنجو إذن من شركك الخفى
ومن رياء ، ثم داء العجب	ومن شهود حاجب وحجب
وكلما خرجت عنك اتضحا	ووجدك الوجود ، ياهذا ، انمحى
تفك من أسر العبادات التى	فى العين كانت منك قبل لذت
حتى طلبت بعدها الأجورا	ولم تخف تمسى بها مهجورا
فكن مع المنة ، لا المجاهدة	تبلغ غب هـذه المشاهدة
وفيه قد يخشى على ذى السير	فلا تكن ملتفتا للغير
وفيـه لذة يذوقها الفتى	حتى يغيب عنه من أمر أتى
وذا يسمى الموت الاختيارى	فمت به من قبل الاضطرارى
موتوا قبيل الموت ثم حاسبوا	نفوسكم من قبل أن تحاسبوا
يدعونه بالجنـة المعجلة	لأنه يدنيك للمؤجـلة
دليـله ومارميت فافهم	وإن شهدت سره به هم
واجل عن القلب به الغيوما	واشهد بنور كشفه القيوما
وكنه حالا لا تكنه قالا	فالقـال لايبلغك الآمالا

هذا ما ذكره فى توحيد الأفعال الأستاذ المتقدم رضى الله عنه ، وقيل أنه للشيخ محمد المهدى من أتباعنا والحق أنه لشيخ شيخى أى مصطفى البكرى .

ومعنى « أدخلك بحر التسليم » . . أدخلك الحق سبحانه وتعالى لجة بحر التسليم وهو البحر الذى لايحيط به الا علم الله تعالى . قال سلطان أهل العرفان ، الشيخ رسلان فى رسالته : أن سلمت إليه قربك .

قال الشيخ حجازى فى شرحه عليها : إن سلمت إليه أمرك ، وتركت تدبير نفسك اعتمادا عليه ، قربك بنظره إليك بعين العناية والرحمة كما فعل مع الخليل عليه السلام حين وضع فى المنجنيق وأرادوا رميه فى النار فقد قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة قال : أما إليك فلا ، وأما إلى ربى فبلى . قال اسأله . قال : حسبى من سؤالى ، علمه بحالى . فلما سلم أمره إليه ، وتوكل عليه ، جعل النار بردا وسلاما عليه وهى نار فى أعين الناظرين . فالقرب من الله تعالى هو العلم بقربه منك . بالعلم والسمع والبصر .

قال صاحب الحكم : قربك منه أن تكون شاهدا لقربه وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ، وهو قريب من قوله : وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به ، وإلا جل ربنا أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء . فقربه قرب حب ولطافة لاقرب قطع مسافة . كما قال فى الحكم : لامسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولاقطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك . واعلم أن التسليم باب الله الأعظم وسبب القرب من الله العظيم.عليك أيها السالك به.

قال العارف بالله ورسوله الشيخ إدريس بن الشيخ الارباب : اسلم السلامة فى التسليم أن لاتلوم نفسك أو غيرك .

وورد فى حديث قدسى : سلم وجودك لى فانك لى ، ولا تدبر معى فانك منى . وقيل كان الشيخ خوجلى - رضى الله عنه يقول : سلم تسلم . فعليك بترك المنازعة له بعد ماعرفت مامضى ، فان المنازعة له تعب وشرك .

قال سيدى رسلان رحمه الله : وإن نازعته أتعبك ، قال الشيخ حجازى ابن المصرى رضى الله عنه : إن نازعته ، بأن لم ترض بقضائه ، ودبرت

لنفسك بأن تقول أفعل كذا ليكون كذا ، أو لو لم يكن كذا ، لما كان كذا ، أتعبك سبحانه وتعالى فى تدبير نفسك ، ووكلك إليها ، ولم يتول عنايتك ، لأنك لم تقبل نصحه لك ، ولم تثق به مع قوله لك ولكل أحد فى كتابه « ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وأنت من جملة هؤلاء . قال فى الحكم : أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك فإن دعوى التدبير لاتتحملها إلا الربوبية وليس تقوى عليها صفة البشرية قال فى « التنوير فى إسقاط التدبير » : إن كان ولابد من التدبير فدبر ولا تدبير أى أعرض عن التدبير فمتى سلمت إليه الأمر ، وحققت منه الفعل ، قربك إليه فصرت موحدا به لديه .

ومعنى أسقاك فى كؤوس الوصال أذاقك شربة من شراب الحقيقة فوصلت بتلك الشربة إليه قال سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه فى الشراب فى حضرة الوهاب :

وعندى منها نشوة قبل نشأتى ... معى أبدا تبقى وإن بلى العظم

قلت فى ذلك المعنى :

فلما سقى قلبى شراب الحقيقة ... تلاشى وجودى عن شهود الخليقة
سكرت به لما تجلى بحانه ... فغيبت عنى فى مجال الهوية

فمن أذاقه الله شربة من حقيقة الحق ، فى ميدان تحقيق وحدة فعل الحق ، كان من أرباب الأحوال الصادقة ، والأسرار الخارقة ، والأنوار الشارقة ، والله أعلم .

الحكمة الرابعة عشرة

﴿ إن أردت أن تحظى بطيب وصاله ، أرح نفسك أى فؤادك من شهود فعل غيره ، تكن مخلصا به له لابك له ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى المحكمة: إن أردت أيها المريد ، الطالب المزيد ، من حضرة المجيد « أن تحظى » أى تكرم منه تعالى « بطيب » ، أى بطيب القلب ، وهو خلوه عن شهود ماسوى الرب « وصاله » النافى لملاحظة غيره ، والمثبت لمشاهدة وحدة فعله : « أرح فؤادك » أعنى قلبك الذى يسمع مالا يسمعه غيره من جماله وجلاله وكماله .

« من شهود فعل غيره » فاذا فعلت ذلك تحققت بوحدة الأفعال التى هى شعبة واحدة من شعب التوحيد الثلاث . والمقصود من هذه الحكمة رؤية فعل الحق من غير رؤية أفعال الخلق « فعل غيره » أى ماسواه من الأغيار « المكون » لها سبحانه وتعالى بيده من غير استعانة على ذلك . . « تكن » أعنى بتكوين منه تعالى بعد أن أرحت قلبك وقالبك من رؤية الأفعال من الخلق ، لأن هذا التوحيد قيل فيه إنه من الأعمال الكسبية ، فمن لازمه بالجد والاجتهاد ألفته روحه ، وكانت وحدة الأفعال نصب عينيه . والأصح أنه وهبي كسبي بالنظر لأهل الجزء الاختيارى الذين يشهدون لهم اختيارات من أنفسهم فى الفعل والترك بمقارنة القدرة القديمة وهم أهل البدايات فى السلوك .

قال أستاذى الشيخ محمد السمان رضى الله عنه : شاهد كى تفوز بما به فزنا ، فالحبيب يسارع . ومعنى « مخلصا به له » أعنى مخلصا بالله لله فى أعمالك، لابك له فيها كما عليه أكثر الصوفية والمتعبدين من أهل الظاهر الذين لم يشهدوا أفعالهم فى العبادات كلها أنها من الله تعالى . وأما حقيقة الإخلاص

عند أهل الاختصاص فهو تخليص القلب من الكون بإيثار المكون ، ورفع الحجاب الناشىء من انطباع الصور الكونية فى القلب ، المانعة لتجلى الحق فى قلب السالك حتى لايرى قيام الخلق بالحق ، ولايشهد الوحدة فى الكثرة والكثرة فى الوحدة ، فعليك بتوجيه القلب بجميع قواه الروحانية إلى الحق لحصول الكمال ، فان لم تكن كما ذكرنا ، فانك محجوب عن الله تعالى بسبعين حجابا ، والحجب السبعون على النفوس السبع : الأمارة ، واللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية ، والمرضية ، والكاملة ، ويسمى القلب فى كل مرتبة من هذه المراتب ، بهذه الأسامى ، لأنه متقلب فيها ، متردد عليها ؛ وكل نفس من النفوس السبع لها عشرة حجب ، والنفس الأولى الأمارة حجبها العشرة ظلمانية .

واعلم أن القلب هو الروح الأعظم لاقطعة اللحم التى فى سائر الحيوانات . قال صاحب سير السلوك : القلب كالمرآة ، فمتى كانت صافية عن الصدأ والكدر يشاهد الإنسان فيها الأشياء ، وإذا غلب عليها الصدأ ، ولم يكن لها مايحميها ويدفع الصدأ عنها ، تمكن الصدأ ، وغاص فى جوهرها ، وصار بحيث لايقدر الإنسان على إزالته . أشار صلى الله عليه وسلم لهذا بقوله: إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد . قيل يارسول الله ، وماجلاؤها ؟ قال ذكر الموت وتلاوة القرآن ؛ وفى رواية : الذكر وتلاوة القرآن .

وروى الغزالى فى مختصر الإحياء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود ومنكوس فذلك قلب الكافر ، وقلب أغلف ومربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فذلك قلب السالك ، فالمراد من القلب الأول قلب المؤمن الكامل العارف ، والمراد من القلب الرابع قلب السالك حالة سلوكه ، فان تبع الشهوات ومال إلى المخالفات هلك وبقى فى سجن الطبيعة ، ومتى كان القلب متوجها إلى عالم الغيب عمل على كشف

الحجب المذكورة شيئا فشيئا، فذهبت عنه الكدرات الحاصلة له من العاصين وكثرة الشهوات ، واستعد للتجليات ، وانتقشت فيه حقائق الأشياء ، فان لم يبق فيه شيء من الشهوات وصل إلى مطلوبه ولم يبق بينه وبين الله حجاب .

ويروى الغزالى فى الاحياء أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أين الله فى الأرض ؟ قال فى قلوب العارفين : وأنه قال تعالى : لم يسعنى أرضى ولاسمائى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الورع . ووسع هنا ليست بمعنى حل فيه لأن هذا محال . وقال الإمام رضى الله عنه : رأى قلبي ربى .

وروى عن الشيخ عبد القادر رضى الله عنه أنه كان يقول : رأيت ربى بعين قلبي ، فقلت لاشك أنت أنت . فمن أراد الوصول إلى هذه السعادة فليرح فؤاده من شهود فاعل غير الله . فعند ذلك تنكشف عنه الحجب الظلمانية والنورانية ولا يرى مع الله سواه .

الحكمة الخامسة عشرة

﴿ توحيد الأفعال لايثبت فى سكره إلا كمل الرجال إذا حصل لك فيه الفناء عن الأنام ، كن رجلا جامعا تابعا لشرع من ظلله الغمام ﴾ .

(ش) قلت به غنه ، ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : توحيد الأفعال هو توحيد الخواص من العباد ، وخواص الخواص لهم توحيد الصفات ، وخواص خواص الخواص لهم توحيد الذات . ولايثبت للولى السالك طريق المقربين قدم على التوحيدين المتأخرين إلا إذا أحكم شهود وحدة الأفعال وتلاشى فكره فيها بمشاهدته أن لافاعل إلا الله تعالى ، شهودا ذوقيا ، معه حب شوقى ، لاعلمى ولا رقمى .

ورد فى الحديث : مااتخذ الله وليا جاهلا قط ولو اتخذه لعلمه ، أى لعلمه — هبة منه — بمعرفته الكاملة فيصير وليا له تعالى .

وقد وقع لى عن الأستاذ ، العارف الصمدانى ، والغوث الرحمانى ، سيدى وأستاذى محمد السمان ، رحمه الله تعالى ، واقعة فى هذا العلم الخفى . وذلك أنه لقننى توحيد الأفعال وأمرنى بالفكرة فى كل حال ، وبشرنى أن مابعده يأتيى من حضرة ذى الجلال ، فكان الأمر كما قال . وقد وقفت ذات يوم بين يديه ، فمد رقبته وقال لى : ههنا علوم لو بثثتها لقطع هذا الحلقوم . ولم يكن معنا إنسان ، ثم قال لى هذا البيت :

هذا الوجود وإن تعدد ظاهرا　　　وحياتكم مافيه إلا أنتمو

أشار فيه إلى محو الاثنينية وثبوت الواحدية فى الفعل ، واعلم أن هذا التوحيد أول مشارب العارفين .

«لايثبت» لايستقيم على الأوامر والنواهى الشرعية «فى سكره»

الذى يؤدى إلى تعدى الحدود المحدودة من الله ، إلا كمل الرجال ، وهم الذين ظاهرهم شريعة ، وباطنهم حقيقة . فمن سكر فى توحيد الخواص ولو عمر ساعة ، يرى الدهر عبدا طائعا وله الحكم ، لكن سكرته صعبة المراس . قد تؤدى إلى تعدى حدود الله ، لأن صاحبها لايشهد لنفسه ، ولا لغيره ، فعلا فيتعدى بذلك الحدود . وعند علماء الحقيقة لا إثم عليه إذاكان التعدى مقتضى حقيقة السكر الموجب للفناء . شاهد ذلك قول أبى مدين الغوث رحمه الله تعالى :

فلا تلم السكران فى حال سكره　　فقد رفع التكليف فى سكرنا عنا

واعلم أن من دخل هذه الحضرة فلا بد له ، ولا محال ، من الحال ، لكن الذى يغلب الحال ، ولا يتعدى اتباع الأوامر ، واجتناب النواهى ، أكمل من الأول ، وإن كان حضورهما فى الحضرة واحدا . قال بعض العارفين بالله :

وما أنا ممن يملك الحال قلبه　　ولكنما الأحوال تصدرعن قلبى

يعنى : ماأنا ناقص يملكنى الحال فأتعدى حدود الله ، لكن الذى يخرج من فمى يحققه الناظر فى أمرى أنه خرج من حال ، وقد قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ماكان فيك ، ظهر على فيك . وفى ذلك القول نظر دقيق فى العام والخاص . فاذا تحقق السالك بمشاهدة هذا التوحيد خرج من الشرك الخفى جميعه ، وقطع شجرته من أصلها ، وتلك هى الجنة المعجلة التى يرى فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وذلك بعد السكر من خمرة الحضرة العلية فيسلم قلبه ، من شهود مابه ، ويصير بيتا من بيوت الملك الديان ، فلا يشهد سواه ولا يرى فى الكون إلا حسنا وكمالا ، قال بعض العارفين بالله :

إذا مارأيت الله فى الكل فاعلا　　رأيت جميع الكائنات ملاحا

وقال سيدى ابن عطاء الله فى بعض مواهبه : ومتى شهدت سواه ، فاعلم أنه من فهمك الأدنى وقلبك ذاهل عن ميدان هذه الفكرة . والاعتبار عظيم الشأن ، عند العارفين بالرحمن . قال سيدى أبو القاسم : أشرف المجالس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ، وقال سيدى زروق : الميدان هو محل مجرى الخيل وجولانها ، وعند أهل برنا محل العرضة ووصف العارفون الفكرة بذلك لعدم دوامها فى القلب لأن حضرة الله غالبة لايطيق مخلوق الثبات عليها إلا فى نوادر العارفين أهل القدم المحمدى والنور الأحمدى ، وقد قيل عنه عليه الصلاة والسلام إنه كان لايغفل عن مشاهدة الله حتى فى مزحه مع الصبيان والعجائز، فمن رزقه الله كمال اليقين لايغفل عن مشاهدة رب العالمين . قال سيدى محى الدين بن العربى فى حكمه : من غفل أفل، فمن كان عالما بوحدة الأفعال ، ودخل الحضرة بها ، ثبت فيما بعدها على الشهود الصفاتى والذاتى باذن الله تعالى . قال سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :

تنقل إلى حق اليقين تنزها   عن النقل والعقل الذى هو قاطع

يعنى بالعقل هنا العقل الجسمانى الظلمانى ، لا الروحانى النورانى الذى تتم المعارف به . ويعنى بالنقل ماينقلك من معاينة حضرة الوحدانية إلى الاشتهاء بغيرها من وعد ووعيد ، ونهى وأمر ، وقصص وأخبار ، فان ذلك كله أغيار ومقصود العارف الحضور بالله ، مع الله ، فى الله - فافهم .

ومعنى قولنا إذا حصل لك الفناء عن الانام ، إذا حصل لك أيها السالك طريق العارفين بالله . « فيه » أى التوحيد المتقدم ذكره . « الفناء » وهو فراغ القلب عما سوى الله والاندهاش فى كبريائه - « الانام » كل ماسوى الملك العلام .. « كن رجلا جامعا تابعا لشرع من ظلله الغمام » كن أيها السالك طريق الخواص « رجلا » ، وحقيقة الرجل من كمل عقله . « جامعا » بين البحرين اللذين هما بحرا الباطن والظاهر ، تابعا « لشرع » النبى الكريم والرسول العظيم عليه من الله أتم الصلاة والتسليم ؛ وحقيقة العارف بالله

التابع لشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطى الشريعة حقها ، وهو اتباع الأوامر واجتناب النواهى .

فقد قال صلى الله عليه وسلم : خير من ذكر الله باللسان ذكره عند أوامره ونواهيه ، فان الذى دعاك لحضرته هو الذى نهاك عن مخالفته ، ويعطى الحقيقة حقها،وهو ألا يشاهد سوى الله فاعلا،ولا حيا،ولاموجودا فان غلب عليه الحال فى وحدة الأفعال ، وفنى وشهد أن المخلوقات كلها أقلام الله وعلم أن القلم لايفعل فى الكاغد أوغيره إلا بالكاتب ، وشهد أن لاتأثير لشىء من الكائنات فى أثر ما ، وشاهد نفسه من جملة هذه الكائنات ، وعلم علم يقين أن لاتأثير له فى قول ، ولافعل ، ولا حركة ، ولاسكون ، ولاغير ذلك إلا بالله ، صار فردا من أفراد الوجود .

قال بعض العارفين بالله تعالى : « الشهود فيك أتم من غيرك » فاذا حصل للمرء جميع ماذكرنا ، وكان من الكاملين ، كانت الشريعة مقاله ، والحقيقة حاله ، لقوله عليه الصلاة والسلام : الشريعة مقالى ، والطريقة أفعالى ، والحقيقة حالى . ونظر توحيد الخواص حض على أهل توحيد الظاهر إلا من فتح الله فيه عين اليقظة والبصيرة ، وأشهده وأذاقه من مذاق العارفين بالله،فالحجب على قلوبهم متراكمة،ومن تعلم منهم ذلك كان أمره فيه اعتقاديا، والاعتقاد عند القوم لايفيد إلابدوام الحضور فىذلك المعنى المتقدم ذكره .

والمعنى بـ « من ظلله الغمام » سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، واكتفينا بتظليل الغمام له صلى الله عليه وسلم عن باقى معجزاته ، فانمعجزاته صلى الله عليه وسلم كثيرة ، إظلال الغمام من بعضها ، فقد ظللته الغمام،وباضت لديه الحمامة ، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة يوم الحديبية فسقى ألفا وأربعمائة من الرجال ، من غير مامعهم من الخيول والجمال ، ومن بعض معجزاته وأعظمها منة عندنا ماذكره شارح ياقوتة التوحيد حيث قال : « تنبيه وبشارة » رأيت العارف بالله تعالى سيدى عبد الرحمن بن حميد له

فى كتاب الحدائق فى أثناء قصيدته الواوية مايشهد بإيمان عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن الله أحياه له وآمن به ، كما أحيا أبويه المكرمين قال :

وأقسم أن الله أحيا له أبا   آمنة المـــدفونة بالابوا
وأحيا له عما له كان كافلا   وكل بعون الله قد قبل الدعوى

وقال الشيخ السيوطى : نقلت من مجموع بخط الشيخ كمال الدين الشمنى والد الشيخ تقى الدين مانصه : سئل الشيخ أبو بكر بن العربى عن رجل قال إن أبوى النبى صلى الله عليه وسلم فى النار فأجاب بانه ملعون : إن الله تعالى قال : إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذابا مهينا ، ولا أذى أشد من أن يقال إن أبويه فى النار .

وقال صلى الله عليه وسلم إن الله قال لى : يامحمد ماخلقت أحب إلى ، ولا أكرم على منك ، بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك أثيب ، وبك أعاقب ، فكيف يظن أحد مثل هذا الظن بأبوى من قال الله له كذا . فافهم بعض معجزاته عليه الصلاة والسلام .

الحكمة السادسة عشرة

﴿ المعرفة بالله من الله أن تشهد الله كأنك تراه ﴾

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : المعرفة هى الجزم المطابق للحق ، لا الباطل ، عن دليل . والحق هو الله والباطل كل ماسواه ، ومرجع ذلك إلى نفس الوجود الحقيق ، لا الوهمى ، والمقصود من المعرفة هنا ، المعرفة الكاملة الإحسانية لا المعرفة الإسلامية أو الإيمانية ، فمن أعظم فضل الله على عبده ، أن يعرفه بأكمل معرفته ، فإنها مختلفة باختلاف مراتب الدين الثلاث دنيا . . ووسطى . . وعليا .

قال صاحب سير السلوك إلى ملك الملوك : المراتب ثلاث : الإسلام والإيمان والإحسان ، فالإسلام أول مراتب الدين لعامة المؤمنين ، ثم الإيمان أول مدارج القلب لخاصة المؤمنين ، ثم الإحسان ، أول معارج الروح لخاصة المقربين ، ومعرفة كل فرد بالله بحسب مرتبته ، فافهم . ومبنى هذه الحكمة على أعلى المعرفة وهو مقام الإحسان .

وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فى الحديث المشهور الذى رواه عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ولايعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه إلى فخذيه ، وقال يامحمد: أخبرنى عن الإسلام . فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان . وتحج بيت الله الحرام إن استطعت إليه سبيلا ، قال: صدقت فعجبنا منه كيف يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان . قال : أن تؤمن بالله وملائكته

وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، قال صدقت،قال:فأخبرنى ما الإحسان فقال:أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ، قال: صدقت . . فقال صلى الله عليه وسلم ياعمر : أتدرى من السائل . قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : ذلك جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم أمر دينكم .

قلت : ومعنى إن لم تكن تراه ، أى إن لم تكن فى المرتبة الاحسانية فانه يراك ببصره القديم القائم بذاته ، المتعلق بجميع مخلوقاته الموجودات ، يرى ذاتك وما فيها ظاهرا وباطنا ، حتى شعرك شعرة شعرة بالتفصيل ، ويرى ماهو أدق من ذلك منك ، وأنت لاتراه ، لاترى ذاته . ولكن صاحب وحدة الأفعال يرى ضربا من ضروب الذات يسر أن تشهد الله كأنك تراه . واعلم يا أخى أن المراقبة لله من حيث نظاره إليك كسبية ، والشهود وهبى ، والمشاهدة بينهما ، والمحبة ثمرة لكل منهما .

فالمحب لاينوم والعارف لايلوم ، والشهود لايدوم . فالولى تارة يشهد ربه ، ولا يشهد معه فاعلا ، وتارة يجهله فيشهد الأفعال من الخلق فيما يكون بينه وبينهم من الأقوال والأفعال ، ويكون شهوده لربه على قدر معرفته الحقيقة بالله تعالى ، فاعرف نفسك واعزلها عن الشرك به تعالى ، تعرفه . قال صلى الله عليه وسلم : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، أى من عرف نفسه بألا تأثير لها فى فعل عرف ربه الحى ومن عرف نفسه بأنها معدومة بالنسبة إلى وجوده عرف الله بأنه هو الموجود الواجب الوجود لذاته ، روى عن الشيخ عبد القادر الجيلى أنه قال : إشارة منه إلى هذه المعرفة الإحسانية:

رأيت ربى بعين قلبى فقلت لاشك أنت أنت

وقد رأيت الولى العارف بربه الشيخ عبد الكريم فقال لى : المعرفة الصرف خير من الغرف . يعنى بذلك ، المعرفة الصارفة للقلب عن رؤية غير الرب ، ولا شىء معها من المعلوم الظاهرة .

هذه المعرفة خير من الغرف من بحار العلوم الظاهرة ، وغاية معرفة الله الغيبية به عما سواه ، وحقيقة العارف بالله أن تحرك وجد الحق ، وإن عرجت روحه فى الملكوت وجد الحق ، وإن سكن جسمه بأى موضع وجد الحق ، قال الشيخ العارف بالله أبو داود مشيرا إلىمعارف القوم : إن لهم فى كل حركة برهاناً ، وفى كل يوم معراجا ، وفى كل سكون وجودا. قال أستاذى فى تحفة القوم : إن الله لايتجلى عن عبد فى تجل واحد مرتين ، وفى كل يوم وليلة يرد على القلب سبعون ألف وارد ، فى كل وارد معراج .

وفى الغوشية قال : سألت الرب عن المعراج فقال : ياغوث الأعظم : المعراج هو العروج عن كل شىء ، وكما المعراج مازاغ البصر وما طغى . ياغوث الأعظم لاصلاة لمن لامعراج له إلى .. فعليك أيها السالك طريق المقربين بعروج قلبك عن شهود غير ربك لتكون عارفا به له فى كل حال ، والله أعلم .

الحكمة السابعة عشرة

﴿ لاتأخذ عطاء من يد من أيدى العباد ، حتى تشهد يد الله من المنع والإمداد ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة فى المعارف الحسنة : « لا تأخذ » أى لاتتناول .. « عطاء » والعطاء ماصدر من المطلوب إلى الطالب .. « من يد » أى من صاحب يد على حذف المضاف ، أو من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق البعض ، وهو اليد ، وأريد الكل وهو صاحبها ، لأن العطاء وإن كان الأصل فيه أن يكون باليد إلا أنه لايشترط أن يكون دائما بها ، كما هو ظاهر ومشاهد ، واليد هى الآلة الجسمانية الباطشة المعروفة « من أيدى العباد » مسلمهم وكافرهم « حتى » للغاية فى الأمور .

« تشهد » أعنى تعاين بعينى يقينك من غير شك « يد الله » أعنى قدرته القائمة بذاته ، الفاعلة فى مخلوقاته علوية وسفلية ، قال الله تعالى : يد الله فوق أيديهم : يعنى يد الله هى المحركة لأيديهم فى العطاء والمنع والضر والنفع ، الآخذة بناصية كل مخلوق سوى الخالق سبحانه وتعالى .

واعلم أن يد الله ظاهرة وباطنة عند العارفين به ، ويدك ظاهرة لا باطنة ، كما أن يدك صورة وجسم ، ويد الله ليست كذلك لانتفاء مشابهته تعالى للحوادث ، فافهم سر الإشارة تفز بالبشارة ؛ ولا تكن من الغافلين الذين لاذوق لهم ، ولا يكفى فى شهودك لرؤية يد الله العلم والإيمان العام ، لأن الإيمان إذا لم يكن عن يقين فلافائدة فيه .. إن الظن لايغنى من الحق شيئا ، بل لابد أن يكون حالا وذوقا ، إذ هو اللائق بحال العارفين بالله تعالى .

قال سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه : لاتمدن يدك إلى الأخذ من

الخلائق إلاأن ترى أن المعطى فيهم مولاك فإن كنت كذلك تخذ ماوافق العلم ، فمن نور الله قلبه ، رأى بنور اليقين ، أن العطاء من رب العالمين ، فصار من أهل القناعة والتوكل ، وأخرج الله هم الرزق من قلبه ، فإن أعطى شيئا يشهد أن الله أعطى عبد الله من مال الله ، وإن أعطى شيئا شهد أن الله أجرى له ذلك على يد من أعطاه له .

فمن لم يحصل هذه المرتبة ، كان عبدا للناس ، موجها قلبه إليهم فى العطاء والمنع ، وشاهد أمور الخلق بأيديهم ، لابيد الله تعالى فوقع فى الشرك الخفى ، ولم يأت ربه يوم القيامة بقلب سليم .

روى عن مالك بن دينار رضى الله عنـــه أنه كان يقول : قال الله عز وجل : قلوب الملوك بيدى ، فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك وتوبوا إلى ، أعطفهم عليكم . فإذا كان الملوك الذين هم أقوى الناس ، قلوبهم بيد الله تعالى ، فأى شىء خارج عن يد الله تعالى فى العطاء والمنع ، والضر والنفـع . لحقيقة العارف بالله تعالى هو الذى يأخذ من يد الله ، ويشاهد المنع كذلك من الله . فإن من اعتمد على الأزل ، شاهد كل شىء من الأزل ، فلا يحمد أحدا على فضل الله ، ولا يذم أحدا على مالم يؤته الله ، لـكنه يراعى الشرع ظاهراً ، والحقيقة باطناً ..

قال سيدى الشيـخ زروق رضى الله عنه : من صدق الفقير أن يأخذ الصدقة ممن أعطى ، لاممن وصلت على يده ، وقال الشيخ محمد أبو محمد بن عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : أجمع العلماء أن الحلال المطلق ماأخذ من يد الله بإسقاط الوسائط .

قال سيدى الشيخ زروق رضى الله عنه : وهو جار فيما أخذ بالأسباب لجريانه فيما أخذ دونها . ثم إذا تحققت لزم مراعاة جهة الشريعة .

واعلم ياأخى أن من دخل بحر المعرفة والمحبة والذوق والشوق لايأخذ إلا من يد الله تعالى فى الأكل والشرب وغير ذلك مما يفهمه العارفون بالله تعالى :

ألا يانديمى كم كذا أنت ذاهـــل
وقد ظهرت ليلاى من داخل الحجب
ولاح سنا وجه إلى القلب منجل
فأخفى لأنوار الكواكب والشهب

فمن أراد الشرب الصافى الزلال فليأخذ من يد الفعال . والله أعلم .

الحكمة الثامنة عشرة

﴿كل شيء بيد الله ، الخير والشر مرسلان من الله ، فمن لم يتحقق بشهود ذلك عن الله ، كان مبعداً مطروداً من حضرة الله﴾ .

(ش) قلت به عنه ناثراً لما انطوت عليه هذه الحكمة من جواهر معانى علم الوحدة : «كل شيء بيد الله ، أعنى أن كل فعل من أفعال المخلوقات ناشىء عن قدرة ذات الله العلية الأزلية الأبدية ، التى تخضع وتضمحل وتنعدم لجلال وجودها العوالم العلوية والسفلية . واعلم أن كل فعل متصل بذات فاعله ، فافهم من ههنا قربه تعالى منك تحظ بطيب وصاله ، فإن أولنا عدم ، وآخرنا عدم ، ووسطنا الاسم الأعظم ، فمن لم يكن عنه يفهم ، فليقل الله أعلم .

قال حبيب الرحمن : كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ماعليه كان ، فعنى حديثه صلى الله عليه وسلم عند أهل الظاهر ، كان ربنا قبل أن يخلق المكان والزمان ، وهو الآن على ماعليه كان ، يعنى لا يوصف بمكان ولا بزمان ، سبحانه وتعالى ، ومعناه عند أهل الباطن كان الله ولا شيء معه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو الآن على ماعليه كان : يعنى ما فى الوجود إلا فعله ، ولا شيء معه .

قال الشيخ عبد الكريم الجيلى رضى الله عنه : الوجود عين الذات من حيث أسماؤه تعالى الباطنة ، ويخالفها من حيث الظاهرة المقدسة ، فإذا تحققت الحقيقة فى وحدة فعل الله تعالى شاهد العارف كل شيء بيد الله ، والخلق أقلام الله ، فإذا حصلت له هذه المرتبة ، كان فانيا عن أفعال الخلق ، وشاهد فعل الملك الحق ، وعرف أن الشريعة والحقيقة حق ، وثبت قدمه فى مشهد الأزل فلم يزل ولم يزلق ، فإن تحرك فبالله ، وإن نطق فمن الله .

قال بعض العارفين : بسم الله تنفى الذوات الحادثات ، ولا إله إلا الله تنفى الإلهات الباطلات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله تنفى القدرة المؤثرة عن المخلوقات ، ولكن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، تعالى عما يقوله القدريون فى المقدورات والطبائعيون فى المكونات .

روى عن الشيخ بن العربى رضى الله عنه أنه كان يقول : إنى أشاهد القدرة قدرة الله فى كل شىء حتى الماء ولولاها لصار سرابا .

وقال أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه : إن الله سبحانه وتعالى أنزل على أهل الفضائل المعرفة وجعل قلوبهم أوعية لاسراره . فينبغى إذا أظهر أحدهم على أمر من أمور المعرفة أن يجد فى كتمانه ، فإنه إن أظهر منها شيئا ربما انهدمت وذهبت من وقتها .

قلت ينبغى للعارف إذا أطلعه الحق على أسرار المعارف أن يكتمها ولا يبديها لغير أهلها ، أومريد يريد به إصلاحا ، لأن الحقائق الربانية تنزل من الحضرة القدسية ، على قلب من يشاء من عباده من غير واسطة ، وشاهد ذلك (وعلمناه من لدنا علما) ومقام صاحب العلم اللدنى فى الرضا والصبر على البلاء ، لأنه مشاهد أن كل شىء بيد الله وأن الخير والشر مرسلان من الله ، فمن لم يكن له اعتماد إلا عليه ، ولا ينظر إلا إليه ، فهذا هو عين توحيد الأفعال ، لكنه صعب على النفوس ؛ لأن الإنسان لايزال يرى الفعل من المحسوس ، فيرى بعين التبصر ، أن الشر والخير ؛ صادران من الغير ، وهما فى الحقيقة من الله تعالى من غير شك فمن يقول فى الخير أعطانى فلان ، مثلا ، ويقول فى الشر ضرنى فلان ؛ أو لسعتنى عقرب ، أونهشتنى حية ، باعتماد على ذلك ، واعتقاد من قلبه ، من غير نظر لوحدانيته تعالى فى فعله ، فإنه فى ذلك مشرك وإن الشرك لظلم عظيم ؛ عميت عين ترى فاعلا سواك وحق لها العلماء إن شهدت شيئاً الاك . قال بعض العارفين : من لم يتعرف إلى الله تعالى بوحدة الأفعال فدينه كالسراب وتوحيده ضعيف ، قلنا من لم يشهد بقلبه الخير والشر مرسلين من الله كان مبعدا مطرودا من حضرة الله .

واعلم أن حضرات الله تعالى ثلاث : حضرة ذاته ، وحضرة صفاته ، وحضرة أفعاله ، فحضرة ذاته تمحو الذوات ، وحضرة صفاته تمحو الصفات ، وحضرة أفعاله تمحو أفعال الحوادث ، والله أعلم .

الحكمة التاسعة عشرة

﴿ من خاف من حيوان ولم يشهد الله فيه فقد أثبت له التأثير ، وصار مشركا شركا خفيا بوحدة أفعال العلى الكبير ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « من خاف من حيوان » أعنى أو غيره مما يخاف منه من جماد كالنار والكواكب أو نبات كالنبات المسموم . وإنما اكتفينا بذكر الحيوان هنا لان غالب الخوف يكون منه .

واعلم أن الخوف من ضعف الإيمان .

روى عن بعضهم أنه قال : دخلت يوما على سهل بن عبد الله التسترى فرأيت عنده ثعبانا عظيما فهربت منه . فقال لى ادخل : لايبلغ أحد حقيقة الإيمان.وعلى وجه الأرض شىء يخافه ، فدخلت عليه بعد ذلك ؛ فافهم سر التوحيد فلست أصرح بأكثر من هذا فى مطالب العارفين .

واعلم أن المؤمن حقيقة لايعتقد فى تأثير شىء من الكائنات بنفسه فى النفع والضر ، فمن اعتقد ذلك دون الله فقد أثبت له التأثير ؛ وصار مشركا بوحدة أفعال الحق سبحانه وتعالى لأن الله تعالى واحد فى فعله لاشريك له فى ملكه ، من شهد أن الله هو المؤثر ، لم يشهد لاى كائن من الكائنات أى تأثير ؛ وإن قل .

قال سلطان العارفين سيدى أبو القاسم الجنيد رضى الله عنه : إذا قرن الحادث بالقديم لم يبق للحادث أثر مستقيم ، فافهم المعنى تهنأ ، ولا تكن يا أخى مؤمنا بغير الله ، كافرا بالله ؛ أو تارة كذا ، وتارة كذا ؛ فتصير ليس لك إله واحد ، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم حديث قدسى فى اعتقاد تأثير الكواكب فى الأمطار ، قال فيه :

قال الله تبارك وتعالى ، أصبح من عبادى مؤمن وكافر بى ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن بى كافر بالكواكب ، ومن قال مطرنا بنوء كذا فهو كافر بى مؤمن بالكواكب . والنوء : سقوط نجم من المنازل فى المغرب وطلوع رقيبه فى المشرق ، فمن شهد الكل منه وإليه ، فلا عليه ، والاعتقاد فى تأثير فى الطبائع دون الله شرك بالله .

ومن كثرة ما شاهد فيها التأثير بعض الخلق ، ولم يشهدوا ذلك من فعل الله تعالى وقدرته ، جعلوها هى الصانعة للعوالم علويها وسفليها ، وهى الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة ، ولم يعلموا أن أول ماخلق الله سبحانه وتعالى طبيعة الحرارة وأصلها الحركة الكونية التى هى قدرته تعالى وعلة العلل فى الأشياء المتحركة ، ثم خلق بعدها طبيعة البرودة وأصلها السكون الكونى الذى هو قدرة الله تعالى وعلة العلل فى الاشياء الساكنة ، ثم تولدت من الحرارة الرطوبة ، ومن البرودة اليبوسة فصارت أربع طبائع مخلوقة لله ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

فالعارف بالله يشهد أن المؤثر فى الاشياء هو الله تعالى من غير استعانة بها ، ومن فنى به فى معرفته ، شهده ولا شىء معه . فهذه الحكمة تشير إلى وحدة أفعال الله بأن لايرى العبد فاعلا فى الوجود سوى الله . و « العلى » اسم عظيم من أسماء الله تعالى والاسم عين مسماه .

قال الإمام البونى : اعلم أن العلى هو الذى رتبته ليس فوقها رتبة ، والعلو إما أن يكون علوا حسيا كالدرج وإما أن يكون علوا فى مراتب المعقولات كالتفاوت بين السبب والمسببات الكامل والناقص ، فإذا فهمت هذا التدريج العقلى علمت أن الموجودات لاتمكن قسمتها إلى درجات متفاوتات فى الدرج العقلى .

انظر شمس المعارف الكبرى صفحة ٦٢ الجزء الرابع .

وأما اسمه الكبير فهو من أسماء الله تعالى والاسم عين مسماه .

قال الإمام البونى فى شمس معارفه الكبرى : اعلم أن الكبير هو ذو الكبرياء ، والكبرياء عبارة عن كمال الذات كما أن الوجود كمال الموجود ويرجع إلى ذاته أزلا وأبدا وكل موجود مقطوع بعدم سابق ولا حق فهو ناقص ويقال للإنسان إذا طالت مدته كبير أى كبير السن مع كون مدته محدودة ، فالدائم الأزلى الذى يستحيل عليه العدم أولى بأن يكون كبيرا .

أنظر شمس المعارف الكبرى صفحة ٦٢ الجزء الرابع .

وقد روى رضى الله عنه فى موضع آخر حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : جالسوا الكبراء وخالطوا العلماء ، واسألوا الحكماء . فالكبراء هم الذين ينطقون عن الله بالله فى كتابه وأسرار موضوعاته ، لأن بين الفهم والتأويل والتفسير خلافا شهيرا ، فافهم الحديث بذوق نفيس، والله أعلم .

الحكمة العشرون

﴿ توحيد الأفعال صعب على النفوس ، لأن الإنسان لايزال يرى الفعل من المحسوس . من وحد الله فى فعله وجد كل ثمار فى دينه ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لبعض ما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى الحسنة : توحيد الأفعال هو مشاهدة جميع الأفعال من الله ، لا من غيره ، فى شر أو خير . فان كان فعلا مخالفا للشريعة يعتمد على أنه من الله بالباطن ، ويتبع الشرع فى الظاهر . قال تعالى : (قل إن الأمر كله لله) وقال تعالى : (قل كل من عند الله) وقال تعالى (ولو شاء الله ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد) .

وقال تعالى لحبيبه : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)،وقال بعض العارفين بالله:أخذت علينا العهود ، ألا ننكر على النصارى ولا اليهود .. يعنى باطنا لاظاهراً .

واعلم أنك إذا رأيت أقوالا وأفعالا من كفر أو عصيان أوغير ذلك ، فإن قلت من الله أثبت له الوحدانية فى أفعاله وخالفت شرع نبيه عليه السلام ، وإن قلت من غيره أثبت له شريكا ، فأشركت : ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق. فأية حالة تثبت عليها وتخرج بها من الأصفين ؟ فالذى ينبغى أن تكون عليه أيها العبد القاصد لحضرة الرب ، أن تجعل ظاهرك مجاهدة فى الامر والنهى ، وباطنك مشاهدة له فى وحدة فعله ، وقل فى نفسك مخاطبا لربك : سبحانك أثبت لنا الفعل من حيث أثبتنا لا نفسنا وكلفتنا بأمرك ونهيك ولو أفنيتنا عن ذلك لما كلفتنا .

« صعب على النفوس » لأن النفوس خلق من ظلمة الشرك ، والارواح

خلق من نور الله ، كما أن الإنسان الغالب عليه الجهل بالله لا يرى الفعل إلا من المحسوس الذى يراه بحاسة البصر ولم يشهد وحدة الله ببصيرته ، فهو واقف مع الخلق ، لم يشهد فيهم فعل الحق .

« من وحد الله فى فعله وجد كل نخار فى دينه » ولهذا التوحيد شاهد من الكتاب والسنة ، أما الكتاب فقول الله تعالى : والله خلقكم وما تعملون .

وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام : إن الله تعالى صانع كل صانع وصنعته ، أى فاعل كل فاعل وفعله . قال الإمام البونى رضى الله عنه : القلم مسخر بيد الكاتب والعارف بالله تعالى يعلم أنه مسخر بيدالله وهو الكاتب، فكلما كتبه الكاتب فهو مكتوب لله تعالى افهم تغنم . واعلم أن مراتب الدين ثلاث : دنيا ووسطى . وعليا . إسلام وإيمان وإحسان . فمن شاهده وهو الفاعل وحده دخل فى الجنة ، والإحسان يفسره قوله عليه السلام سألت أخى جبريل عن الإحسان فقال : أن تشهد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

واعلم أن الفكر فى ذلك بعبادة سبعين سنة فافهم تغنم .

الحكمة الحادية والعشرون

﴿ العلم النافع ماحال بينك وبين الأغيار ، وأشهدك به لابك جمال العزيز الجبار ﴾ .

(ش) قلت به عنه نابحا لما انطوت عليه هذه الحكمة : العلم النافع هو الذى يدخل مع صاحبه فى قبره ، وهو العلم بالله السارى مشهده فى وحدة الله ، وهو الذى يحول بينك أيها المؤمن وبين ماسوى الله وليس ماسوى الله إلا الأغيار المشار إليها فى الحكمة . «وأشهدك به لابك» أى أشهدك ، شهودا ذوقيا به سبحانه وتعالى لابك ، الجمال المطلق الفائق على كل جمال . فالعلم النافع هو العلم بالله .

ولقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:العلماء ثلاثة أقسام عالم بالله ، وعالم بأمر الله ، وعالم غاب عن نفسه وعن الأشياء كلها . فأفضل العلماء عند الله هم أهل العلم بالله وهو العلم اللدنى . وهو الذى يأتى من لدن الله بلاواسطة قال الله تعالى : «وعلمناه من لدنا علما» . والجاهل بهذا العلم لم يفهم عن الله ولاواجهه المدد من الله . والعلم بأمر الله هو العالم بالحلال والحرام . المتبع لأمر الله ونهيه وهو أقل مرتبة من الأول ، والعالم الذى غاب عن نفسه وعن جميع الأشياء كلها هو العالم الذى غاب عن نفسه لدعواه العلم . فلم يعتبر أن العلم صفة من صفات مولاه . فدعواه العلم شرك وجهل لقوله عليه الصلاة والسلام : من ادعى بعلمه كتبه الله من الجاهلين ، وغيابه عن الأشياء كلها لقلة اعتباره لها مع علمه بها ، فلم يعتبر الحلال ، ولم يبال بالحرام فغاب عن الأشياء كلها من الوجهين ، وهو أدنى العلماء مرتبة ، وأقلهم عند الله منزلة . فلزم من ذلك أن علمه هذا ضار له لانافع .

قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى مشيرا للعلم النافع وهوالعلم بالله :

العلم النافع هو الذى ينبسط فى الصدر شعاعه ، ويكشف به عن القلب قناعه .
وقال سيدى أبو القاسم الجنيد : العلم النافع هو أن تعرف ربك ولا تعد قدرك ، يعنى أن تعرف ربك بتوحيد الخواص ، ولا تشاهد لنفسك معرفة . وذلك هو الفناء عن معرفة الله بشهود الله .

وقال الشيخ أبو محمد عبد العزيز المهدوى رضى الله عنه : العلم النافع هو علم الوقت ، وصفاء القلب ، والزهـــد فى الدنيا . وما يقرب من الجنة ، ومايبعد من النار ، والخوف من الله ، والرجاء فيه ، ومعرفة آفات النفوس وطهارتها وهو النور المشار إليه بأنه يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده دون علم اللسان والمنقول والمعقول .

قال سيدى ابن عطاء الله : حسبك من العلم العلم بوحدانية الله ومن العمل محبة الله ورسوله واعتقاد الحق فى الجماعة . وإن أردت أن يكون لك نصيب مما للأولياء فعليك برفض الناس جملة . إلامن يدلك على الله بإشارة صادقة أو بأعمال ثابتة لاينقصها كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال سيدى زروق رحمه الله تعالى : من علامة الانتفاع بالعلم وجود الخشية،وقال ابن عطاء الله خير علم ما كانت الخشية معه . قال الشيخ زروق : أفضل العلوم وأحسنها وأكملها ما كان كما ذكر وقد قال تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، قال رضى الله عنه فأثبت العلم لمن يخشاه ، ونفاه عمن لايخشاه . وقد استعاذ صلى الله عليه وسلم من علم لاينفع . وقد سألت سيدى محمد السمان رضى الله عنه عن معنى قوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فقال أهل الخشية أهل العلم بالله ومما فهمناه من قوله ياأخى أنهم أفضل العلماء .

وقد أشار صلى الله عليه وسلم فى أول العلماء الثلاثة المتقدم ذكرهم أولا إلى أن العلم النافع - أيها الطالب توحيد الخواص عند أهل الاختصاص -

هو العلم اللدنى والذى يبقى مع صاحبه بعد الموت إذا فارقته جميع العلوم ، ويسمى علم المشاهدة لأنه متعلق بذاته تعالى ، وصاحبه له الغيبة فى الله عن جميع المخلوقات ، وكل علم نافع للسالك والناسك أقل منه منفعة . لأن هذا ينفى عن القلب السوى وغيره من العلوم نفعه بخلاف ذلك ، فهو أفضل العلوم النافعة للعبد فى الدنيا والآخرة .

وقد ورد فى فضل العلم أحاديث كثيرة ، والعلم بالله فى المرتبة الأولى . يليه العلم بأوامر الله كما تشيد بذلك الأحاديث .

قال عليه الصلاة والسلام : العلماء ورثة الأنبياء ، وقال عليه الصلاة والسلام : من طلب العلم يحدث به الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً ، وقال عليه الصلاة والسلام : العلم فى خزانة ومفتاحه السؤال فاسألوا فانه يؤجر أربعة : السائل والعالم والمستمع والمحب لهم ، وقال عليه الصلاة والسلام : يستغفر للعالم أربعة أشياء : الملائكة فى السماء ، والطير فى الهواء ، والدواب فى القفار ، والحيتان فى البحار .

وفى بعض الأخبار أن أهل الجنة يحتاجون إلى العلماء كما يحتاجون إليهم فى الدنيا ، واحتياجهم إليهم فى الآخرة لرؤية الله تعالى ، والأولى بذلك علماء التوحيد والمشاهدة ، وقال عليه الصلاة والسلام : فوالذى نفس محمد بيده مامتعلم تختلف أقدامه إلى باب العلم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة ، وبنى له بكل قدم مدينة فى الجنة ويمشى على الأرض والأرض تستغفر له ، ويمسى ويصبح مغفورا له — والعلم المشار إليه فى هذا الحديث هو الأولى أن يكون علم القوم الذى قال فيه الشيخ أبو الحسن الشاذلى : من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصرا على الكبائر .

وقال ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » للعلماء درجات فوق درجات المؤمنين ، سبعمائة

درجة، والدرجة مسيرة خمسمائة عام، قال الشيخ زروق : إنما المراد بهذا العلم فى هذا الموطن العلم النافع ، القاهر للهوى القامع ، وذلك متعين بالضرورة لأن كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل من أن يحملا على غير هذا ؛ والعلم النافع هو الذى يستعان به على طاعة الله ويلزمك المخافة من الله، والوقوف على حدود الله ، وهو علم المعرفة بالله ، ويشمل العلم النافع العلم بالله والعلم بما أمر الله إذا كان تعلمه لله ، وحقيقة العالم من علم علم اليقين أن الله معه فى كل حال ، وعلى كل حال ، وهو العالم الذى شبهه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بأنبياء بنى إسرائيل . . . وعلم هؤلاء عزيز المنال ، قال صلى الله عليه وسلم : إن من العلم كهيئة المخزون لايعلمه إلا العلماء بالله ، وهم أهل العلم اللدنى الموهوب من الله .

وأما « العزيز » فهو اسم من أسمائه تعالى ، والاسم عين مسماه .

قال الإمام البونى رحمه الله تعالى : اعلم أن معنى العزيز هو الخطير الذى لامثيل له وإليه تشد الحاجات ، ومعناه الغالب القاهر ، واعلم أن العزة هى أصل البقاء لأن الحق تعزز بالبقاء ووهب العزة والبقاء فى الجنة للمؤمنين . ثم قال : ومن أراد حقيقة التحقيق بهذا الاسم فليصبر على عز الربوبية بسر العبودية والتسليم اهـ .

والعزيز : من أهل الله تعالى من لاينالة ذل من سلطان ولا تلفته رعونات الشهوات ولا يؤثر فيه اختلاف العادات ولا تبلغه أيدى المعاملات ولا تحكمه خواطر المخالفات ولا يوقفه ظهور الكرامات ، والمعتمد على هذا الاسم يرزقه الله من غيبه .

والجبار : اسم من أسمائه تعالى والاسم عين مسماه ، قال الإمام البونى فى شرحه على هذا الاسم : اعلم أن معنى الجبار هو الذى يمضى حكمه على طريق الإجبار فى كل حال ولا يدافعه حذر حاذر، وهو الله والجبار المطلق هو

الذى يجبر كل أحد والنظر فى ذلك على أنواع لاتحصى من حيث التفصيل ، ثم قال : ولذلك ظهر نظام العالم بسر النسب والإضافات ، فإن الإنساب كلها أسماء الله وهى النسب الإلهية حتى لايفتقر إلا إليه . وان نظام الجسم بالحرارة الغريزية وبقية الاربع الطبائع وسر هذه الطبائع القوة القهرية فاذا انتقل إلى الدار الآخرة ارتفع سر القدرة والقهر والجبر عن الطبائع المؤلفات وعلى هذه الصفة يكون أسرار العلم الملك الذى هو عالم الغيب والشهادة ، ثم الشاهد الثانى فإن الله تعالى خلق عالما من العوالم بتدبيره .

انظر شمس المعارف الكبرى الجزء الرابع صفحتى ٣٨ و ٣٩

الحكمة الثانية والعشرون

﴿لاتخرج من شهود صفات المعانى بك إلا بعد أن يفنيك به عن حياتك﴾

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « لاتخرج » أيها السالك طريق المقربين « من شهود » والمراد بالشهود الرؤية « صفات المعانى » أعنى بها الصفات المعنوية التى فيك أيها السالك وهى القدرة الحادثة، والإرادة الحادثة ، والعلم الحادث ، والحياة الحادثة ، والسمع الحادث ، والبصر الحادث ، والكلام الحادث ، وهى صفات المعانى المتقدم ذكرها ، فيما يجب لله تعالى ، إلا أن هذه حادثة وتلك قديمة وكلاهما واحدة ، لمن هو لسر الحقيقة مشاهد « إلا أن يفنيك به عن حياتك » وهى صفتك الحادثة القائمة بذاتك ، التى لو لم تتصف بها ، لاتصفت بضدها وهو الموت المحال فى حق الله تعالى ، اللازم لك ، وقل مثل ذلك فى اتصاف الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، فإنها كلها واجبة فى حق الله تعالى وحده ، لا فى حقك أنت .

هذا ، ووجود الشيء لنفسه حياته التامة ووجود الشيء بغيره حياته الإضافية ، فالحياة قسمان مجازية وحقيقية ، فالمجازية : متعلق بها الموت والفناء ، والحقيقية : لها الابدية والسرمدية ، فافهم ، واعلم أن العبد العارف بالله لايشهد لنفسه ماكان حقيقة لسيده ، فإذا تحقق بذلك ، كان له الفناء المتقدم فى الحكمة ، ولم يشهد سواه حيا ، لان ماسوى الله حياته بالله ، فإذا قال « لا إله إلا الله » شهد بسره لاحى إلا الله تعالى ، ولم نشهد لنفسه فعلا مع الله ولا إدراكا لفنائه عن صفاته بصفات الله تعالى ، فيغيب بذلك غيبة ذهول وغيبة نوم وغيبة موت ، لخروجه عن صفة القدم ، فيخرج بذلك عن شهوده لصفات معانيه فتصير حياته بالله تعالى ، ويعدم الإدراك والفعل فى هذا المقام، ويصير كما قال الإمام البونى رحمه الله تعالى فى شمس معارفه الكبرى على

شرح اسمه تعالى « حى » من لافعل له ولا إدراك فهو غير حى . والحى المطلق هو الذى يقهر الموجودات بقهره والافعال كلها تحت فعله والإدراكات كلها تحت إدراكه .

وقد حكى لى الولى الصالح أحمد بن المجذوب حكاية تدل على أنه وصل إلى هذا المقام قال : إذا توجهت إلى الذكر لاأسمع من يكلمنى ولا أرى ، فقلت له اعلم بذلك شيخك ، والاولياء فى هذا يختلفون بحسب المقامات والاذواق وأعظمهم الذى يفنى عن حياته بفناء جميع الصفات فنهم من يفنى عن قدرته ومنهم من يفنى عن إرادته ومنهم من يفنى عن علمه ومنهم من يفنى عن سمعه ومنهم من يفنى عن بصره ومنهم من يفنى عن كلامه ومنهم من يفنى عن الجميع وذلك لايحصل إلا بعد فناء حياته لان الفناء عنها يوجب فناء الكل وذلك عين استهلاك صفات العبد فى صفات الرب سبحانه وتعالى قال سيدى مصطفى البكرى رضى الله عنه ونفعنا بسره :

إن الفناء فى فعال الذات يكشف للعبد عن الصفات
حتى يذوق مشهد الصفات فيترقى لشهود الذات
مشهده ذا قيل فيه ذات مشهده ذا قيل فيه ذات
وذاك من بعد الفنا بحبه عن وصفه وعن شهود قربه
وعن فنائه فيمن غدا يهواه سبحانه ماظاهر إلا هو
وبعد ذا يسقى بكاسات البقا
ويحتظى بالسحق فى حال اللقا
وتنتهى منه هنا الامانى مصاحبا للخوف والأمان
متى بذا يوما تجلى الله على عبيده فقد حباه
وربما استخلف فى الاكوان ليرشد التائه للعرفان
فيعلم الاشياء بتعليم الولى ويبصر الكل بنوره الجلى
ويسمع الندا من البعيد فى قربه منه كما الوريد

وهكذا فى سائر الصفات مذ فات أهل السير بالوفاة
وقال أهل السنة الكرام عليهمو من ربنا السلام
صفاته قديمـــة موجودة زائدة لذاته مشهـــودة
فهـو مريد بارادة له وقس عليها أيها المولة
وقالت الصوفية الأعـلام ليس سوى الذات هو المرام
وعنـدهم من جهة التعقل هى سوى مذهبهم ذا فاعقل
والحكماء قالوا بالاتحـاد وزعموا القول من الرشاد
ومن عليه قد تجلى الحق يظهر فى السر لديه الحق
فلم يـكن يحتاج للتعليم لأخـذه العـلم عن العليم
ومن هنا يعـلم عـلم الغيب وعلمه من فيض غيب الغيب
وأنت من خلف حجاب رائى إذا تخلفت إلى الوراء
تـكون لابساً لبـاس اللبس مقيداً بالغير رهن حبس
فاكشف غطاك عنـك تدرك المنى
وينكشف هم العنـا غب الفنا

هذا ماكان منه رضى الله عنه فى إلهاماته الربانية ومشاهداته القدسية والله أعلم وفى توحيده أحكم .

الحكمة الثالثة والعشرون

﴿ لايعرف حقيقة مظاهر صفاته فى الأكوان ، إلا من كان الحق له السمع والبصر واللسان ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « لايعرف » أعنى المعرفة الكاملة اللاهوتية التى تنشأ منها مشاهدة الوحدانية . . . حقيقة أى صفة من كان حقا من غير شك ولا تشكيك . ولا ريب ولا تشريك . « مظاهر صفاته » القائمة بذاته ، الظاهرة فى مخلوقاته وهى صفات المعانى والصفات المعنوية « فى الاكوان » أى كل ما كونه الله تعالى من المخلوقات من عرشه إلى فرشه إلى غير ذلك مما لايعلمه إلا هو سبحانه وتعالى من أكوانه .

روى عن بعض أولياء الله فى زمن الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله أنه قال : أطلعنى الله على مائة كون ، الدنيا والآخرة كون منها .

فحكى بذلك للشيخ عبد القادر ، فقال : هذا رجل عندنا ناقص الدرجة . حقيقة الولى يطلعه الله على ألف كون الدنيا والآخرة كون واحد منها ، وهذا كله ليس غاية فى علم الله . فان لله تعالى أكوانا لايعلمها إلا هو .

والولى العارف بالله تعالى مهما اطلع على كون شاهد مظاهر صفاته تعالى فى ذلك الكون . ولم يعلم غيره . لأن كل ماسواه حجاب عنه . إلامن كان الحق له السمع والبصر واللسان ، أى إلا من تحقق بحقيقة الحديث القدسى ، والقول الانسى ، وهو ما رواه عليه السلام عن ربه عز وجل قال قال الله تعالى : لايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فأذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . وبصره الذى يبصر به . ويده التى يبطش بها .

ورجله التى يمشى بها . ولسانه الذى يتكلم به . معناه فبى يسمع . وبى يبصر . وبى يبطش . وبى يمشى . وبى يتكلم ، فيشهد فى ذلك المقام السامع واحدا فى كل سمع . والباصر واحدا فى كل بصر . والباطش واحدا فى كل بطش . والماشى واحدا فى كل مشى . والمتكلم واحـــدا فى كل كلام . فافهم . ولا تتوهم . وكن مشاهدا . ولا تـكن معاندا . وكن مترببا . ولا تقل مترق . والله أعلم .

الحكمة الرابعة والعشرون

﴿متى أشهدك إياك بك فقد أذلك،وإذا أشهدك إياك به فقد عظمك﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة ، من باب العطاء والرحمة : متى أشهدك أيها المريد ، العازم على الدخول فى حضرة الشهود والتفريد ، متى أشهدك إياك بك لابالله فى حركاتك وسكيناتك وكلماتك وإرادتك ، فاعلم أنه أذلك ، ومنعك العزة به ، وهى العزة الكاملة فى الدنيا والآخرة ، وإذا أشهدك أيها السالك طريق المقربين إياك به ، لابغيره فى حركاتك وسكناتك ، وكلماتك ، وعين إرادتك ، وعين حياتك ، فقد عظمك عنده وفى كل كون من أكوانه ، تعظيما يؤدى إلى الالتجاء بك حيا وميتا ، وتصيرا عينا من عيون الله فى الأرض .

قال الإمام البونى فى شمس معارفه الكبرى : من شهد العظمة ، قال مارأيت شيئا إلارأيت الله بعده ومن شهد الوسع قالمارأيت شيئا إلارأيت الله قبله وان العين هى باطن العظمة ، وهى ظاهر الوسع ، ولذلك كانت العظمة إزارا فافهم ذلك ، فانه من لطائف التوحيد .

واعلم أن نور العظمة يعود عليه ثم يعود على من سواه ، وحقائق الأنوار أربع : نور وحدة الذات ، ونور وحـــدة الصفات ، ونور وحدة الأسماء ، ونور وحدة الأفعال ، وكل نور من هذه إذا صدم السالك ، غيبه عما سوى الله تعالى ، ويجد الزيادة من ذلك السالك كل من جالسه ، لأنه من أهل الصمدانية الجسمانية والفتح الموسوى ، وواردة يرد عليه بلذة عظيمة مشافهة،ويستغرق فكره فىذلك الوارد ، ويصير مستقرا فيه فلا يخطىء ذهنه ، إذ أن العظمة التى فى قلبك من الله تعالى تشهدها العوالم العلوية والسفلية ، وبعد تمليكك فيها إذا تجليت بها على أحد من عباد الله صار وليا من أولياء الله ، وشهد سر لاقوة إلا بالله ، والله أعلم .

الحكمة الخامسة والعشرون

﴿ إذا أفناك فى صفاته القائمة به ، صرفك فى مخلوقاته بقدرة ذاته ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « إذا أفناك » الحق تعالى ، أيها السالك ، الفناء المتوسط عند القوم الذى هو محو الصفات البشرية والتهيؤ من بعدها للبقاء الذى لا يعقبه الصحو إلا بعد مدة زمانية ، فيصير سيرك فى الله، وعالمك عالم لاهوت، ومقامك سر السر، وتقل وارداتك لأنك لا بقاء لأوصافك ، وهذه حالة لا تدرك إلا ذوقا ، والشيخ الكامل يفهمها للمريد المنتهى للكمال ، وقلب هذا العبد مشغول بعالم اللاهوت وسر السر .

« إذا أفناك فى صفاته » أى صفاته تعالى القائمة بذاته ، صرت فردا من أفراد الوجود « وصرفك فى مخلوقاته » من كل جهة من الجهات ، فتؤثر فى الأشياء باستعانة الحق لأنك تصير تكون الأشياء بالله ، كما يقول الحق للشىء كن فيكون .

قال صاحب زبدة المصنفات : من قال «كن» وقد سمع من الحق «كان» له، كما ورد فى الآثار من الأخبار عن الشيخ عبد القادر الجيلى ، والشيخ أحمد الرفاعى والشيخ أحمد البدوى والشيخ إبراهيم الدسوقى وكالشيخ زروق بأرض المغرب وإحيائه لحماره ثلاثة عشر يوما ، وكالشيخ حسن ودحسونه ، وإحيائه للميت بعد التقبير ، وهذه الحالة كثيرة جدا فى الأولياء فلا نطيل بذكرهم فى هذا المختصر ، ولو تكلمنا عليهم فى بحر تكوينهم لكلت الأقلام .

وانظر للماء أيها المريد ، فانك إذا جعلته فى إناء ووضعت ذلك الإناء على النار ، فإن صفة النار تسرى فى الماء ، فيتصف بها ، فيفعل فى الإحراق كما تفعل النار ، فافهم ولا تتوهم ، فإن محبة الله ومعرفته إذا تمكنتا من عبده

فعل العجائب فى المخلوقات ، وذلك بعد تقديس أوصافه .

قال عالم العلماء رحمه الله تعالى : إذا تقدست قابلك روح القدس من عالم الأفهام ويظهر على صاحبه ويتكلم بحكم أهل التمكين من سر السر من عجائب الملكوت ، ويظهر على صاحبه الحال ، ويرى مافى عوالم الكرسى من الأرواح ويكون من أهل المكاشفات ، ومانلنا هذا المقام إلا بانخلاعنا عن الشهوات النفسانية ، والخواطر الردية ، وكانت نتيجة ذلك النطق بالحكمة والكشف عن خواص الأسماء .

واعلم يا أخى أن ثمرة التعريف الكامل لاتحصل للعبد إلا بعد صفاء سريرته من كدر الأغيار ، والتعريف على قسمين : حالى ومقالى ، فالحالى له الإرادة ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، والمقالى يتفرع، وحقيقة الاسم الأعظم من قاله نال ما قاله ، وأدرك مآله ، وهو من علم صفاء السرائر .

وقد سئل سيدى أبو القاسم الجنيد عن علم التصوف فقال : ليس بعلم أرضى فتجتهد فيه العقول فتعلمه ، وإنما هو ثمرة صفاء السرائر ، إذا فنيت رفعت ، وإذا رفعت آمنت ، وإذا آمنت جبرت ، وإذا جبرت كوشفت ، وإذا كوشفت عبرت ، وهو فقه بالله ومعرفة القبض والبسط ، وأن يكون ناطقا عن الله فى قربه ، وآيسا عما فى مملكته ، وهذا العلم الذى تكلم عليه الجنيد : هو الحال الناشىء من مشاهدة ذى الجلال ، بعد الفناء والاضمحلال فى صفات الكمال ، فافهم ولا تقل : أنا أعلم ، وبالله التوفيق والله أعلم ، وفى توحيده أحكم .

الحكمة السادسة والعشرون

﴿ تارة يشرق عليك شموس صفاته ، فتكون قادرا بالله ، وتارة يحجب ذلك عنك فتقول : ما شاء الله ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لبعض ماانطوت عليه هذه الحكمة من المعانى الحسنة : « تارة » أى وقتا مقدرا بتقديره تعالى « يشرق عليك » سبحانه وتعالى شموس صفاته القائمة به كالقدرة والإرادة ، بالتجلى عنه تعالى ، فتحصل للعارف فى هذا المقام قوة عظيمة ناشئة عن قدرة الله يجدها الشخص فى نفسه بحسب المعنى الذى ظهر له فى فكره ، فإن كانت الحالة الناشئة من قدرته تعالى من جلاله ، وجد فى نفسه قوة وقدرة على مصادمة جميع الكائنات علويها وسفليها ، وإن كانت من الجمال وجد فى نفسه قوة وقدرة على الاتصال بمحبوبه وذلك من أسرار استشعارك بنفسك للمعنى المناسب لحالك عند ذكرك بملاحظة فكرك ، وبهذا المعنى سرعة الوصـــول إلى المقصود دفعة واحدة .

قال بعض العارفين بالله : نفس الإنسان لها قوتان : قوة قهر وعزة ، وقوة محبة وتشوف ، والأولى جلال ، والثانية جمال .

« فتكون قادرا بالله » أعنى تصير بسم الله منك فى هذا المقام بمنزلة كن فى الله ، لأن الباء من مضمرات القدرة ، وتشهد الأشياء كلها موجودة بقدرة الله تعالى شهودا ذوقيا لا نطقيا ، وحال أهل الذوق مفهوم عند السادات الأخيار ولا تعتقد أن معرفتك الأشياء بأنها موجودة بقدرة الله تعالى هو عين شهود القوم المتقدم .

ولقد أشار صلى الله عليه وسلم لأهل هذا المقام فى حديث رواه عن ربه قال قال الله تعالى : الإنسان سرى ، وسرى صفتى ، وصفتى لا تنفك عن ذاتى

فافهم فمن شهد اتصال الأزل بالحدوث من غير حلول فى النفوس ، كان صفة من صفاته تعالى وهو معكم بقدرته بل هو عينها ، فافهم الإشارة ، ولا تطلب العبارة ، لأنك لم تصل إلى هذا المقام ، ولله الأمر والإبرام .

واعلم يا أخى أن القدرة عبارة عن المعنى الذى وجد به الشىء المقدر بتقدير الإرادة ، والعلم وافق وفقهما ، والقادر هو الذى إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ، وهو الله سبحانه وتعالى ، الغنى بنفسه عن معونة غيره .

والعبد يخترع الموجودات بواسطة قدرة الله تعالى ، ولا تأثير له فى ذلك إلا به ، ومن كان ولا تأثير له ، كان عاريا عن قدرة التأثير ، واصل منع العباد عن حقائق التكوينات شهود تأثير أنفسهم فى الأشياء من دونه فى النفع والضر ، فمن شهد تاثيره فى الأشياء من الله ، كان قادرا على كل شىء بالله ، فان كان صاحب حالة صادقة مع الله تلاشى ووصل إلى منتهى العلا ، لكن هذا المشهد لا يدوم لأنه صفة الحى القيوم ، والله فضل الرجال بعضهم على بعض فى معارفه، فشمس صفة القدرة إذا أشرقت ونارت وابتهجت فى سويداء قلب السالك طريق المقربين ، غاب ذلك السالك عن كل شىء أوجدته القدرة فى الله ، ولم يعرف سواه ، وهذه من مراتب الوصول إليه تعالى فى كل شىء ، فعند ذلك يدعى فى الملكوت عارفا بالله ، لأنه لا شعور له بسواه ، وهو أخذ قلب العبد وقالبه إلى حضرة الرب .

ولقد حكى عن سيدى الشيخ على الخواص ، حكاية فى هذا المقام وهى أنه كان ذات ليلة يصلى وواحد من أصحابه جالس ، فمر أسد بالشيخ ، وتعرك عليه ، ولكنه لم يشعر به ، ولم يلتفت إليه حتى فات ، وفى الليلة التالية كان الشيخ يصلى أيضا ، وصاحبه جالس ، فطلعت عليه بقة فضج منها ، فقال له ذلك التلميذ: أنت ياسيدى مر بك الليلة البارحة أسد ، وتعرك عليك ، فلم تلتفت إليه ولم تشعر به ، وفى هذه الليلة تضج من البقة : فقال له الشيخ ياولدى كنت أولا مأخوذا عنى ، ولكنى هذه الليلة . مردود على ، فهذا هو الأخذ المطلوب ،

واعلم يا أخى أن من أراد الوصول ، إلى حضرة منور العقول ، فعليه بالآداب الثلاثة التى هى عماد الدين ، ونور السموات والأرضين ، وهى الآداب فى الشريعة ، والآداب فى الطريقة ، والآداب فى الحقيقة .

قال بعض العارفين بالله تعالى : آداب الشريعة اتباع ماأمر الله به ، واجتناب مانهى عنه ، وآداب الطريقة أن تعرف مالك ، وما له ، يعنى بما لك العجز ، والضعف والذل والافتقار ، وبما له القدرة والقوة والعز ، والغنى: وآداب الحقيقة شهود المنة من الله تعالى ، أى فى التكليف والتعريف فمن لازم هذه الآداب ، بلغ منتهى الاقتراب ، ونسأل الله الإعانة على ذلك بمنه إنه كريم وهاب .

هذا وقد كان عليه الصلاة والسلام يحدث أصحابه كلا على حسب مقامه ، فقال صلى الله عليه وسلم لبعضهم : لاتحمدن أحدا على فضل الله ، ولا تذمن أحدا على مالم يؤتك الله ، ذكر ذلك الشيخ زروق فى مقسميه ، وفيه إشارة لشهود المنة منه تعالى فى التكليف والتعريف ، فالعبد تارة يأخذ الحق لشهود صفاته تعالى بتأييد منه له ، وعناية به ، وتارة يحجب ذلك عنه فيقول : ماشاء الله .

وهذا هو ردك أيها العبد إلى صفتك القائمة بك وهى العجز ، حتى لاتقف على باب مولاك إلا بالسؤال ، لأنك قد شاهدت أصلك وهو : العجز والافتقار .

فالأول : وهو المأخوذ عنه فى صفات الله تعالى من شأنه التأثير لاصطلامه فى المؤثر .

والثانى : وهو المردود لشهود أصله من شأنه العجز وعدم القدرة على إيجاد المعدوم أو إعدام الموجود ، حيث إن وارده قال له : كل حادث عاجز فى الحقيقة لامحالة ، فلاحول ولاقوة إلا بالله ، فافهم عسى أن تهب عليك ريح من تحت العرش ، بعدها لاتتوهم ، والله يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده . . والله أعلم وفى توحيده أحكم .

الحكمة السابعة والعشرون

﴿ لا يخلع عليك صفة من صفات قدمه ، إلا بعد أن يريح باطنك جملة من منازعته ﴾ .

(ش) قلت به عنه نأتيجا لبعض ماانطوت عليه هذه الحكمة من المعانى الحسنة : « لا يخلع عليك » الحق سبحانه وتعالى « صفة » من صفات قدمه ، القائمة بذاته وأعنى بذلك القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، وكونه - تعالى عن التكوين - قادرا ومريداً ، وعالما وحياً ، وسميعاً ، وبصيراً ، ومتكلما .

فهذه صفات القدم ، والمقابلات لها فى عبيده صفات الحدوث ، فإذا اقترن الحادث بالقديم ، لم يثبت للحادث مع القديم أثر مستقيم . فإذا أردت خلعة من أثر القدم ، لتكون من أهل الخلافة الكبرى والسر الأعظم ، فإنك لاتنال بعد ذلك إلا بعد أن يريح الحق « باطنك جملة من منازعته » ، فلا تشاركه فى صفاته القائمة به ، وتكون مشركا شركا خفياً ، ومن يشرك بالله « فكأنما خر من السماء فتخطفه الطاير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » فإياك والمنازعة له فى صفاته ، فتدعى أن ما لسيدك لك ، فأنت لك العجز وهو له القدرة ، ولك الكراهة ، وله الإرادة ، ولك الجهل ، وله العلم ، ولك الموت وله الحياة ، ولك الصمم وله السمع . ولك العمى وله البصر ، ولك السكوت ، وله الكلام .

فهذه صفاتك الاصلية ، فلا تفخر وتنتظر إلى العارية ، فإنها ليست لك أصالة ، إنما هى منة من خالقك فادعاؤك لها مهلك عند المقربين بخلاف غيرهم فإذا أراح باطنك لقدرته من منازعته فى صفاته بحيث لاتشاركه فى شىء منها ، ولا فى وصف من أوصافه كالكبر والعظمة ، وغيرهما ، خلع عليك أثراً من

تلك الصفات القائمة به ، منة منه تعالى . وأعظم من ذلك تجلى أسمائه الذاتية، وهو الاستهلاك فى مرتبة الاحدية ، لأن الإسم عين مسماه وذاته كما ورد .

قال صاحب سير السلوك إلى ملك الملوك : وتجلى الصفات هو ما يتكشف لقلب السالك من صفاته ، فإذا تجلى على السالك بصفة من صفاته بعد فناء صفات السالك ، ظهر على السالك بعض آثار تلك الصفة . بفضل الله تعالى .

قلت : فإذا تجلى عليه بصفة القدرة والإرادة ، قدرة الله على كل شيء أراده ، فلو أراد إحياء ميت أحياه ، وإن تجلى عليه بصفة العلم ، وكساه خلعة ذلك النور علمه بما مضى ، وماهو آت ، وما كان ، وما لم يكن ، لأن علمه تعالى متعلق بالواجب ، والمستحيل ، والجائز . أما تصريف القدرة والإرادة فلا يتعلق بغير الممكنات ، وإن تجلى عليه بصفة الحياة ، وهى لا تتعلق بشيء ، أحيا الله باطنه حياة سرمدية ، متصلة بالحياة الدائمة القائمة بالذات العالية ويكون لهذا الولى بعد هذه الخلعة إحياء القلوب القاسية من كل من رآه أو زاره ، حيا كان أو ميتاً ، ويكون له غير ذلك مما لا يمكن شرحه ، وإذا تجلى على وليه بصفات السمع والبصر ، وكساه خلعة من نور الازل ، كان لذلك الولى السالك طريق المقربين العارفين تعلق بالموجودات علويها وسفليها ، يسمعها ويراها بالسمع الكامل ، والبصيرة الكاملة ، فمن ذلك يسمع نطق الجمادات ، ويبصر ما لا تبصره العيون المبصرات ، وذلك شيء يسير من بعض آثار تلك الصفات القائمات بالذات ، فافهم . وإذا تجلى على وليه بصفة الكلام، وكساه خلعة من ذلك النور ، تكلم بالواجب والمستحيل والجائز من غير كلفة، وكلامه يسمعه من فى العرش من الاملاك ، ويخرق الله له فى التكلم عن كل أمر خفى العادات ، لأنه من أهل الحسنى والزيادات .

فافهم مدد الله لمن لم ينازعه فى صفاته القائمة به ، ويختلف أولياء الله فى الإمدادات بحسب مامضى من الصفات ، ولم تكمل خلع الصفات السبع إلا لسيد السادات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويختلف الاولياء فى تجلى

الصفات ، فالشيخ حسن مثلا ، كان له تجلى القدرة والإرادة ، والشيخ إدريس كان له تجلى العلم ، فكان يعلم بما مضى وماهو آت ، وهكذا .

كل واحد منهم له تجل خاص بصفة أو صفات خاصة عوضاً عما أفنى كل واحد منهم من الصفات المنازعة له تعالى . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم حديث مانع للمريد عن ادعاء الصفات القديمة ، والتعلق بها ، قال صلى الله عليه وسلم : من ادعى ببرهانه إلى نفسه كتبه الله من الجاهلين الخاسرين ومحاه من ديوان المتقين . وقال صلى الله عليه وسلم : من ادعى بعلمه كتبه الله من الجاهلين .

وأهل هذا المشرب يكفر أذى الخلق لهم . حكى عن سيدى أبى العباس الشاذلى أنه قال: أذانى إنسان مرة فضقت ذرعا ، فنمت فرأيت قائلا يقول لى : من علامة الصديقية كثرة أعدائها ، فكان من بعض بلواه ذلك الأذى لأنه كان من أكابر أولياء الله تعالى ، ومن من الله عليه إذا أراد الله أن يظهر أمرا فى الوجود أعلمه به قبل أن يظهره ، كما حكى عنه ، فلاتدع شيئاً من هذه الصفات ، كما ذكرنا لك . ولقد علم الله آدم الاسماء كلها فلم ينتفع بذلك العلم وإنما انتفع بالانكسار فى الذل والافتقار حيث قال كما حكى الله عنه : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . فالمنازعة له سبحانه تمنع المنح العزيزة فاحذر والله أعلم .

الحكمة الثامنة والعشرون

﴿ إن كنت عارفا به أشهدك موتك لكمال حياته ، وإن كنت عارفا بك غطى ذلك عنك ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لبعض ما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى الحسنة : « إن كنت » أيها المريد السالك مسالك التحقيق « عارفا به » أى بالله تعالى المعرفة الكاملة ، لا المعرفة الناقصة الناسوتية ، معرفة العوام . وقد أشار إلى هذه المعرفة الكاملة سيدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى حيث قال : من عرف الحق شهده فى كل شىء ، ومن فنى به غاب عن كل شىء ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئا .

فيؤخذ من ذلك أن الفناء نتيجة المعرفة والفتح فى المعرفة أعلى من المعرفة ، ومعرفة الخواص يشهدها الخواص منة منه تعالى عليهم ولا يسيئون الظن بأحد من العباد ويقولون فى أنفسهم ربما كانت فى قلوبهم معرفة زائدة من معرفتنا ولم يظهروها لنا وذلك لهم من شهود المنة ، فمن شهد المنة ، دخل فى باب الرحمة .

« أشهدك موتك لكمال حياته » أعنى أشهدك الشهيد . ليجعلك من أهل التمجيد ، موتك الكائن لك الذى لا زال له عنك ، لأن حياتك به تعالى ، لابك ، ومن كان حيا بغيره ، فهو غير حى فى حين حياته ، كما أن من كان فاعلا بغيره ، فهو غير فاعل فى عين فعله ، والله هو الهادى للسبيل ، وإليه المرجع وعليه التعويل ، قال الله تعالى : كل من عليها فان .

قال بعض العارفين بالله : فان ، أى فى الحال لا المآل ، فمن شهد فى نفسه أن حياته بغيره ـ وهو شهود ذوق ـ غاب عن كل حى سوى الله ، ولم يشهد فى نفسه إلا إياه ، فإن اضطرب وهام وقال أنا الحق فلا شىء عليه

عند العارفين أهل الحق ولا ملام ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، فما أنت وربك ولا حول ولا قوة إلا به .

« أشهدك موتك لكمال حياته » حياته أى المختصة بذاته الأزلية لأنه تعالى لو لم يتصف بها لاتصف بضدها وهو الموت ، والموت فى حقه محال ، لأنه من صفات الحوادث .

قال بعض المتكلمين : الاستدلال على كونه تعالى حيا بأنه عالم قادر ، والحياة صفة أزلية لله ، لا إله إلا هو الحى القيوم .

وقال الشيخ الحسن البصرى رحمه الله تعالى : إن حياته تعالى عين صحة اتصافه تعالى بالعلم والقدرة ، فليس هناك إلا الذات المستلزمة للعلم والقدرة .

وقال سلطان العارفين بالله سيدى عبد الكريم الجيلى فى كتابه المسمى بالإنسان الكامل فى الباب السادس عشر منه فى الحياة وجود الشىء لنفسه حياته التامة ، ووجود الشىء بغيره حياة إضافية له ، فالحق سبحانه وتعالى موجود لنفسه ، فهو الحى ، وحياته هى الحياة التامة ، فلا يلحق بها ممات ، والخلق من حيث الجملة موجودون ، فليست حياتهم إلا حياة إضافية، ولهذا التحق بها الفناء والموت ، ذكر ذلك صاحب «التقريب والتفريد على ياقوتة التوحيد» فانظر كمال حياته التامة ، وحقيقة المعرفة منه إليك ، لامنك إليه ، تكن عارفا .

« وإن كنت عارفا بك غطى ذلك عنك » أعنى إن كنت أيها المريد عارفا له بك ، بالاستدلال بعلم الدلائل والبراهين وقوة النفس فى المباحثة ، وقلة الالتفات إلى ما هو لك من عجز ، وضعف ، وذل ، وفقر ، غطى عنك ذلك ، أى المعرفة الكاملة اللاهوتية التى تهب لصاحبها القيام بحق العبودية وعدم المنازعة له أى الرضا بما قضى ، قال صلى الله عليه وسلم : كل شىء بقضاء وقدر .

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى إذا كان كل شيء بقضاء وقدر فالحزن لماذا ؟ فالعبد المشاهد لعبوديته يكون هكذا مع الله ، واعلم يا أخى أن الحق يتصرف لعباده حتى يشير الحق للحق ، ولا يشهدوا مع الحق خلقا ، فنسأل الله الكشف عن الحقائق حتى لا نعرف غيره سابقا ولا حقا منة منه له ، لامنا ، إذا المنة من الله لله ورسوله .

ولقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى كشف الحقائق فى قوله : ماأنا حملتهم إنما الله حملهم،وهو من دلائل الجمع والوصول ، وتلك الإشارة كانت لبعض أصحابه لأنه صلى الله عليه وسلم أعطاه الله علما أمره بإفشائه ، وعلما خيره فيه ، وعلما أمره بكتمه ، وهذا أول كلام حفظته فى هذه الطريقة .

فعلم من ذلك أن هنالك علما يخص به صلى الله عليه وسلم ، من أصحابه من خصه الله بذلك ، وهو علم الإشارة المبعد عن الشرك الخفى فى كل حركة وسكون ، المودع فى باء البسملة والله أعلم .

الحكمة التاسعة والعشرون

﴿ من الشرك المبعد عن المعراج ، وقوفك بين يدى الملك القدوس للصلاة ، وقلبك مشرك مع قدسه ، معرض عن وجهه . جائل فيما سواه ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « من » وهى هنا للتبعيض « الشرك » أشرك القلب بشىء سوى الرب . « المبعد » لك أيها المريد بالطرد والخذلان من حضرة الرحمن ، « عن المعراج » وهو العروج عن الأغيار ، لحضرة القهار .

قال سيدى الشيخ محمد السمان رضى الله عنه فى تحفة القوم : وفى الغوثية قال: سألت الرب عن المعراج ، فقال: ياغوث الأعظم لاصلاة لمن لامعراج له عندى ، ياغوث الأعظم المحروم من الصلاة هو المحروم من المعراج للحضرة العلية المنزهة عن كل نقص « وقوفك بين يدى الملك » المالك لكل مخلوق .

واعلم أن الشرك على قسمين جلى وخفى ، فالجلى اتخاذ إله غير الله وهو الكفر المحض نعوذ بالله منه ، والشرك الخفى دونه ، وهو مشاهدة العطاء والمنع ، والضر والنفع ، من غير الله تعالى ، نعوذ بالله منه ، وهو أعظم من كل معصية عصى العبد ربه بها ، والشرك الخفى حجاب عن حضرة الله لمن أراد أن يصل إليها ، قال : ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، وهى عند العارفين بالله تعالى رؤيته تعالى بالبصيرة فى دار الدنيا .

قال بعض العارفين بالله تعالى : فى الدنيا جنة ، من دخلها لم يشتق إلى جنة الآخرة ، ولا إلى شىء ، وهى المعرفة بالله ، وعند علماء الظاهر ، الشرك بالله تعالى يحرم على صاحبه دخول جنات النعيم فى الآخرة ، وهو كذلك عند العارفين أيضا ، إلا أن أهل الظاهر غابت عنهم جنة الدنيا ، وهى الرؤية ، فكلام أهل الباطن أتم وأكمل ، افهم تغنم .

« القدوس » : اسم من أسماء الله تعالى قال فيه الإمام البونى رحمه الله تعالى : إن معنى القدوس هو المنزه عن كل صفة نقص والموصوف بالكمال والتقديس وفى حق العبد الطهارة وفى حق البقاع مثل البيت المقدس والحديث الذى يلقيه الله فى القلوب بواسطة روح القدس وهو على خمس مراتب مرتبة السر والعقل والروح والنفس والقلب وذلك لأن العالم الإنسانى مقدس فى أصل الوضع منزه عن غير التوحيد « للصلاة » وهى صلة بين العبد وربه وحضرة من حضرات الله للمقربين والأبرار ، فالمقيم لها على وجه الأدب والحضور مع الله يملأ قلبه بأنوار المعارف وتكشف له حجب الآثار .

والصلاة حضرتان : حضرة مراقبة ، وهى للأبرار ، وحضرة مشاهدة ، للمقربين .

وصفة حضرة المراقبة انكشاف الحجب للعبد حتى يشهد نفسه أنه بين يدى ربه ، وهو تعالى يراه ، ويسمعه .

وحضرة المشاهدة رؤية الحق بعين القلب فى نفسه ، وفى غيره ، فى كل حركة وسكون ، فى الركوع والسجود .

فعليك أيها المصلى بالحضور مع الله ، فى الله لله ، قال صلى الله عليه وسلم : كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب .

« وقلبك » أيها المصلى فى حالة توجهك إليه ، وقيامك بين يديه ، « مشرك مع قدسه » قال الله تعالى فى الحديث القدسى : أنا أغنى الشركاء فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء .

وقال ابن عطاء الله فى حكمه : كما لايحب العمل المشترك لايحب القلب المشترك ، والعمل المشترك هو لايقبله ، والقلب المشترك لايقبل عليه .

ومما يؤيد ذلك ما رأيته فى واقعة منامية : رأيت كأنى أصلى ، فلما سجدت سها قلبى فى غير الله تعالى ، فقيل لى : اشتراك العقل بغير الله شرك .

قال صاحب كتاب رسالة المريد : واحذر أن تناجي ملك الملوك ، وجبار الجبابرة ، بقلب لاه مسترسل فى أودية الغفلة ، والوساوس ، جائل فى ميادين الخواطر والأفكار الدنيوية ، فتستوجب المقت من الله ، والطرد عن باب الله ، قال صلى الله عليه وسلم : إذا قام العبد إلى الصلاة ، أقبل الله عليه بوجهه فإذا التفت إلى ورائه قال الله : ابن آدم التفت إلى من هو خير لك منى ؟ فإذا التفت الثانية قال مثل ذلك . فإذا التفت الثالثة أعرض الله عنه ، فإذا كان الملتفت بوجهه الظاهر يعرض الله عنه ، فكيف حال من التفت بقلبه فى صلاته إلى حظوظ الدنيا وزخارفها ، والله تعالى لا ينظر إلى الأجسام والظواهر ، وإنما ينظر إلى القلوب والبواطن والسرائر .

واعلم أن جميع العبادات معناها إنما هو فى الحضور مع الله . فتى خلت العبادة عن الحضور فهى هباء منثور ، ومثل الذى لا يحضر مع الله تعالى فى عبادته . مثل الذى يهدى إلى ملك عظيم صندوقا فارغا ، فماذا يجد من الجزاء غير العقوبة . والحرمان من المثوبة .

« مع قدسه » أى مع حضرته المقدسة التى يستغرق صاحبها فى بحار العظمة وأنوار الأزل « معرض عن وجهه » أى لا حضور له فى حضراته ، حضرات الصلوات ، قال صلى الله عليه وسلم : وجعلت قرة عينى فى الصلاة .

وقال ابن عطاء الله : قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود ، قلت : ومعرفة المصطفى صلى الله عليه وسلم بمشهوده هى المعرفة الكاملة ، ولذلك كانت قرة عينه فى الصلاة لأنه لا يشهد فى الصلاة إلا مشهده فى قاب قوسين أو أدنى . والعبد إذا لم يحصل له الحضور ، ويصير من أهل الله ، فليكثر من ذكر الله ، فإن ذلك يكون سببا له فى الحضور ، ويصير من أهل أفضلية الإيمان . قال عليه الصلاة والسلام : أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه .

وقد قلت فى هذا المعنى أبياتا من لازم معناها كان من الخواص من العباد ، وأعنى بهم طائفتى المقربين والأبرار ، فإنهما خواص عباد الله تعالى ، فالأبرار

يشهدون أن الله ينظر إليهم ، ويراهم ويسمعهم فى حركاتهم ، والمقربون يشهدون الحق سبحانه وتعالى بعيون قلوبهم فى الآفاق وفى أنفسهم وفى كل شىء ، فيركعون به ، ويسجدون به ، ويقومون بكل حركات الصلاة به .

وهذه هى الأبيات :

ياجاهلا رد السلام على الذى	يحيي العظام رميمة تربيه
حضر فؤادك فى التحية إنها	هى رده فى الحضرة القدسيه
والزم لقلبك لايلاحظ غيره	فى العالم العلوى والسفليه
أنامذهبي المعراج حقا فى الصلا	ة وذاته جلت عن الأينيه
هو ماجرى للهاشمى رسولنا	لعلو رتبته على الخلقيه
هذا شراب الأكرمين وغيرهم	إبليس يسقيهم من الناريه
فاشهد لمعراج النبى محمد	لتنال أوطارا هناك عليه
ثم الصلاة على الرسول الهاشمى	عدد الخلائق بكرة وعشية
والآل والصحب الكرام وتابع	ما ماس البان بنفحة عطريه

قال بعض العارفين بالله تعالى : كم من مصل فى صلاته ، أعرض عن المعبود فى طاعاته : فينبغى لمن أقبل على الصلاة ، أن يحضر فى باله أنه مناج لله تعالى فيها ، لأن من انحرف بباطنه عن الله تعالى ، أشرك مع الله ماانحرف بباطنه إليه ، فحجب عن جنة المعرفة والشهود ، فاحكم قلبك ياضرير واجعل نفسك واقعة بين يدى السميع البصير ، فإنك سالك من جملة السالكين ، والواجب عليك خلاف نفسك حتى تصل وتتصل بعين اليقين ، وحق اليقين .

ولننتقل بعد ذلك بعون الله إلى الحكمة التالية المعرفة بين الشريعة والحقيقة ، وفوق كل ذى علم عليم .

الحكمة الثلاثون

﴿ الحقيقة مشهدها أن الله واحد فى فعله . والشريعة مثبتة لأفعال خلقه بكثير قوله ، فمن اعتقد فاعلا غير الله فشركه جلى ، ومن كان مسنداً لخالقه مع اعتماده عليه فشركه خفى ، فمن غاب عن الآثار بشهود المؤثر فصاحب حقيقة فقط ، ومن شاهد الآثار ولم تحجبه عن رؤية المؤثر فصاحب حقيقة وشريعة ﴾ .

(ش) قلت به عنه ، لابى ، ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة من الفرقان بين الأمرين الجامعين : الحقيقة والشريعة .

اعلم أيها الناظر بالعقل النورانى ، فى العلم الربانى ، والسر العرفانى ، أن الحقيقة مشاهدة ، والشريعة مجاهدة ، وكلتاهما يشهد لها الكتاب الكريم والسنة الشريفة .

إلا أن أدلة الحقيقة قليلة فى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها لخواص خواص عباده قال تعالى مربياً لحبيبه بالحقيقة ومشاهدتها : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وقال لأصحابه : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، فنفى بذلك فعل الإجرام ، وأثبت الفعل إليه من غير إيهام ، وقال تعالى فى حق السحرة : وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، أى إلا بإرادته وقدرته ، وقال : إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله . وقال : أولم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ، وقال : أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز . قلت : والظاهر أنها ساقها الحراث ، وقال تعالى : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ، أى بعونه تعالى ؟ وقال : ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، و: هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، كما قال تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ، وكنا

فاعلين ، فنفى فى كل واحدة من هذه الآى فعل الإجرام وأثبت الفعل إليه من غير إيهام .

ومن أدلة الحقيقة ، النافية لفعل الخليقة ، والمثبتة للفعل له وحده دون غيره قوله تعالى : ولو شاء الله مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد ، وقوله تعالى : ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين ، معنى ذلك لو شاء لجمعهم أى الخلق على الإسلام ، فقاموا بأركانه كالصلاة والصيام ، فلا تكونن من الجاهلين بمعرفة الملك العلام ، وقوله تعالى : ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .

وأما ماورد فى السنة من بعض الأحاديث الدالة على الحقيقة فكقوله عليه الصلاة والسلام:اللهم أرنا الأشياء كما هى،وقوله عليه السلام : لاتحمدن أحداً على فضل الله ، ولاتذمن أحدا على مالم يؤتك الله ،كما قال عليه السلام لأصحابه حين بايعهم : ماأنا حملتهم ولكن الله حملهم ، وفى هذا المعنى جمع الجمع بالأحدية ، فافهم علم الحقيقة .

وقال بعض العارفين بالله فى أسرار السماع : من لم يسمع من نفسه على لسان غيره ، ماشم رائحة المعرفة ، وروى أن دعبلا اليمانى قال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه : هل يرى أحد منا ربه يا إمام؟ فقال له ويحك يادعبل ، لن تراه العيون بالعيان ، وإنما تراه القلوب بحقائق الإيمان . قلت : وقوله « ويحك » أراد به الرحمة أى يرحمك الله ، بخلاف «ويل» فإنما يراد بها العذاب لمن استحق ذلك .

هذا ، وقد قال الشيخ زروق : ماكان من التصوف فى وجوه التوجهات لزم بذله لكل أحـــد ، يعنى بذلك التعبدات بكيفية الصدق مع رفيع الدرجات ، قال : وماكان منه فى الأحوال والمنازلات ، اقتصر به على المريدين والعارفين ، غير أن المشايخ اختلفوا فى ذلك فقال إمام الطائفة

الجنيد رحمه الله تعالى : يبذل لأهله ولغير أهله ، والعلم أحمى جانباً من أن يصل لغير أهله . وقيل له : كم تنادى على الله بين العامة ؟ فقال لا ، بل أنادى على العامة بين يدى الله . هذا إلى أنه رضى الله عنه كان يجيب السائل على قدر سؤاله كما نقله السهروردى رضى الله عنه ، وقال : أى الجنيد رضى الله عنه : لو أعلم أن تحت أديم السماء علما أشرف من هذا العلم الذى نتكلم به مع أصحابى لسعيت إليه .

وقيل للثورى : ألا تذكر أصحابك ، فقال إنهم فى حجاب القطيعة ، وهذا خلاف الأول ، وقال ابن الجلاد : من عامل الحق بالحقيقة والخلق بالحقيقة ، فهو زنديق ، ومن عامل الحق والخلق بالشريعة فهو سنى ، ومن عامل الحق بالحقيقة ، والخلق بالشريعة فهو صوفى ، وهو أخص ، قال صلى الله عليه وسلم : الشريعة مقالى ، والطريقة فعالى ، والحقيقة حالى ، يعنى حال قلبه مع الله تعالى .

ولكل واحدة آداب .

فالشريعة آدابها اتباع الأوامر ، واجتناب النواهى ، والطريقة آدابها أن تفرق بين مالك . وما له ، والحقيقة آدابها شهود المنة له .

والإرشاد فى ذلك على ثلاثة أقسام : الأول فى الشريعة ، والثانى فى الطريقة ، والثالث فى الحقيقة . فالإرشاد فى الشرع التعريف بما يجب على المكلف من الحدود والأحكام ، والإرشاد فى الطريقة ، تعريف النفوس ، بما يكون فيها من البؤس ، وتعيين الدواء لكل مايرد على الباطن من الواردات النحوس ، والإرشاد فى الحقيقة تعريفك بالخروج عن أفعالك وأحوالك وأوصافك وذاتك حتى تخرج من شهود الوجود الوهمى ، إلى شهود الوجود الحقيقى ، فعند ذلك تغيب عن شهود الآثار بشهود المؤثر ، وإن شهدت الآثار ، ولم تحجبك عن المؤثر ، فقد بلغت مجمع البحرين ، نكتة

عرفانية فى علوم الروحانية : إذا رأيت أوسمعت أقوالا أو أفعالا فى ضرب من ضروب الملاهى أوالأحزان أوغير ذلك ، وقلت إنها من الله . فقدأثبت الوحدانية له ، ولـكنك فى نفس الوقت خالفت شرع نبيك عليه السلام ، وإن قلت إنها من غيره فقد أثبت له شريكا فى وحدانيته ، وأشركت به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، فأية حالة تثبت عليها أيها الأخ حتى تخرج من الوصفين فالذى يخرجك أيها العبد القاصد حضرة الرب من هذا المأزق هو أن تجعل ظاهرك مجاهدا فى الأمر والنهى ، وباطنك مشاهداً له ، فتكون بفضله عبدا زكياً .

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» فى الشريعة لابد من نسبة الفعل إلى المخلوق ، لأجل ما كلف به من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وفى الحقيقة لافاعل إلا الله ، فلابد من الجمع بين النسبتين والشهود للحضرتين . . والله أعلم .

الحكمة الحادية والثلاثون

﴿ إن أردت الشرب من بحر الحقيقة ، ولك شيخ مذاقه كامل ، ونوره هاطل ، وقلبه عما سوى الرحمن غافل ، فلا تكره ما يؤدبك به ، فإنه يريد بك الأدب مع ربه ﴾ .

(ش) قلت به عنه : بحر الحقيقة هو مشاهدة وحدة الوجود ، فمن لم يشهد وحدة الوجود ، ويغيب فى المشهود ، فنوره مفقود وقلبه مسدود ، قال بعضهم : لو عرف الله شخص بالصفة الوجودية دون غيرها لطالعت روحه ، ومات فى حينه من لذة معرفة الله ، قلت: المراد بذلك المعرفة الكاملة الذوقية ، لا المعرفة النقلية العقلية .

وقال العارف بالرحمن الشيخ ابن علوان رضى الله عنه :

وقطرة منه تكفى الخلق لو طعموا
فيشطحون على الأكوان بالتيه

قال شارحها رضى الله عنه : قطرة من شراب الحقيقة لو شربها الخلق أجمعهم لكفتهم وأسكرتهم وأخرجتهم عن وجودهم الوهمى . إلى الوجود الحقيق ، وأشرقت فيهم الأنوار الإلهية .. واضمحلت الظلمة الجسمانية ، فيشطحون على الأكوان بالتيه ، تائهين مستغرقين فيما غمرهم به مؤنسهم من بحار الإحسان ، وكل عبارة صدرت عنهم فى هذا المقام فلا لوم عليهم فيها ولا حرج ، فإنه مقام يذهب فيه التمييز لسطوع الشمس الحقيقية ، وتذهب نجوم الفرق فيه عن شهود أهل الطريقة قال بعضهم :

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت ... أرض النفوس ودكت الأجبال
لرأيت شمس الحق يسطع نورها ... عند التزلزل ، والرجال رجال

قال الله تعالى : فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا . .

قال ابن عباس رضى الله عنه : ظهر نوره للجبل فصار ترابا . وقال فى « صعقا » يعنى مغشيا عليه ، وقال قتادة : ميتا ، فذلك شراب أهل الحقيقة الذين يشهدون الحق فى تجليه ، وقال سيدى ابن علوان أيضا :

وذو الصبابة لو يسقى على عدد الـ أنفاس والـكون كأس ليس يرويه

وقال بعضهم :

شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفذ الشراب ، ولا رويت

ولم يكن ثمة شراب فى هذا البحر العجاج . إلا على يد شيخ له معراج . وسراج وهاج . قال ابن علوان رحمه الله تعالى عنه فى ذلك الشيخ :

إن كنت تقصد أن تحظى بصحبته فاسلك على سنن طابت مساعيه

فمن أراد أن يحظى بصحبة شيخ كامل ، فان عن نفسه ، باق بربه . فليسلك على سننه ، وليكن متأدبا بين يديه ، وينكسر بحضرته انكسار الذليل الخاضع ، ولا يرى لنفسه حالا ، ولا مقاما معه ، ولا يخالفه فى الظاهر ، ولا يعترض عليه فى الباطن . قالوا : من قال لشيخه لم ، لم يفلح .

وقال ابن علوان :

أخلص ودادك صدقا فى محبته والزم ثرى بابه واعكف بناديه

يعنى الزم طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، قال صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى يكون تابعا لما جئت به ، والكمل لهم وراثة من ذلك ، فكلما أخذ وردا من شيخه ، فكأنه أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أشكل عليه أمر من أحواله فى الظاهر ذكر قصة موسى عليه السلام ، وتمسك بها فى رفع ذلك الخاطر ، وإن عجزت عن التأويل فارجع إلى التسليم فان ذلك فيه دواء لك ياسقيم .

قال بعض الأخيار : أكمل الطرق إلى الله تعالى ، كتاب الله فاجعله دليلك فانه أصدق الأدلة .

وقال بعض العارفين بالله تعالى : حقيقة الشيخ المصلح أن يكشف للمريد عن المؤثر لا أن يكشف له عن الآثار ، لأنها ليست هي المطلوبة . وإنما المطلوب وجه الله الحي القيوم ، الذي لاتأخذه سنة ولا نوم ، وأهل الدنيا لو تعرف لهم الله سبحانه وتعالى بالصفات الربانية ، لم يطيقوا ذلك لعدم ارتباط الحدوث بالقدم .

قال بعض أهل الحقائق : لله عباد يتعرف إليهم بالصفات الربانية ، وهم الذين أبدعهم من نوره ؛ وقال الشيخ العارف بحر المعارف سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنـــه : ربما أطلعك على غيب ملكوته وحجب عنك الاستشراف على أسرار العباد .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : غيب الملكوت ماخفى إدراكه من العلوم ، يعنى بذلك علوم المشاهدات الربانية ، والتجليات الإحسانية ، وقال بعض العارفين بالله تعالى : الملك غيبه الملكوت، والملكوت غيبه اللاهوت . فحقيقة الشيخ الكامل أن يكشف لمريده ، عن المؤثر ، لاعن الآثار فربما كان اطلاعه عليها من غير مشاهدة سببا يجر الوبال عليه ، والله أعلم ، بكل أمر مبهم .

الحكمة الثانية والثلاثون

﴿ آيتان يطهران قلب المؤمن المعتبر من الشرك الأغمس : آية الإمساك ، وآية المس وهما : مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وأن يردك بخير ، فلاراد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده . وهو الغفور الرحيم ﴾ .

(ش) قلت به عنه : هاتان الآيتان دالتان على معنى الاعتماد على الله فى السر والإعلان ، وإسقاط الوسائط ، من جماد . ونبات ، وحيوان ، وإن اختلفت ثمارها ، وتنوعت أزهارها (تسقى بماء واحد) يشيران إلى ثبوت الوحدانية له تعالى ، ونفى ماسواه فى العطاء والمنع ، والضر ، والنفع ، من كل مخلوق .

قال بعض العارفين بالله تعالى : إسقاط الوسائط ولاية عظمى . وكمال الإيمان ، الاعتماد على الله فى السر والإعلان ، فالمؤمن إذا اعتبر فى هاتين الآيتين ، فانهما تطهران قلبه من بعض الشرك الأغمس أى الخفى ، وتحملانه على مراتب الإيمان الثلاث : الفراسة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، ويصير عارفا بالله ، لله ، فى الله ، سيره بالله ، مع الله ، لاينظر لسواه ، فى رحمة أو إمساك .

قلت فى ذلك :

إذا أكرم الرحمن عبدا بنعمة   فلا يقدر المخلوق يوما يبزه
ومن كان مولاه العزيز أهانه   فلا أحد فى الكائنات يعزه

فمن سكن سره لغير الله تعالى ، نزع الله نور الإيمان من قلبه ، وألبسه لباس الطمع فى غيره ، وصار نظره إلى المخلوقين دون خالقه .

قال سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : أيست من نفع نفسى لنفسى ، فكيف لا أيأس من نفع غيرى لنفسى ، ورجوت الله لغيرى ، فكيف لاأرجوه لنفسى .

وقال ابن علوان : لاتعتمد فى ظاهرك ، وباطنك إلا عليه ، ولا تعول فى سائر أمورك إلاعلى فضله ، وانطراحك بين يديه ، فان جاءك الوسواس من أمر الرزق فاتل على نفسك : رب المشرق والمغرب لا إله إلا هوفاتخذه وكيلا ، وقل يانفسى هذا مولاك قد أشار عليك بدواء نافع ، وبين لك أن المشرق والمغرب فى يده فلم تتهمينه بأمر الرزق وأنت متوجهة إليه ؟

قال يحيى بن معاذ : من فر إلى الله ثم اتهمه فى أمر الرزق ، فقد فر منه لافر إليه .. وقال تعالى : لا إله إلا هو أى لاضار ولا نافع ، ولا معطى ، ولا مانع إلاهو ، فكيف تلتفت إلى سواه ، والمشرق والمغرب له ، وأنت لووجدت مخلوقا يتكفل بأمرك ، وهو ناصح فى ذلك عالم بمصالحك اعتمدت عليه ، وكيف تركن إلى الأثر ، وتترك المؤثر ، وتلجأ إلى السبب ، دون المسبب ، وإن كنت لم تشهد الآثار فطريقك خرق الآثار ، حيث لم تر سواه ، ولم تشهد إلا إياه فلكل مقام مقال ، وعلامة صدقك فى دعواك شهود الجمال فى جميع الأحوال :

إذا ما رأيت الله فى الكل فاعلا رأيت جميع الكائنات ملاحا

وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه شكا له شخص الهم فقال له عليه الصلاة والسلام : قل الله ربى ولا أشرك به أحدا .

قال بعض العارفين : أشار صلى الله عليه وسلم بذلك إلى أن الهم سببه الشرك ، فعلاجه الرجوع إلى التوحيد ، لأن علاج كل شىء بضده : وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه فى وصيته إليه : « ياغلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت فاسأل

الله . وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف ، فمن تحقق بمعنى هذا الحديث خرج والله من الشرك الأغمس . ولقد رأيت ذات ليلة قائلا يقول : لى الخوف شرك . ومن الشرك الأغمس قول البعض : لولا فلان لرحمنى فلان ، ولولا زيد لضربنى عمرو .

قال الشيخ السنوسى رحمه الله تعالى . لا تأثير لشيء من الكائنات فى أثر ما ، والله أعلم وفى توحيده أحكم .

الحكمة الثالثة والثلاثون

﴿ معرفة توحيد الظاهر تقوية لتوحيد الباطن ، إن سلم صاحبه من دائه الكامن ، ونظر إليه تعالى وحده فى المتحرك والساكن ﴾ .

(ش) قلت به ، لابى : إن معرفة توحيد الظاهر هى أن تعرف مايجب لله تعالى ومايستحيل ، ومايجوز،وأن تعرف كذلك رسله الواجبة معرفتهم ، ما يجب فى حقهم ، وما يجوز ، وما يستحيل عليهم . فمن عرف ذلك كله ، سلم من الداء الكامن ، وهو ترفعه بتوحيده ، ورؤيته له فى إعداده وتجهيزه ، وتجهيله لمن سواه فى ظاهره أو باطنه ، وسوء ظنه بخلق ربه ، إن سلم من هذا كله ، « ونظر إليه تعالى وحده فى المتحرك والساكن » كانت معرفته هذه تقوية لتوحيد الباطن ، لأنه أصبح من أهل التنزيه ، العارفين بذاته تعالى وصفاته وأفعاله عن التشبيه ، وهأنا الذى لاأنا ، أبين لك الفرق بينهما فى وحدة الأفعال ، دون وحدة الأسماء والصفات والذات .

قال الشيخ السنوسى رضى الله عنه : لاتأثير لشىء من الكائنات فى أثر ما . فلا فرق بينهما إذن فى الاعتقاد ، إلا أن أهل توحيد الظاهر يقفون مع الاعتقاد ، وأهل توحيد الباطن يفارقونهم بالسير فى الفكرة فى ذلك ، حتى فى الحركة والسكون ، وما كان وما يكون حتى يغيبوا بشهود المؤثر عن شهود الأثر ، وعندذلك يظهر لهم عن طريق وحى الإلهام توحيد الأسماء والصفات والذات ، قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالفكرة العليا ، حتى تعرفوا الله حقا وصدقا . قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : لن يصل العبد لربه حتى يغنى عن أفعاله وصفاته وذاته .

وقال سيدى ابن علوان : كلما تحقق السالك بوصف من أوصاف عبوديته ، أمده الحق بوصف من أوصاف ربوبيته . افهم تغنم . قلت من شاهد التأثير من عين القدم فهو له ، ومن شاهده من عين الحدوث فهو له .

وقال عالم العلماء الإمام البونى رحمه الله تعالى: لا تأثير للحيوان فى الحركة بالكلية ، وإنما يخلق الله الحركة عند مباشرته لها، ولا تأثير للنار فى الإحراق، ولكن يخلق الله الإحراق عند ملامستها وقس على ذلك . قلت : فهذه صفة مقارنة القدرة القديمة للحادثة .

قال سيد الطائفة علما وعملا أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى : إذا قرن الحادث بالقديم ، لم يبق للحادث أثر مستقيم ، قلت : يستحيل عليه تعالى ألا يفعل فعلا إلا بمقارنة الغير ، كالأسباب العادية ، والقدرة الحادثة الحيوانية، فإن ذلك نقص فى غناه المطلق عن كل قيد . وقلت فى ذلك المعنى :

ياجاهلا فعل الإله وفعلكا وهما كشخصك إن عقلت وظلكا
إن كان ظلك فى الحقيقة فاعلا فالفعل منك فأين أنت وعقلكا

وأما الجبرية فسبب ضلالهم نفى القدرة الحادثة بالكلية ، ونسبة الظلم والجور لخالقهم فى إثابة المطيع وتعذيب العاصى ، وقالوا : لاقدرة للعبد تقارن فعله ، وقولهم باطل لثبوت القدرة الحادثة شرعا وعقلا . وأهل السنة يقولون سبحان الغنى عن الاقتران حين يفعل ، عز وجل ، وإنما جعل ذلك لثبوت التكليف .

وعند العارفين بالله من شاهد لنفسه توحيدا لها فقد أثبت لها التأثير مع الله ، وهو محال ، لأن صفتها العجز عن الفعل ، فافهم الشرك الخفى ، وانظر في « لاحول ولا قوة إلا بالله » ، والله أعلم وفى توحيده أحكم .

الحكمة الرابعة والثلاثون

﴿ ما أحب رجل أن يعرف بظهور الكرامات منه ، وانقياد الخلائق عليه ، إلاذهب دينه،وفسد فى مولاه يقينه،ادفن نفسك فى التراب،واذكره امتثالا وحبا وبنية الأسباب ، تنل مواهب الوهاب ﴾ .

(ش) قلت به عنه : هذه الحكمة نافعة لكل مراد ومريد خائفين من الانقطاع عن الله ، لأن السير إليه ، مع الالتفات لسواه حجاب شديد ، قطعه بعيد لكل مراد ومريد . فكل قلب نظر تعالى إليه فوجد فيه غيره من المخلوقات ، أعرض عنه ، لأنه تعالى كما لايحب العمل المشترك لايحب القلب المشترك .

« ماأحب رجل أن يعرف بظهور الكرامات منه وانقياد الخلائق عليه إلاذهب دينه وفسد فىمولاه يقينه » : لأن السالك لايكمل حاله مع الله تعالى إلا بعد الخلاص من الخواطر النفسانية والواردات الشيطانية ، كحب الكرامات ، وحب جلب المخلوقات ، فان أمثال تلك الخواطر والواردات دالات على عدم الصدق فى العبودية له تعالى .

قال ابن عطاء الله رضىالله عنه : استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك، دليل على عدم صدقك فى عبوديتك .. قال الشيخ زروق رضى الله عنه :

الخصوصية مايمتاز به المرء عن غيره . قلت : حب الكرامة ، وانقياد الخلق عامة ، موجب للحسرة والندامة . ومن استجاب للدسائس على علمنه فهو مراء ، ومن أراد أن يطلع الناس على حاله فهو كذاب . قال الإمام البونى رحمه الله تعالى : التطلع إلى الكرامات منذنوب العقل ، وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى منظومته الشافية للقلوب :

فمن يكن يعتمد الكرامة   فعن قريب يجتنى الندامة
قال الجنيد العالم الذكى   ألطف مخدوع به الولى
كرامة ومثلها معونة   إن لم يرس فى كلها شئونه

وقال بعض العارفين بالله : من حفظ نفسه من الوساوس الشيطانية ، والهواجس النفسانية وسار على السنة بالإخلاص ، كان من أهل الاختصاص. ما أكرم الله عبدا بكرامة أكمل من الاستقامة ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. السلامة فى حق الولى عدم ظهور الكرامة.الكرامة برهان الولى عند الخلق ، وكتمان الكرامة برهان الصدق فى العبودية عند الحق،وشتان ما بين البرهانين ، وعلامة الإخلاص ملاحظة الحق ، مع قطع النظر عن ملاحظة الخلق .

ثم قال رضى الله عنه : الطهارة على ثلاثة أقسام : طهارة بالماء والتراب شريعة ، وطهارة بالتوبة عن السيئات طريقة ، وطهارة من رؤية الحسنات حقيقة ، فافهم ، وطهر نفسك من نفسك . « واذكره امتثالا ، وحبا ، وبنية الأسباب تنل مواهب الوهاب » كل ذلك مع « دفن نفسك فى التراب » فان لازمت ذلك ، نجوت من المهالك .

قال سيدى ابن عطاء الله رضى الله عنه:ادفن وجودك فى أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه ؛ وقال سيدى مصطفى البكرى رضى الله عنه :

وشيمة الزاهد للرياسة   يقيم فى أرض الخفا أساسه
وشيمة الزاهد فى سواه   لا يلتجى إلا لمن سواه

فمن كان ملازما لذكر الله تعالى ، باقيا على ما تقدم من الإخلاص كان له من نور ذاته تعالى الاقتباس ، فليكثر من ذكره عز وجل . فقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : يا رب ، وددت أن أعلم من تحبه من عبادك فأحبه . فقال تعالى : إذا رأيت عبدى يذكرنى فأنا أحبه ، وإذا رأيته لا يذكرنى فأنا أبغضه .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال له بعض أصحابه يارسول الله : كثرت علينا شعائر الإسلام فدلني على عمل أدرك به مافاتني وأوجر عليه . فقال عليه السلام : لايزل لسانك رطبا بذكر الله .

وقال عليه الصلاة والسلام: من صلى الصبح في جماعة ، ثم قعد في مصلاه يذكر الله حتى طلعت الشمس ، ثم صلى ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة ، تامة تامة ، وقال صلى الله عليه وسلم : مامن قوم مجتمعين يذكرون الله تعالى لايريدون بذلك إلا وجه الله تعالى إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم ، بدلت سيئاتكم حسنات ، فمن أراد الوصول إلى تجليات الذات والسر المستور ، فليكثر في الذكر بالحضور . . والله أعلم .

الحكمة الخامسة والثلاثون

﴿ الرياء مانع قوى عن حضرة وحدة المولى لأنه تعالى أغنى الشركاء . وهوعلى ثلاثة أقسام رياء فى الأقوال ، ورياء فى الأفعال ، ورياء فى الأحوال عند ظهورها والخفاء ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : اعلم أن الرياء شرك بالله تعالى ، وهو الشرك الأصغر .

روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : إن أخوف ماأخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله قال لهم الرياء فإذا جاء العباد بأعمالهم يوم القيامة يقول الله لهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون، هل تجدون عندهم الجزاء .

وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى أنا أغنى الشركاء ، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، واعلم ياأخى أن الرياء يكون عند الفقهاء فى أقوالهم ، وعند الفقراء فى أعمالهم وأحوالهم ، وذلك مانع قوى ، وحجاب كثيف عن حضرة الله تعالى فإنه لايدخل فيها إلا من كان مقدس الأقوال والأعمال والأموال .

قال سيدى أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه : الفقهاء يعنى بذلك العلماء يراءون بالأقوال ، والفقراء يراءون بالأحوال ، ومصدر ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الشريعة مقالى والطريقة فعالى والحقيقة حالى ، فرياء أهل الشريعة أكثره فى أقوالهم ، ورياء أهل الطريقة أكثره فى أعمالهم ، ورياء أهل الحقيقة أكثره فى أحوالهم ، وكل من ذلك على ثلاثة أقسام :

فأقسام الرياء فى الشريعة هى :

الأول : أن يتكلم الجاهل بها من غير علم لها ، جلباً لرؤية الناس له ، وتغطية لهم عن جهله بها ، فعليه وزران ، وزر الرياء ووزر الكبر .

الثانى : أن يقصد بأقواله فى العلوم الدينية تجهيل غيره بها ، فيتصدر للمسائل ، ويتعرض لمقابلة أهل العلم لإظهار شأنه .

الثالث : أن يقصد بأقواله فى العلوم الدينية انتفاع الخلق ، لوجه رب البرية ، لكن يحب شعور الخلق بقصده وإخلاصه فى ذلك ، والكل رياء إلا أن بعضه أخف من بعض ، إذ أن الرياء فيه أعلى وأوسط وأدنى .

وأقسام الرياء فى الطريقة أى الأعمال الدينية هى :

الأول : أن يقصد السالك رؤية الخلق لأعماله ولولاهم لم يفعل خيرا ، فهو يتعرض لهم ، ويتصيد رؤيتهم له .

الثانى : أن يقصد السالك بأفعاله الدينية وجه ربه بالكلية ، لكنه مع ذلك يريد ظهور قصده لذلك عند الخلق .

الثالث : أن يقصد بأعماله وجه الله فقط ولا يحب اطلاع الناس على فعله ، لكن إن أطلعهم الله بما من عليه فرح ورضى .

وأقسام الرياء فى الحقيقة وهو يشمل الرياء فى الأحوال هى :

الأول : أن يحاول إظهار أحواله الباطنية لأعين الناس طلباً للمكانة عندهم .

الثانى : أن يكون حاله صادقا مع الله تعالى لكن يريد ظهوره فى الخلق .

الثالث : أن تكون أحواله صادقة مع الله تعالى ولا يحب اطلاع الناس عليها ، لكن إن أطلعهم الله عليها فرح بذلك .

وكل ذلك من الشرك الخفى ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، ومامنا إلا له مقام معلوم .

هذا وقد قال سيدى ابن عطاء الله : ربما دخل الرياء عليك من حيث لاينظر الخلق إليك ، وقال غيب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك وغب عن وجود إقبالهم عليك ، بشهود إقباله عليك ، قلت : من نظر إلى الله نظار الله إليه خشية فلم ينظر إلى الاغيار ، من نافع فى الظاهر وضار ، ولا شك أن المرائى لايرائى إلا لحب نفع أو لخوف ضرر .

فالرياء جلى وخفى ، والخفى أضر من الجلى لعسر دوائه ، وخفاء سريانه . نعوذ بالله من جليه وخفيه ، إنه على ذلك قدير .

الحكمة السادسة والثلاثون

﴿ كن لله عبداً فى المراد ، ولا تكن له عبدا صاحب عناد ، يمدك بأسرار ربوبيته بين العباد ، فإن لم ترض بفعله بك ، فأنت عبد لنفسك وهواك . وشيطانك ودنياك ﴾ .

(ش) قلت به عنه طالبا المن . . : أيها الفقير المتعرض لنفحات القدير ، « كن لله عبداً » أعنى متصفا بأوصاف عبوديتك الملازمة لك كالذل لافتقار ، والعجز والضعف والعيب والانكسار ، والعدم والفناء والصغار ، وغير ذلك مما هو مناسب لعبوديتك ولا يفى بعده المقال ، وكل وصف من أوصاف عبوديتك ، له ضد من أوصاف الربوبية ، وأوصاف الربوبية لاتتناهى ، فكذلك أضدادها التى هى أوصاف العبودية .

قال الشيخ زروق ، رضى الله عنه : أربعة من أوصاف العبودية ترجع إليها جميع الأوصاف يعنى تجمع معانيها ومنافعها . وهى الذل والافتقار والعجز والضعف .

« فى المراد » أى فى كل ماأراده بك وقضاه عليك .

« ولا تكن عبدا صاحب عناد » أى معاندا له تعالى ومنازعا إياه فى أوصاف ربوبيته المختصة به ، كالعزة ، والغنى ، والقدرة ، والقوة والعظمة ، والكبرياء ، والوجود، والبقاء ، وغير ذلك مما لايتناهى فى أوصاف الربوبية ، « يمدك بأسرار ربوبيته بين العباد » كالعزة به ، والغنى به ، والقدرة به ، والقوة به . وغير ذلك حتى لتقول للشىء كن فيكون بإذن الله ، فتصير من أهل التصرف بين العباد ، وعينا من عيون الله فى البلاد .

قال سيدى ابن عطاء الله : تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، افهم مامر آنفا، تكن بالله عارفا ، فحقيقة المريد ، الطالب المزيد ، أن يكون مراده فى مراد

الله ؛ لأن الرضا من شرط العبودية لله تعالى ، ولا يصح مشروط إلا بشرطه ، فافهم .

روى عن سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه أنه رأى الحق فى المنام ، فقال له تعالى ماتريد ياأحمد ، فقال له ماأريد إلاماتريده أنت . فقال له تعالى: ولك المراد منى ياأحمد ، ولك فى كل يوم مائة حاجة مقضية .

فافهم ياأخى قدر الرضا والتسليم ، والقيام بحق العبودية بين يدى الملك العظيم ، فإن ذلك عين السر الإلهى .

روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : من سعادة ابن آدم رضاه بقضاء الله عليه . وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ثلاث من رزقهن ، رزق خير الدنيا والآخرة : الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والدعاء فى الرخاء .

وقال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه : الرضا باب الله الأعظم ، والاعتراض على القضاء عقوبة عاجلة ، وقال ذو النون رضى الله عنه : من علامة الرضا ترك الاختيار قبل القضاء وعدم المرارة بعد القضاء .

قال بعض العارفين بالله تعالى :

المقضى والمقدور اثر القضاء والقدر ، فالواجب الرضا بالقضاء ، أما المقضى ، فقد يكون الرضا به واجباً كالإيمان فى الواجبات ، ومندوباً فى المندوبات ، وحراما فى المحرمات ، ومباحا فى المباحات ، ومكروها فى المكروهات .

روى أن أول ما كتب فى اللوح المحفوظ : أنا الله لا إله غيرى ، من لم يرض بقضائى ، ولم يشكر نعمائى ، فليطلب إلها سوائى .

وقال الشيخ السنوسى رحمه الله تعالى :

حقيقة عدم الرضا الاعتراض بالظاهر والباطن على المولى ، أما الذى يتألم من المرض ، ويجزع منه ، فإنه لاينافى الرضا ، فان الطباع منها مايقبل الصبر ، ومنها ما لا يحتمل قريصة البعوضة .

« إن لم ترض بفعله بك فأنت عبد لنفسك وهواك وشيطانك ودنياك » وحقت عليك دعوة سيد السادات عليه من الله أفضل الصلوات ، فإنه دعا بالتعاسة على عبدالدرهم والدينار ، وأنت أسوأ حالا من عبدالدرهم والدينار. فإذا أردت أن تكون عبداً خالصا له تعالى ، حرا عما سواه ، فكن فى مراده ولا تكن فى مرادك .

قال الشيخ عبد القادر الجيلى رضى الله عنه : أفضل الأعمال مخالفة النفس والهوى ، ودوام التوحيد ، والإعراض عن السوى . والله أعلم .

الحكمة السابعة والثلاثون

﴿ إن أردت أن تكون من المقربين أهل السباق ، لاتر لوجودك أثرا ، ولالذاتك رفعة ، ولا لنفسك عملا منك إليه يساق ﴾ .

(ش) قلت به ناتجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « إن أردت » بإرادة منه إليك « أن تكون » أيها السالك « من المقربين أهل السباق » الناظرين به إليه فى الآفاق ، الفانين عن صفات وجودهم بصفات الخلاق « لاتر لوجودك أثرا » ، بل اشهده عدما لأنك كائن به تعالى، ومن كان موجودا بغيره ، كان معدوما فى عين وجوده ، فاعتبر لذلك ، واعلم أن الوجود صفة من الصفات الواجبة له تعالى فلا تصح منازعته تعالى فيها ، فإذا محوت وجودك بسر شهوده تعالى ، قابلتك الحضرة الإلهية ، ماانمحق وجودك فى وجوده ، فتشهد عند ذلك عدمك ، لوجوده تعالى .

أنشد بعض العارفين :

النار تضرم فى قلبى وفى كبدى — شوقا إلى نور ذات الواحد الصمد
فجد على بنور الذات منفردا — حتى أغيب عن التوحيد بالأحد

فالمستغرق فى عظمة وجود الله تعالى ، لايرى لنفسه وجودا مع الله فى كل حال ، وذلك وصف أهل الكمال ، السائرين إلى الله بالأرواح دون الأشباح .

« ولا لذاتك رفعة » فإن أولها عيفة ، وآخرها جيفة ، ووسطها وهم وخيال فى مقابلة الذات الوجودية ، قال الشيخ زروق رضى الله عنه : من أشرف التواضع ألا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى .

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه : فمتى أثبت لنفسك تواضعا ، فأنت

المتكبر حقاً . وجاء فى عوارف المعارف : واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : التواضع عند أهل التوحيد تكبر . قال الإمام أبو حامد رحمه الله تعالى : ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها ، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها ، قلت : لأن إثبات النفس بنفسها لنفسها شرك خفى : إن الشرك لظلم عظيم .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : ومن حقيقة التواضع ألا ترى لنفسك نسبة فى الوجود .

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه : التواضع الحقيقى ما كان ناشئا عن شهود عظمته وتجلى صفته ، لو ظهرت صفاته ، لاضمحلت مكوناته .

، ولا لنفسك عملا منك إليه يساق ، بل تشهده بارزا من الله تعالى إليك .

قال ابن عطاء الله رضى الله عنه : قطع السائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم وشهود أحوالهم ، أما السائرون فلأنهم لم يتحققوا الصدق مع الله فيها ، وأما الواصلون فلأنه غيبهم بشهوده عنها .

قال سيدى زروق رضى الله عنه فى ذلك المعنى : السائرون نظرهم لأعمالهم ردا وقبولا ، فهم يرون أعمالهم مدخولة بوجود العلل فيقتضى ذلك اعتمادهم عليها ، واستنادهم إليها ، والواصلون نظرهم لمولاهم ، فلا يرون أعمالهم من وجودهم ، بل من فضله وإحسانه ، قلت : فهم أهل الحكمة ، وحقيقة الحكمة الإصابة بالحق ونظر الحق فى الخلق اهـ . والله أعلم .

الحكمة الثامنة والثلاثون

﴿ وصولك إلى الله وصولك إلى علم العظمة والجلال ، واتصالك بشهود وحدة ذاته وصفاته وأسمائه وبوحدة الأفعال ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لبعض ما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى « وصولك إلى الله » أيها المريد السائر إلى الله بالله « وصولك إلى علم العظمة والجلال » لا إلى حيز معين أو جهة خاصة ، إذ جل ربنا أن تكون له جهة يصل إليه منها أو بها ، فان ذلك فى حقه تعالى محال ، والوصول إليه تعالى إنما هو فى شهود العظمة والجلال ، والغيبة به فيه عن كل شىء ، بل ورؤيته فى كل شىء من غير اتحاد أو حلول ، وقد ورد : ربى زدنى فيك تحيرا .

« واتصالك بشهود وحدة ذاته وصفاته وأسمائه وبوحدة الأفعال » فهذه الأربعة منتهى سير السائرين بالأشباح أو بالأرواح ، فمن وصل إلى تجلى الذات كان له الانعدام ، ومن وصل إلى تجلى الأسماء كان له الاصطلام ، ومن وصل إلى تجلى الصفات كان له الموت والانهضام ، ومن وصل إلى تجلى الأفعال كان له السكر والاغماء ، وذلك بعد صفاء اليقين بالذوق والوجدان ، ولكن الأولياء يتفاوتون فى الوصول إلى تجلى الذات ، والذى لم يصل إليه منهم ينكره ، ويقول : لابد من واسطة اسم من أسمائه الذاتية .

قال سيدى ابن عطاء الله فى حكمه :

وصولك إلى الله ، وصولك إلى العلم به ، وإلا فجل ربنا أن يتصل به شىء أو يتصل هو بشىء ، والعلم به رؤية الحق بالحق والتبرى عن الحول والقوة إلا بالحق . وقال سيدى محيى الدين بن العربى فى حكمه : الواصل من اتصل شهوده ، وغاب وجوده ، فأشار إلى وحدة الذات التى هى مقامه .

وقاله سيدى أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه : يصل الولى مقاما

يكون خطابه لنفسه من باب خطاب الصفة لموصوفها . أى صفة الكلام تخاطب الموصوف بها ، أى صفه كلام الله ، إننى أنا الله ، خاطب نفسه بنفسه فافهم ماتحته ، وقال رضى الله عنه : نظار الحق بالباصرة جائز وقوعه فى الدنيا عقلا لمن شاء الله ، صرج بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعرى قال : ولا يلزم منه على ذلك محال ، فاياك ياأخى أن تقع فى ورطة الإنكار فانه يستحيل على السيد موسى عليه السلام أن يسأل ما كان مستحيلا أو أن يعطل صفة من صفات ربه ، أو يجهلها اهـ . ذكره الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى طبقاته عن مناقب الشيخ المذكور : فاعلم أن تجلى الله بصفة البصر فيه مزيد نظر ، إشارات كنهية ، بعبارات منهية ، تنبيه لأهل التأوية .

ذكر الشيخ على بن برى رحمه الله تعالى فى وسطاه فى شرح البسملة كلاما فى احتجاب الذات العلية عن أن ترى فى الدنيا بالبصر من جهة النقل ، واحترز به عن جهة العقل فقال رحمه الله : والهاء أى من اسم الجلالة: إشارة إلى عين الذات أنها موجودة موصوفة بالكمال أزلا وأبدا - هو الأول والآخر ، وأشار إلى بطونها أى خفاء حقيقتها عن بصيرة العباد بعد المعاينة لها فى الآخرة ، لايبلغ كنه ذاته وصفاته الواصفون ، وإشارة أيضا إلى احتجاب ذاته عن أبصار العباد فى دار الدنيا من جهة النقل لقوله تعالى : لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار .

ولقوله عليه السلام : لن تروا ربكم حتى تموتوا ، فمن ادعى رؤيته تعالى فى الدنيا من آحاد الناس فهو كافر ، ويقتل إن لم يتب ، وأما نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصلت له الرؤية ليلة المعراج بعين الرأس كما أثبت ذلك ابن عباس رضى الله عنه ، والمعراج له عليه السلام لايدل على مسافة بينه وبين الحق سبحانه وتعالى وإنما كان ذلك تعظيما له ، ورفعة ومزية على غيره فافهم . هذا وبعض الأولياء الواصلين إلى الحضرة العلية الخارجين عن مشاهدة الأغيار الكونية يموتون بالفناء ، ويحيون بالبقاء ، فانظر ما تحته إذا تحقق الموت .

قال صاحب سير السلوك إلى ملك الملوك : ليس فى الوجود إلا هوية ذات الحق تعالى ، وأن كل ماسواه فهو صفاته تعالى وأفعاله ، فهذا هو مشهد الكاملين فمن لم يعرفه ويذقه فعليه بالتسليم لمن عرفه وذاقه :

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

فعليك أيها الناظر بباب الله الأعظم ، الزمه ودم على ملازمته . وقال سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه ، وهو رابع الأقطاب الأربعة : تجلى على ربى ليلة ولادتى وقال: غدا أول الشهر فصم يا إبراهيم فصمت وأنا ابن يوم واحد ، وشاهدت الحبيب وأنا ابن يومين . فالمراد بالتجلى الظهور والانكشاف .

أما حقيقة ذات الحق ، فلا يدركها إلا الحق تعالى سواء فى ذلك الدنيا والآخرة ، وأما الرسل والأنبياء والأولياء فان كلا منهم يشهد منها على قدر مقامه غير بالغ حقيقتها مهما بلغ ، وما منا إلا له مقام معلوم . فافهم الشئون والتجليات ، ولله خوارق العادات ، وفى هذا القدر كفاية ، فمن شأن التكلم فى المعارف ودرجات الوصول أن يكون تارة تلويحا ، وتارة تصريحا ، التلويح لأهله ، والتصريح لأهله، لقوله عليه الصلاة والسلام قدم وأخر ، فان إفشاء سر الربوبية حرام وإفشاء سر الهوية فى الحرمة آكد ، الله أكبر ، قد طلع النهار ، وانمحى الليل .

الحكمة التاسعة والثلاثون

﴿ من وحد الله بشهود مظاهر الأسماء ، وجال فكره فى قديم المعنى ، فقد سما ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لبعض ما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى: « من وحد الله » مولاه جل شأنه ، وتعالى قدره ، بتوحيد الأسماء الذى هو معدود فى توحيد الخواص ، كان من أهل الاختصاص . ولفظ الجلالة ـ الله ـ هو الاسم الأعظم بالاتفاق؛ صرح بذلك أكابر أهل الله من الصحابة وغيرهم .

فقد روى عن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : لم يتوقف الاسم القدسى على غيره فى الدلالة . وقال الشيخ عبد القادر الجيلانى قطب الأولياء فيما ذكر عنه : اسم الله الأعظم هو الله . وإنما يستجاب لك ياذاكر هذا الاسم الشريف إذا قلت الله ولم ير فى قلبك غيره .

وقال الإمام البونى رحمه الله : أول مايخص الله العبد به . إذا أراد أن يتولاه هو أن يعلمه العلم اللدنى ، فيكون وليا عالما وأن يخصه من علم التسعة والتسعين اسما بخصوصية فيفتح له منها من العلوم ما لايفتح للعالم بطريق النظر ثم يرقيه إلى معرفة الأسماء الباطنة التى هى حروف مفردة .. ثم قال: إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم .

واختلف العلماء فى اشتقاقه وعدمه ، فذهب بعضهم إلى أنه مشتق ، وذهب الآخرون إلى أنه غير مشتق . ثم قال : وإذا أتيت باسم الذات ورقمته فانه ينطق باسم الألوهية فى مختلف أوضاعه ، مثال ذلك إذا حذفت اللام الأولى نطق باسم إله ، وإن حذفت اللامين نطق باسم ا ه ، وإذا أسقطت اللام والهاء نطق باسم سريانى عظيم وهو ألى ، وإذا أسقطت الألف واللامين نطق الباقى باسمه « هو » ، وهو اسم ناطق من أسماء الذات ، وجميع الأسماء الأخرى إذا فككتها لم تحدث مثل ذلك .

وقال بعض العارفين بالله : لايخبر الشيخ مريده يعنى بحقيقة معناه إذا اطلع عليه ، من غير أن يصل مقام الاسم ، إلا أن يؤتى المريد إلهاما من الله ، أو بواسطة ملك ، أو بواسطة ولى ، أو بواسطة نبى ، فيخبروه به .

وقال بعضهم : مقام المشار إليهم بالرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والأذى ، وشهود المحرك والمسكن ، الله ، يعنى القلب ، فان أسماء الذات والصفات والأفعال والأخلاق والأوصاف كلها تضاف إليه ولا يضاف هو إلى اسم منها ، فافهم . . نكتة إلهامية فيها للقلوب الضعيفة تقوية ، وللهمم شحذ وتعليه .

اعلم ياأخى أن أى اسم من أسماء الله تعالى إذا لازمته حتى اتصلت بمنتهاه ، تفعل به أفعال الاسم الأعظم ، وأى نوع من أنواع الكيمياء إذا دبرته حتى اتصلت بمنتهاه تفعل به أفعال الحجر المكرم ، وأى نوع مما تقدم فيه مايكون قريب المنتهى ، وفيه ما يكون بعيد المنتهى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد سألت القطب الصمدانى ، والغوث الرحمانى ، سيدى الشيخ محمد السمان رحمه الله عن الاسم الأعظم ، فقال عند أهل الباطن « الله » ، وعند أهل الظاهر « حى قيوم » ، وقال بعض أولياء الله : حقيقة الاسم الأعظم أن تقول الله وأنت تهابه ، فافهم ماتحت ذلك ، أيها السالك .

« من وحد الله بشهود مظاهر الأسماء » أعنى من وحد الله جل جلاله بشهود مظاهر الأسماء ، وعظم صفة القدم المتصف بها تعالى ، عن السوى فقد نال المنى ، وكان من أهل الحسنى وزيادة ، وبلغ مبلغ أهل الله . قال صلى الله عليه وسلم : الأسماء حجب بين العبد وربه ولولا حجب أسمائه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

وقال سيد الطائفة ، المشغول بالله علما وعملا : أبو القاسم الجنيد رحمه الله : ما عرف الله إلا الله ، وأعطى الخليقة الأسماء لحجبهم بها ، قلت : ولهذا

الحديث المنثور ، والقول المأثور ، معان تضيق عنها العقول ، ويدخل هذا الحديث فى بحر وحدة الذات ، وذلك مما لا يقال ، فلنرجع إلى مانحن بصدده ، من فيض الحق ومدده .

قال بعض العارفين بالله : إن الأشياء الموجودة كلها مضافة إلى أسمائه تعالى ، متصلة بها ، غير خارجة عنها ، ولذلك فهى مظاهر للأسماء السارية فى أجزاء العوالم ، فإن أول ما نبدأ فى المظاهر نبدأ بمظهر اسمه تعالى عدل . فإذا رأيت مسلما وكافرا فلتقل فى نفسك هذا عدل قضائه ، لأنه العدل جعل هذا مسلما وهذا كافرا ، فلا اعتراض عليه ، فتكون وفيت هذا الاسم حقه وعاملت مظهر هذا الاسم ما ينبغى .

كذلك إذا رأيت أحدا عادلا فلتقل فى نفسك هذا العبد ظهر الحق عليه باسمه العدل ، فعدل ، فتشهد حقيقة الاسم فى هذا المظهر ، وإذا كان ظالما لنفسه أو لغيره ، أرجعت معنى ذلك لعدل القضاء المتقدم ، فافهم .

والرحيم من الخلق ، ظهر الحق عليه باسمه تعالى رحيم .
والملك من الخلق ، ظهر الحق عليه باسمه تعالى الملك .
والعزيز من الخلق ، ظهر الحق عليه باسمه تعالى العزيز .
والجبار من الخلق ، ظهر الحق عليه باسمه تعالى جبار .
والمتكبر من الخلق ، ظهر الحق عليه باسمه تعالى متكبر .
والقهار من الخلق ، ظهر الحق عليه باسمه تعالى قهار .
والعالم من الخلق ، ظهر الحق عليه باسمه تعالى عليم .
والقادر من الخلق ، ظهر الحق عليه باسمه تعالى قادر .

فهذه كلها مظاهر لأسمائه تعالى وصفاته ، فإذا شهدت هذا المشهد عظمت الصفات والأسماء فى كل مظهر ظهر الحق فيه بها ، سواء كان ذلك المظهر جمادا ، أو نباتا ، أو حيوانا ، وهذا هو السر فى أن بعض الأولياء الأكابر

يعظمون السلاحين ، وما ذلك إلا لظهور صفات الله تعالى الظاهرة عليهم فيها ، فهم إنما يعظمون الصفة القديمة ، والجاهل يحسبهم يعظمون السلطان ، كذلك إذا رأيت فى الخلق صاحب قبض ، فاشهد ظهور اسمه تعالى القابض عليه ، وإذا رأيت صاحب بسط فقل هذا ظهر الحق عليه باسمه تعالى باسط، وإذا رأيت قبضا أو بسطا فى الأيام والجمع والشهور والأعوام فانسب ذلك لمظاهر الأسماء ، وتجليات المسمى بها سبحانه وتعالى ، وإذا رأيت ذلا فى نفسك أو غيرك فقل هذا مظهر اسمه تعالى مذل وتجلياته ، وإذا رأيت لطيفا من الخلق فى الخلق فقل هذا ظهر الحق عليه باسمه تعالى لطيف ، وإذا رأيت كبيرا ،فاشهد اسمه تعالى الكبير وإذا رأيت حفيظا فاشهد اسمه تعالى الحفيظ .

وإذا رأيت كريما فاشهد اسمه تعالى الكريم ، وإذا رأيت وكيلا من الخلق فى الخلق فاشهد اسمه تعالى الوكيل ، وإذا رأيت قويا فاشهد اسمه تعالى القوى ، وهكذا إذا رأيت من الخلق وليا أو عفوا ، أو هاديا ، أوصبورا ، أو . . . أو . . . فاشهدهم مظاهر لهذه الأسماء العلية ، وتأدب مع الاسم الذى تجلى الله عليهم به فظهروا فيه ، بما ينبغى له من الأدب .

ومن بعض مظاهر الأسماء تجلى الحق فى العباد باسمه تعالى المغنى،وذلك فى الأرزاق الحسية والمعنوية،ومعه اسمه تعالى المانع،وهلم جرا ، فى كل الأسماء .

وتجليات الله تعالى ومظاهرها فى العباد والمخلوقات كلها لاتخفى على ذى اللب المستنير .

« وجال فكره فى قديم المعنى فقد سما » جال فكره أى تردد . والفكرة والتفكر من أجل ضروب العبادات ، قال سيدى أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى : أشرف المجالس الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد ، وقال سيدى ابن عطاء الله : مانفع القلب شىء مثل عزلة ، يدخل بها ميدان فكرة . وقال كعب الأحبار رحمه الله : من أراد شرف الآخرة فليكثر من الفكرة .

« فى قديم المعنى » أى فى المعانى القديمة الأزلية التى ظهر الحق سبحانه

وتعالى بها فى الحوادث ، فاذا أكثر العارف بتوحيد الأسماء من التفكير فى معانى الأسماء وفى تجلياته ، فى كل مظهر ، من قديم فى حديث . إذا أكثر من ذلك ولازمه ، وواظب عليه وداوم عليه ، «فقد سما» أى ارتفع فى أعلى الدرجات العلا ، بمشيئة العلى الأعلى ، قال تعالى : نرفع درجات من نشاء .
وإليك بعض ماقال سيدى مصطفى البكرى فى هـذا التوحيد نظما :

إذا اصطلمت تحت نور الأسما	أدركت يا هذا مقاما أسمى
ثم عليك الحق إن تجلى	ثم شهدت . فالحسناء تحلى
وتكشفت هنالك الأستار	وقد محا ستر الهدى الستار
وعن عيون القلب إن زال العما	شاهدت سر القرب بل سر العما
وعندما تنكشف الأسماء	تنوب سعدى عنه أو أسماء
وكلهـا عظيمة والأعظم	يدريه قوم عظموا ، فعظموا
وههنا تدرك أسرارا سمت	غيوثها كالهاطلات إذ همت
لكنها بالسير والسلوك	تدرك . لابالوهم والشكوك
فانها تجنى عن الأذواق	لامن بطون الصحف والأوراق

الحكمة الأربعون

﴿ إن أوصلك المنان إلى أعظم مكان ، أشهدك لاأنت ولا أكوان ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ماعليه كان ﴾ .

(ش) قلت به عنه ، ناسجا لبعض ماانطوت عليه هذه الحكمة من المعانى: « إن أوصلك » أيها السالك طريق المقربين ، إن أوصلك الحق جل جلاله حضرة الذات المغنية عن الأسماء وعن الصفات ، جعلك روحانيا واصلا إليه، بلا كيف ولامثال ، ولاجهة ، ولاقرار ، ولاحلول فى كل حال .

« والمنان » اسم من أسماء الله معناه المعطى المواهب لمن يشاء .

« وأعظم مكان » أى أعلى درجة من درجات توحيد العارفين بالله .

«أشهدك» الحق جل جلاله « لاأنت ولاأكوان » وذلك من معنى الوصول لمشهد الذات العلية .

قال سيدى أبو المواهب الشاذلى رضى الله عنه فى معنى « رب أرنى أنظر إليك » الواردة فى القرآن ، على لسان سيدنا موسى عليه السلام : أرنى ، يعنى بالغيبة عنى ، أنظر قدس ذاتك ، بتنزيه صفاتك إذ لايراك سواك ، وامح عنى الظلام ، ولاتحجبنى بوهم الخيال .

وقال سيدى أحمد زروق : من ترقى إلى مقام الفناء ، مشتملا باطنه على أنوار اليقين والمشاهدة ، مغنى فى شهوده عن وجوده ، فإن ذلك ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين ، وفوق هذا رتبة حق اليقين ، ويكون من ذلك فى الدنيا لمح ، وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى تحظى بها روحه وقلبه حتى قالبه ، وهذا من أعلى رتب الوصول ، هبات رتب الوصول لاتنقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدى ، فكيف بالعمر القصير الدنيوى .

قال سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه فى معانى الذات ، والوصول إليها:

فما شاهدت ذاتى سوى عين ذاتها وإن سواها لايلم بفكرتى
فأوصلت ذاتى باتحاد بذاته بغير حلول ، بل بتحقيق نسبتى

وقد روى أنه كان يقول : أذن لى ربى أن أتكلم وأقول أنا الله ، ولا أبالى ، فعليك بالتسليم أيها الأخ ، فإنه على نور من ربه . وقد قال سيدى عبد الكريم الجيلى رحمه الله :

فصرت أناهى ، وهى صارت ـ كذا ـ أنا
ومن بيننا كاف المخاطب ضائع

اعلم أيها الأخ أن الوصول هو مقصد العارفين من أهل العقول : فمن ذاق حقائقه كان بمعنى الحديث : كان الله ولاشىء معه ، وهو الآن على ماعليه كان ؛ ومن وصل لهذا المشرب ، وتحقق بالموت الحقيقى رأى ربه ، لقوله عليه الصلاة والسلام : لن تروا ربكم حتى تموتوا ، فمن لم يمت فى الدنيا بالموت الأكبر ، لم يعرفه بحقائق المعرفة فى الآخرة بعد الموت الأصغر ، فأفهم عنه ، لاعنى .

قال سيدى العارف بربه ، الواصل لقربه ، سيدى مصطفى البكرى ، فى توحيد الذات ، رضى الله عنه ، ونفعنا بعلومه آمين . آمين :

كم لذة فاقت على اللذات تجلى علينا فى تجلى الذات
ففى تجلى ذاته يقيننا وفى تجلى وصفه يفنينا
مبدأ تجلى الذات عين الذات لاعتبار رؤية الصفات
ليست ترى من غير برقع الصفة فلا تحرك بالذى يبدى شفه
ولم تكن تنال دون مظهر فعنه غب واشهد جمال المظهر
وكل من عليه يجلى الحق بذاته ، يفنى لديه الخلق
لكن ذوق ذا التجلى منعا كأحدية نخل الطمعا

والذات عند من دعوا بالحذق　　عبارة عن الوجود المطلق
كالشمس تخفى أنجم الصفات　　عن مشهد الناجى من الآفات
فلا يرى إضافة ، ولا نسب　　ولا اعتبارات ولايدرى السبب
لأنه مستغرق فى المشهد　　أدهشه نور تجلى المشهد
يزيد بالتوضيح سرها خفا　　فصنه ، وهو عن سوائه اختفى
ثم مجالها ثلاث بعد ما　　تنزل عن صاحبها تكرما
فأحدية ، كذا الهوية　　والثالث الانزال فى الآنية
وكل واحد له تفريق　　يطلب ممن شأنه التوفيق
وليس فى حضرته الذاتية　　يبدو هناك اسم ولا معية
إذ حضرة الحضرات لاتختص　　باسم ولا نعت عليه نصوا
ولا بغيب لا ، ولا شهادة　　ولا تعين به السيادة
فإنها جامعة للكل　　ولم تكن تحصر فى الأقل
وكل من معرفة الذات ابتغى　　من غيرها بغيرها فقد بغى
فما لمخلوق بها نصيب　　وكل من خالف لايصيب
وهنا سر إذا أدركته　　نلت المنى فوق الذى أملته
وإن توقفت بما أبديه　　فراجعن كتب الطريق فيه

قال بعض العارفين بالله : الحق تعالى لا يتجلى من حيث ذاته على المخلوقات إلا من وراء حجاب الأسماء . وفى الحديث : الأسماء حجب بين العبد وربه ، قلت فانظر لما ورد فى الحديث وبعض كلام العارفين بالله من أن حروف ألف هى أسماء الله الباطنة ، فالأشياء كلها من أسماء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : إنما قام الوجود كله بأسماء الله الباطنة ، ثم الظاهرة المقدسة والله تعالى أعلم .

الحكمة الحادية والأربعون

﴿ إذا أردت بإرادته ألا تكون مشركا بوحدة ذاته لاتدع أوصافه المختصة به ، وهى الوجود ولوازمه ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا ، لما انطوت عليه هذه الحكمة : إن أردت أيها المريد ، المتوجه لحضرة الرشيد ألا تكون مشركا شركا خفيا بوحدة الذات العلية فلا تدع أوصافه ، فإن دعواك لذلك مهلكة لك فى الحال والمآل وقاطعة إياك عن درجات الوصال .

وأوصافه المختصة به ، أى بالله تبارك وتعالى : وحده دون غيره هى صفة الوجود ، وهى صفة نفسية ولوازم هذه الصفة من سلبية ، ومعان ومعنوية ، قال الشيخ الكركى رحمه الله تعالى : لاتشهد وجودك ولوازمه إلا عوار عندك منه ، فلا تر وجودك إلا بوجوده ، ولا بقاءك إلا ببقائه ، ولا عزك إلا بعزه ، ولاقدرتك إلا بقدرته ، ولاغناك إلا بغناه . ونحو ذلك .

فعليك أيها الأخ بالتوحيد الحالى فهو المقصد ، فإن لم يصبها وابل فطل ، وهو توحيد العوام الذى لاحال معه .

والتوحيد فطر الله عليه الأرواح قبل ظهور الأشباح . قال عليه الصلاة والسلام المعرفة جبلت عليها العقول فى العهد ، أى عهد ألست بربكم ؟ فانظر سر التوحيد . وقال سيدى إبراهيم الدسوقى رضى الله عنه : أن الله أسكن فى قلبى التوحيد قبل آدم وحواء ، وقبل العرش والكرسى ، واللوح والقلم ، وقبل السموات والأرضين ، وقبل الماء والطين .

وقال سيدى محمد الباقر فى فضل التوحيد : أفضل العلوم علم الذات ، فمن شاهد وحدة الذات ، كان من أهل التجليات ، وأطلعه الله على ماشاء من المغيبات . .

حكى عن ممشاد الدينورى رحمه الله تعالى قال : دخل علينا فقير ، فقال : ياممشاد هل فى رباطك موضع طاهر يموت فيه الفقير ، فقلت له كالمستخف بأمره . أدخل ومت حيث شئت من رباطى ، فهو نظيف ، فدخل ، فانتبهت لحاله ، فإذا هو قد اغتسل وصلى ركعتين واستلقى مستقبلا القبلة ، فدنوت منه فإذا هو يعالج سكرات الموت ، ودموعه تجرى على خديه ، فأخذت طرف ردائى ومسحت به دموعه ، ففتح عينيه وقال ياممشاد : دعنى ألقى ربى ودموع الحسرة على خدى ، فقلت له ياأخى هل لك من حاجة ؟ فقال لى : أن تعينى بهمتك لعلى أقبض على التوحيد ثم قال ياممشاد : فى طرف ردائى دينار ، نخذه ، فإذا مت على التوحيد ، فاشترى به لوزا ، وسكرا ، وفرقه على أولاد المسلمين ، وقل هذا لمناسبة عرس الفقير .

فقلت له يا أخى إن التوحيد فى القلب ، واللسان ترجمان ، فمن أين أعلم عقد قلبك إذا اعتقل لسانك؟فقال : ياممشاد صدقت ؛ ولكن إذا أخذت فى أمرى ودفنتنى ، فانتظرنى فإنى آتيك ، ثم قضى نحبه .. فلما دفنته جلست ليلتى أنتظاره ، فإذا هو قد أقبل وقت السحر متغير اللون ، وقال : السلام عليك ياممشاد ، فقلت وعليك السلام ، أبطأت على؟ قال نعم ،كان الحق جل جلاله يعاتبنى قلت : وفيم كان العتاب ؟ قال : قال لى أما استحييت منى أن تشكونى إلى ممشاد وتقول دعنى ألقاه ودموع الحسرة على خدى ، أى حسرة أبقيت عليك بعد أن خلقتك موحداً؟ فأطرقت برأسى خجلا ، فلما جاء وقت السحر قلت : إلهى ممشاد ينتظرنى ، وقد سهر ليلته ، فقال اذهب إليه وأقرئه منى السلام وقل له إنى مشتاق إليك ، فهل أنت مشتاق إلى؟ طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وإنى إليهم لأشد شوقا وأكثر .

فافهم فضل التوحيد ، وانظر علم هذا الولى بموته ، مع أن علم ذلك من الخمس المتكلم عليها ، فإنها لايعلمها غيره ، واعتبر فى كرامة الأولياء على الله تعالى ، والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الحكمة الثانية والأربعون

﴿ الوجود كله ظلمة ، وإنما أناره تجلى الحق فيه ، فمن رأى الوجود ، ولم يشهد وحدة وجوده ، فقد أشرك به ﴾ .

(ش) قلت به عنه ، ناسجا لبعض ما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى: « الوجود » وهو هنا عبارة عن كل ماسوى المعبود ، وهو الوجود الحادث « كله ظلمة » لا وجود له من ذاته ، ولا قيام له بذاته ، وإنما هو عدم فى كل أحواله : الماضى ، والحال ، والمستقبل ، وذلك بالنسبة إلى الوجود الحقيقى . فافهم ولا تتوهم . قال سيدى أبو مدين رحمه الله ونفعنا بعلومه :

أنا وجـــودى بوجوده إيش غير الله موجود
دلنى على ذلك شهوده إيش غير الله مشهود

« وإنما أناره تجلى الحق فيه » أعنى إنما أنار هذا الوجود الحادث ظهور الحق فيه .

قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله : الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ولولا ذلك لأظلم .

قال سيدى الشيخ زروق : قلت أناره ، جعله نيرا مضيئا ، أى بما أولاه من الوجود بدلا من ظلمة العدم ، ظهور الحق فيه ، ظهور دلالة وتعريف ، لا حلول وتكييف ، تعالى ربنا وجل ، وافهم هنا قول الله تعالى : الله نور السموات والأرض . فانهما لامظهر لهما سواه .

كذلك قال القاضى أبو بكر بن العربى رضى الله عنه ، وهو صحيح ، الكون مشكاة ، والصفات مصباح ، والأفعال زجاجة ، والنسب زيت ، والشجرة المباركة جملة الأسماء ، لا شرقية جمالية ، ولا غربية جلالية ، بل

هى كالية ، يأخذ كل واحد منها على قدر نسبته ، فالأفعال تلى المشكاة والنسب من شواهد الصفات ، والإضاءة دون نار ، كالظهور من غير استظهار ، وربك الفتاح العليم .

قال الشيخ زروق : وإذا كان الأمر على ماذكر فوجوه الشهود أربعة ، من حصل منها وجها ، كان له نسبة ، وإلا فهو بعيد عن محل القربة ، كما نبه عليه المؤلف إذ قال : فمن رأى الكون ولم يشهده فيه ، أو عنده ، أوقبله ، أوبعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار .

« فمن رأى الوجود » من ملك وملكوت ، « ولم يشهد وحدة وجوده » أعنى فيه ، أى الوجود لقيام الوجود به « تعالى فقد أشرك به » سبحانه ، وصار من أهل الشرك الخفى .

واعلم ياأخى أن شهود الوحدة فى الوجود أمر زائد عن وجه الشهود ، لأن من شاهدها غاب عن نفسه وعن كل موجود ، فشهوده فى الأشياء على ماذكره سيدى ابن عطاء الله شهود فعله فيها ، وعندها حضورها لها بالمرصاد أى حضور ، وقبلها لوجودها به تعالى ، وبعدها لما جرى علينا من ظلمة قلوبنا بسبب الغفلات ، فان شاهدناه بعد ذلك بسر التوحيد كانت لنا الرؤية البصرية ، كل ماحجبك عن الله تعالى فهو ظلمة . . . والله أعلم .

الحكمة الثالثة والأربعون

﴿ ماحجبك عن الحق إلا شدة قهره لك ، وقربه منك ، أن أشهدك قرب ذاته منك ، أوجب لك الفناء فى ذاته عنك ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لبعض ما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى الحسنة ، ومامن حكمة إلا ومعانيها كلها حسنة ، وإنما نقتصر فى كل حكمة على بعض المعانى الجامعة ، دون المعانى الفرعية ، خوف الإطالة والملل .

إنما حجبك عن الحق ، أيها العبد المقبل عليه أمران مرجعهما إليه، وهما حجاب القهر وحجاب القرب فحجاب القهر حاصل من الأمور القهرية وهى مصائب الدنيا التى تكون فى النفس والمال والولد ، وغير ذلك مما لايحصى ولايعد ، وقد يكون القهر بالشهوات المسلطة على الإنسان ، فإنه تعالى لوقهرك بشهوة نحو زوجك حجبك عنه ، إذ يشتغل باطنك بها دونه تعالى ، هذا حالك مع الشهوة ، فكيف حالك مع المصيبة ، بل المصائب .

والحجاب الثانى حجاب القرب . قال تعالى ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، وقربه تعالى منك بخمسة أشياء : العلم، والسمع ، والبصر ، والقدرة، والإرادة ، فمن الإشارة ، الدالة على البشارة ، تأمل قدرته تعالى ، كيف توهمت أنها لك فى جميع أفعالك ، وأنت فى الحقيقة لست بفاعل . ولاأطيق التصريح بأكثر من ذلك .

والحجب بين العبد وربه كثيرة قيل سبعون ، وقيل سبعون ألفا من نور وظلمة ، وإنما صدرنا هذه الحكمة بهذين الحجابين : القهر والقرب ، واقتصرنا عليهما دون غيرهما من الحجب ، لأنهما أقوى الحجب ، من قطعهما حاز كل فخار ، فى مذهب الأخيار .

وأعظم الحجب على الإطلاق قرب الذات العلية منا ، بل إنها لأقرب

إلينا من ذواتنا ، ولذلك قلت : « إن أشهدك قرب ذاته منك » أى إن أشهدك ذلك بالشهود الحقيق الذى يأخذ الروح والقلب «أوجب لك» وجوب تفضل عليك « الفناء » الذى يعقبه البقاء ، فى ذاته المنزهة عن كل نقص .. « والفناء عنك » معناه الفناء عن ذاتك الفانية عنك حالا ومآلا ، بحيث تغيب عن وجودها بوجوده ، وعن شهودها بشهوده ، وعن بقائك بها ببقائك به .

قال سيدى ابن عطاء الله : ما حجبك عن الله وجود موجود معه، إذ لا شيء معه لكن حجبك عنه ، توهم موجود معه . وإذا أردت تقريب ذلك إلى ذهنك ، فانظر لظلك هل هو موجود بذاتك أم لا ، فإذا حققت وجوده بذاتك فانظر هل وجوده حقيق ؟ فوجوده بالنسبة لوجودك . كوجودك بالنسبة لوجود الله، وإذا كان الظل عدما بالنسبة لك فأنت كذلك عدم بالنسبة للحق عز وجل ، ولله المثل الأعلى :

يا نفس لا تدعى وجه الوجود لك ... إن الوجود وجود الواحد الملك
إذا ادعيت وجودا أنت مشركة ... إن الوجود له ، ليس الوجود لك

تنبيه : بوجود الذات وتلاشى الحادثات : اعلم أن كل قول متصل بذات قائله ، وكل فعل متصل بذات فاعله ، فانظر فى حقيقة نفسك ، تر الحق أقرب إليك منك ، فمن حصل له هذا الفناء الكامل ، ومات عن ذاته وعن روحه ، وهو الموت الأكبر ، رأى الحق ، وكان على حق . . والله أعلم .

الحكمة الرابعة والأربعون

﴿ أنت مع الوجود مادمت تشهد لك معه وجودا ، فإن اصطفاك ، وهناك ، جذبك وأدناك ، وغيبك عنك ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لبعض ماانطوت عليه هذه الحكمة . . « أنت » — الخطاب لكل سالك من المتقين قاصد مقام المقربين — « مع الوجود » أعنى واقف مع الموجودات ، من جمادات ، ونباتات ، وحيوانات . « ما دمت تشهد لك معه وجودا » فانه الموجود الحقيق وما سواه عدم ، فإن كنت من أهل اليقين ، شاهدته بيقين ، وخرجت من الوجود الوهمى إلى الوجود الحقيق .

قال سيدى رسلان الدمشق : إذا زاد إيمانك ، نقلك من حال إلى حال ، وإذا زاد يقينك نقلك من مقام إلى مقام ، فزيادة الإيمان من ضعف إلى قوة ، وزيادة اليقين من مشهد إلى مشهد ، من مشاهد القوم . « فإن اصطفاك ، وهناك ، وأرادك له جليساً « جذبك » إلى حضرته الذاتية « وأدناك » منه « وغيبك » به سبحانه وتعالى عنك ، فعند ذلك تنتفى عنك الأثنينية ، وتثبت لك الواحدية .

والجذب الإلهى يكون أولا جذباً من الكفر إلى الإسلام ، ثم بعد ذلك يكون على ثلاثة أقسام :

جذب أصغر ، وأوسط ، وأكبر . فالجذب الأصغر انجذاب المسلم من ظلمة المعاصى إلى نور الطاعة ، والجذب الأوسط انجذاب المسلم من محبة ما سوى الله تعالى ، إلى محبة الله ، وهو الزهد فى الأغيار .

والجذب الأكبر انجذاب المؤمن من رؤية الأغيار إلى مشاهدة الملك الجبار فى جميع الأحوال .

فإذا حصل للإنسان نور من هذه الأنوار ثم رجع إلى حاله الأول فليعلم أنه سلب منه ذلك النور لإساءة أدب مع الله أو معصية ، فليعاود طرق باب الكريم ، وليدم الوقوف عنده بالذل والفقر العظيم ، وهذه الأقسام الثلاثة تعــترى أصحاب الأحوال وقليل من يعرفهم ، على أن كلا منهم ينطق بحسب مقامه ، فافهم الجذبة الرحمانية فإن هنالك أيضاً الجذبة الشيطانية .

قال بعض الأشياخ : المجاذيب على مائة نوع ، تسع وتسعون جذبتهم شيطانية ، وواحد جذبته رحمانية .

وأما مجاذيب عوام الناس الذين يبكون ويتخبطون عند سماع الذكر فهم على حالتين ، حالة شيطانية ، وحالة طبيعية ، فالحالة الشيطانية تحدث حين يجتمع الناس فى الذكر ، والجن والشياطين يجتمعون معهم لسماع الذكر ، وعددهم عادة أكثر من الإنس ، فيختلط الإنس والجن فى الذكر ، فيتلاصقون ، ويتصادمون ، فيتخبطون من أجل ذلك ، فيظن الجاهل أنهم مجاذيب وهم داخلون فى معنى قوله تعالى : « ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » . وأما الحالة الطبيعية فهى أن بعض الناس لهم كيفية مخفية فى ذوات وجودهم الوهمى لاتقبل الذكر ومجالس الوعظ ، فإذا اجتمعوا لذلك فحينئذ تتحرك تلك الطبيعة على صاحبها وتغلب عليه وتصرعه ، فيصيح ويبكى ويتلفظ بما يجرى على لسانه ، فيظن الناس أنه مجذوب وهو داخل فى معنى قوله تعالى : « ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون » .

وأما مجاذيب الحق فلهم علامات يعرفهم النقاد بها ، منها تأثير كلامهم

وذكرهم فى قلوب السامعين ، فإن المجذوب الحقيقى إذا ذكر الله ، وتكلم ، أثر ذلك فى قلوب السامعين ، ومنها أنهم يتكلمون على الحقيقة أبدا .

واعلم يا أخى أن الرجال ثلاثة : مجذوب ، وسالك ، وسالك ومجذوب معا . فمن كشف له عن كمال الذات من غير سلوك فى أطوار النفوس سمى مجذوباً ، ومن سلك على أطوار النفوس السبع ثم جذب ، سمى سالكا ومجذوبا ، فإن لم يجذب إلى الذات وتجلياتها كان سالكا فقط ، وهو أكثر فى القوم ، فافهم . . والله أعلم .

الحكمة الخامسة والأربعون

﴿ إن كنت عارفا بذاته ، أشهدك عدمك لوجوده ، وإن كنت جاهلا بذاته ، أشهدك وجودك لعدمه ﴾ .

(ش) قلت بوعنه ناهجا لبعض ما انطوت عليه هذه الحكمة : « وإن كنت » أعنى أيها المريد « عارفا بذاته » تعالى المعرفة الكاملة التى توجب لشهوده فى الدنيا والآخرة ، وهى معرفة خواص المقربين « أشهدك » الحق جل جلاله بعد هذه المعرفة « عدمك » لأنك كائن به لابك ، وقلبك عنده لاعندك « لوجوده » المطلق الذى لايضاهيه وجود موجود سواه ، وكما أن المعادن كثيرة أفضلها الذهب ، وكذلك المعارف شتى وأفضلها معرفة الله ، فهى بين المعارف بمنزلة الذهب بين المعادن ، فافهم .

« وإن كنت » أيها العبد « جاهلا بذاته » تعالى « أشهدك وجودك لعدمه » أعنى إن كنت لم تصل إلى معرفة المقربين شاهدت وجودك الوهمى الخيالى أنه حقيقى ، ولم تشهد كمال وجوده وذلك من وهم العقل الطبيعى الجسمانى المظلم ، لاالعقل الروحانى النورانى المضىء المعظم فى خلقه ، كيف لاوقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا العقل الروحانى : إن الله سبحانه وتعالى لما خلق العقل خلق منه اثنى عشر جزءا من نور مكنون مخزون تحت العرش ، لم يطلع عليه ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، فجعل الزهد رأسه ، والعلم فه ، والصبر طبعه ، والرأفة والرحمة قلبه ، والحكمة أذنيه والذكر لسانه ، والحياء والقناعة بطنه ، والفقه يديه ، والاستقامة رجليه ، ثم جعله شخصا قائما يتلألأ نورا أضاءت منه السموات والأرض ، فقالت الملائكة سبحانك ربنا ماهذا الذى خلقته حتى أضاءت منه السموات والأرض ، قال الله سبحانه هو شخص خلقته وسميته بالعقل . قالت : ربنا فى أى خلق تضعه ؟ قال وعزتى وجلالى لا أضعه إلا فى أحب الناس إلى . ثم قال تعالى : أيها العقل أقبل ، فأقبل ،

فقال له أدبر فأدبر ، وقال له اسكن فسكن . ثم قال له تعالى وعزتى وجلالى، ماخلقت خلقا أشرف منك ، بك أعرف ، وبك أعبد ، وبك أحمد . ثم إن العقل خر ساجدا لله تعالى ، فقال له ارفع رأسك ، ياعقل ، فانى شفعتك فيمن وضعتك فيه من جميع خلقى من قبل أن أخلقك بالف سنة ، فرفع رأسه بالتهليل والتسبيح والثناء على رب العالمين اه . من التقريب والتسديد على ياقوتة التوحيد . قلت:اعلم ياأخى أن هذه الأوصاف التى جعلها فىالعقل لاتتم إلا لمن اصطفاه الله من عباده ، والناس متفاوتون فى أنصبتهم فيها .

هذا وبعض العباد عقولهم كعقول البهائم لافرق بينهم وبين البهائم فى ذلك إلا باليسير ، وهو العقل الذى ذكره العارف بالله سيدى رسلان الدمشقى فى رسالته . قال : الناس تائهون عن الحق بالعقل ، وعن الآخرة بالهوى،فمتى طلبت الحق بالعقل جهلت ومتى طلبت الآخرة بالهوى ضللت . قال الشيخ حجازى بن المصرى فى هذا المعنى : العقل الطبيعى الظلمانى بمفرده محجوب عن التجليات الإلهية والمعارف الربانية لوقوفه مع الصور الظاهرة من حسن وقبيح ، وخطأ وصواب ، بخلاف العقل الروحانى النورانى ، فان فى طلب الحق به هدى ، وبالله التوفيق ، والحول والقوة به ، والله أعلم .

الحكمة السادسة والأربعون

﴿ الكرامة العليا أن تغيب عن نفسك والأكوان بشهود الله . ربما برزت لك الكرامة ، وأنت لم تر الحق أمامها ﴾ .

(ش) قلت به عنه تابعا لبعض ما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى: « الكرامة العليا » عند العارفين بالله الفانين فى الله الباقين مع الله بالله لله ، فى الحركات والسكنات ، والإرادات والخطرات « أن تغيب » أيها السالك طريق القوم « عن نفسك » فلا تشهد لها وجودا ، ولا حياة ، ولا فعلا مع الله ، وعن « الأكوان » وهى عبارة عن كل مخلوق سوى الرحمن « بشهود الله » بحيث لا ترى سماء مبنية ، ولا أرضا مدحية ، ولا مخلوقات حية ، أو غير حية ، ولا بحرا يجرى ، ولا روحا تتنفس ، ولا ... ولا ... بل وجه الباقى الدائم الوجود . فان لم تتصل بهذا المشهد أيها السالك ، ولم تكن من أهل ذلك ، فلا تتبع هوى نفسك ، فيضلك عن سبيل ربك ، بالتطلع إلى الكرامات .

« ربما برزت لك الكرامة » وباطنها إهانة واستدراج ، واعوجاج عن حقيقة المنهاج ، لأنك « لم تر الحق أمامها » أعنى لا قبلها فتحجبك رؤيته عن الركون إليها والوقوف معها ، ولا بعدها فتشهدها منة منه عليك .

قال سيدى الشيخ أحمد زروق رضى الله عنه : لا يخلو من توجهت له الكرامة من أحد ثلاثة أوجه: أحدها أن تزيده فى توجهه وإقباله على مولاه، قائلا الذى وصلت به إلى هذا ما يمنعك أن تصل به إلى غيره ، الثانى: أن تزيده فى معرفته ويقينه وقوة إيمانه بما يظهر له فيها من قدرة مولاه فيزيد افتقاره وشكره لمن أكرمه وتولاه ، فهى لهذا ترقية ، كما أنها للذى قبله تربية، الثالث: من الأوجه أن توجب له رؤية نفسه ، وقيامه مع حسه، فهى لهذا استدراج ،

وزيادة فى الاعوجاج ، وهذا الذي كفر بنعمة الله عليه فيها ، فكان كالذى تعلم من سحر هاروت وماروت ، أحبه العاجل ففوت الآجل ، نسأل الله العافية ، فإذن حكم العبد ألا يقف بهمته على شيء دون الله ، ولا يرضى بشيء غير رضاه ، قال ابن الجلا رحمه الله تعالى : من علت همته على الأكوان وصل مكونها .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : إنهما كرامتان جامعتان محيطتان ، كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان ، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ، ومجانبة الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب ، ليس له حظ فى العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على نعمة الرضا ، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب .

وقال رضى الله عنه : إن الله لا يعطى الكرامة لمن يطلبها ، أو حدث نفسه بها . وقال الإمام البونى رحمه الله تعالى : التطلع للكرامات من ذنوب العقل .

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشى رحمه الله تعالى : من لم يكن كارها لظهور الآيات ، وخوارق العادات ، فظهور الكرامة فى حقه حجاب ، وسترها عنه رحمة ، وبالله التوفيق .. والله أعلم .

الحكمة السابعة والأربعون

﴿ المؤمن ينظر بنور الله فى الملكوت ، والعارف ينظر به إليه فى حقائق اللاهوت ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « المؤمن » وهو المصدق بقلبه للإسلام ، وحقيقة الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، وأن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق ، والميزان حق ، والساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور .

قال الإمام البونى رحمه الله تعالى : محل الإسلام الصدر ، وهو عالم الكرسى ، والإيمان محله القلب ، وهو عالم العرش ، والقلب محل التجلى ومحل العناية الربانية ، قال الله تعالى : أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، فهو محل اللوح المحفوظ اه .

« ينظر بنور الله فى الملكوت » أعنى المؤمن الذى كمل إيمانه ، وزاد حاله ، ينظر بنور كشفه في ملكوت غيب الله ، قال صلى الله عليه وسلم : اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنورالله . قال الإمام المتقدم ذكره : الفراسة خاطر يهجم على القلب فينفى الشك ويثبت الظن بشرط الاتفاق ، والمكاشفة نور يحل القلب فيكشف على الأكوان ويغرقه فى بحار الحال والوجود ، وذلك لحفظ مراعاة الأدب فى العلم ، ومراعاة الأحوال عن الخروج عن الحق قولا وفعلا ، والثبوت على الحضور على فناء الغيب فذلك صاحب تمكين . والكشف أعلى رتبة من الفراسة ، لأنه أمر يظهر فى القلب بنور الإيمان ، وهو أيضا على قسمين ، قسم منه يتجدد عن النظار ، والقسم الثانى

فى الرؤية ، كما ورد فى الأثر « الرؤيا الصالحة جزء من بضع وستين جزءا من النبوة » اه . كلامه .

« والعارف » الفانى عن الوجود « ينظر به » أى بالله تعالى ، نافيا عن نفسه الحول والقوة إلا بالله ، فلايرى ولا ينظر سواه ، لما به تولاه . « فى حقائق اللاهوت » ، وهو علم المعرفة الكاملة الذى يغنى العبد بكليته ، عن أنيته ، إذا نظر فى حقيقته ، قال بعض العارفين بالله : فى الدنيا جنة عاجلة . من دخلها لم يشتق إلى آجله ، ولا إلى شىء آخر وهى المعرفة بالله تعالى : وقال شيخ شيخى سيدى مصطفى البكرى رحمه الله تعالى :

يدعونه بالجنـــة المعجلة   لأنه يدنيـــك للمؤجلة

يعنى بذلك علم المعرفة بالله تعالى . فعليك بعلم اللاهوت أيها الواقف مع الناسوت ، قال الشيخ محمد بن عيسى : العلوم أربعة ، علم الناسوت ، وعلم الملكوت ، وعلم الجبروت . وعلم اللاهوت . وزاد بعض العارفين بالله خامساً وهو علم الهاهوت .

وفسر ذلك بعضهم فقال : علم الناسوت علم القراءة من فقه ، وتوحيد ، وتفسير ، ونحو ، وصرف ، وعلم الأصول . وعلم المنطق ، وعلم البديع . وعلم الحرف ، وعلم التجويد وغير ذلك . وعلم الملكوت علم الطريقة وهو أول علوم البصيرة ، وعلم الجبروت علم ينفتح للروح ، وهو علم الحقيقة ، وعلم اللاهوت علم ينفتح للسر وهو علم المعرفة ، وعلم الهاهوت وهو علم سر السر والخفا ، والأمن من الله بالله . قال تعالى : يعلم السر وأخفى ، فالعلم يوجد بالقراءة فى الغالب ، يعنى بالأول ، أما الأربعة الأخرى فلاتوجد إلا بالفتح والكشف . وفوق كل ذى علم عليم ، وهو الذى يعلم بواطن معلوماته ، كما يعلم ظواهرها ، سبحانه وتعالى عما يشركون . وبالله التوفيق .

الحكمة الثامنة والأربعون

﴿إذا دخل قلبك سلطان الأحدية غبت عن الآنية ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها بالقهرية ﴾ .

(ش) قلت به عنه نائبا لبعض ماانطوت عليه هذه الحكمة من المعانى : « إذا دخل قلبك » الدخول ضد الخروج ، والقلب هو الفؤاد ، سمى بالقلب لتقلبه « سلطان الأحدية » أعنى به سلطان السلاطين ، ورب العالمين جل شأنه ، « غبت عن الآنية » لقلة وقوفك مع صورتك ، فضلا عمن سواه : « إن الملوك » المملوكين « إذا دخلوا قرية أفسدوها بالقهرية » فكيف بمالك الملك إذا دخلت وحدته سويداء قلبك ، فانها تفنيك أى تفنيك عنك، وعن كل كون .

قال بعض العارفين بالله تعالى : من نفى عن قلبه الأغيار ، اطلع على الأسرار ، وزج فى الأنوار . آه . آه . آه . « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » ، « لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر » وإذا طلعت شمس المعرفة ، لم تبق نجما ، ولا قمرا ، وإن وجد الأثر . . . العقل ملك ، والهوى ملك ، والناسوت قرية ، وهما ضدان ، لا يتفقان إن حكم الهوى أفسد الباقى ، وإن حكم العقل أفسد الفانى ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . . . الشهوات قرى ، والزهد ملك ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . . . المريدون قرية والمرشدون ملوك ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، النفوس قرية ، والقلب ملك إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها الرياسة قرية والصدق ملك . . . إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ... طول الأمل قرية والموت ملك ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . .

كل شيخ مدح مريده فى وجهه ، وحسن له حاله ، فقد غشه ، وأعان

نفسه عليه ، علامة صدق المريد أن يحب الذم لنفسه ، ويكره المدح ، والصمت والعزلة أحب إليه من الخلطة والنصيحة أحب إليه من المداهنة ، اه .. فاذكره فلنرجع إلى ما نحن بصدده .

اعلم يا أخى أن بعض الأولياء الأكابر قلوبهم بيت وحدة الله تعالى ، لا يغفلون عن مشاهدته أبد الآباد ، والأولياء يطوفون بهم كما يطوفون بالبيت المعتاد ، ولهم على ذلك مزيد رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا . . والله أعلم .

الحكمة التاسعة والأربعون

﴿ سبحان من حجب من شاء عن جمال صفاته ، وتجلى لمن شاء بكمال ذاته ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لبعض ماانطوت عليه هذه الحكمة عن المعانى : « سبحان من حجب من شاء » من عباده بحجاب الخلق ، فلم يشهدوا جمال الحق خلف ستائر الخلق « عن جمال صفاته » القائمة بذاته ، الظاهرة فى مخلوقاته . « وتجلى » أى ظهر وبان « لمن شاء » من عباده المقربين فى حضرته ، « بكمال ذاته » الأزلية الأبدية الديمومية البقائية ، التى لاتشبهها الذوات ، ولا تحويها الجهات . ولا تدرك حقيقتها القلوب النيرات لما هى عليه من الجلالات ، والجمالات ، والكمالات .

قال بعض العارفين بالله : أسباب المعرفة ثلاثة: السمع والبصر والفؤاد ، ومظاهر التعريف ثلاثة : جماد ، ونبات ، وحيوان ، والحضرات ثلاثة : حضرة الأفعال ، وحضرة الأسماء ، وحضرة الصفات ، قلت: والمعارف من هذه الحضرات الالهية ثلاث : جلالية ، وجمالية ، وكمالية . فمن تجلى عليه بالجلال ، غلبه فقره ، وعجزه ، وذله ، وضعفه ، فاتجه لربه بذلك ، وكان فى انكسار الأبد ، وهو الذى عناه سيدى عبد الوهاب الشعرانى حين قال : بعض الأولياء مقامهم شهود نقائصهم وهؤلاء قيل فيهم : كل لسان العارف . ومن تجلى تعالى عليه بجماله ، شهد نفسه غنيا بالله ، عزيزا بالله ، قادرا بالله . قويا بالله ، وقلبه فى سرور الأبد .

قال سيدى الشيخ زروق فى مثل هذا : هو الذى يظهر على يديه سر التعريف ، وشهود المنة فى التعريف والتكليف وهو الذى قيل فيه : نطق لسان العارف . . . ومن تجلى عليه بكماله تعالى ، كان الكامل ، وبلغ مجمع

البحرين ، ودار بين الحالتين فتارة جمالى ، وتارة جلالى ، ليعطى كل حالة حقها .

قال الإمام البونى رحمه الله تعالى فى شمس معارفه الكبرى فى شرح اسمه تعالى جليل :

اعلم أن معنى الجليل هو المنعوت بنعوت الجلال والجمال ـ « انظر شمس المعارف الكبرى الجزء الرابع صفحة ٦٤ » .

وورد أن الله تعالى ، جميل يحب الجمال ، وأن تعشق الصور الجميلة موصل إلى الله تعالى ، لأن الله تعالى إذا تجلى على قلوب الخواص من أهله ، قيدهم بمحبته الصور المحبوبة، قيل: كان بعض العارفين يحب صورة من الصور الحسان حتى اشتد شغفه بها فهتف به هاتف : أما آن لك أن ترجع إلى محبتنا . فترك محبة تلك الصورة ورجع إلى محبة الله تعالى اهـ .

فمن تجلى عليه بصفة الجمال التذ به فى كل جميل لأنه به ومنه ، فافهم والله أعلم .

الحكمة الخمسون

﴿ إن جعلك من المقربين ، لايغفلك عن وحدته، وإن جعلك من الأبرار، حجبك عنه بك ، لا به ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة من المعانى : « إن جعلك » أيها السالك طريق المقربين « من المقربين » ومنهم « لايغفلك عن وحدته » ذاتية كانت أو أسمائية ، أو صفاتية . أو فعالية . فلا تغفل عنها ، بل تحضر معها فى كل شىء ومع كل شىء . . . فتوحيد المقربين إذا لازمته واتصف قلبك به ، أعطاك مالم تعطك إياه العبادة المجردة والمجاهدة .

قال الجنيد : سئل بعض العلماء يعنى بالله ، عن التوحيد فقال : اليقين ، قال السائل بين لى ما هو ؟ فقال : هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله تعالى وحده لاشريك له ، فإن فعلت ذلك فقد وحدته .

وقال أبو الحسن النورى رحمه الله : التوحيد كل خاطر يشير إلى الله تعالى . . قال بعضهم : كلام أهل الله ياقوتة ، من أخذ منه حبة أغنته . آه من التقريب والتسديد . قلت: والمقرب إذا غلب عليه حال القرب فى الوحدة مع اليقين بالوحدة ، المقرب إذا غلب عليه هذا الحال ، فنى المقرب ، وبقى المقرب سبحانه وتعالى ، ومن هنا فإن منهم من قال : أنا الله .

قال سيدى ابن عطاء الله فى حكمه : سبحان من ستر من الخصوصية ، بظهور البشرية ، وظهر بعظمة الربوبية ، فى مظاهر العبودية . وقال سيدى العارف بالله سهل بن عبد الله : إن للربوبية سرا « يخاطب به الحق كل عين من المخلوقات ، لو ظهر لعطلت الشريعة، وقال أيضا : منذ ثلاثين سنة أكلم الله والناس يظنون أننى أكلمهم .

والمقربون هم الذين لايعبدون الله لغرض ، بل امتثالا لأمره ، ومحبة فى مشاهدته .

قال سيدى على الخواص : لا فرق بين عباد الأصنام وبين من يعبد الله لغرض اهـ . فأرح قلبك ياأخى من السوى تظفر بالمنى والهنا . «وإن جعلك أيها السالك «من» الأبرار الواقفين مع الأعمال ، الناظرين إليها فى كل حال ، وعلى كل حال ، ولم يشهدوا تجلى الواحد الجبار «حجبك عنه بك» ، أى برؤية فعلك للأعمال ووقوفك معها ، لابه أى برؤية فعله فيها .

قال العارف بالله تعالى سيدى رسلان الدمشقى قدس الله سره العزيز : إن جئت بلا أنت قبلك ، وإن جئت بك حجبك .

قال سيدى محي الدين بن العربى ، وهو من أكابر العارفين بالله تعالى : حسنات الأبرارسيئات المقربين . قلت:لأنالأبرار يشهدون الخلق بلاحق. والمقربون يشهدون الحق فى الخلق ، وكذلك كان مشركا عند المقربين من يشهد أعماله منه إلى الله ، ولا ينجو من الشرك الخفى إلا من شهد أعماله بالله من الله لله ، ولم ير لنفسه حولا ولا قوة فيها ، إذا عرفت ذلك عرفت معنى حسنات الأبرار سيئات المقربين . . . فالمقربون يشهدون قرب الله منهم بالذات والصفات والأفعال فى كل حال ، وعلى كل حال .

قال سيدى الشيخ زروق رضى الله عنه : فهو أقرب إلى العبد من نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد وهو العرق الذى يجرى فيه النفس . قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله : كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كل شىء فافهم مقامهم . . والله أعلم .

الحكمة الحادية والخمسون

﴿ العارف بالله من يشهد الحق فى كل شىء يراه ، والعارف بنفسه لله من استدل عليه بما سواه ﴾ .

قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « العارف بالله » هو الذى يرى تجليات الله إليه فى نفسه وفى الخلق ، ويشهد سريان قدرة الله فى جميع الممكنات التى ظهر وجودها من جماد ونبات وحيوان .

قال سيدى الشيخ زروق رضى الله عنه : المعرفة تحقق العلم بجلال الله فى سر العارف على قدر مافتح له ا هـ .

« من يشهد الحق فى كل شىء يراه » فلا يرى لنفسه ولا لغيره حركة ولا سكونا إلا من الله .

« والعارف بنفسه لله » هو الذى يستمد معرفته لله تعالى بجده واجتهاده ، ويستدل عليه تعالى بقواه الظاهرة والباطنة ، ويقول فى نفسه إن لم أستدل على ربى بالدلائل القطعية فأنا كافر بالله ، فيجد فى السير لتحصيل هذه المعرفة ، فان حصلها شاهد نفسه كأنه احتج على الله بما عرف من الواجب ، والمستحيل والجائز فى حقه تعالى ، فإن سلمت معرفته هذه من الافتخار بها ، كان من خلص الأبرار لا من المقربين ، قال تعالى : قد علم كل أناس مشربهم .

وقال سيدى الشيخ زروق رحمه الله تعالى : لكل فريق من المعرفة طريق ، فمن سبق لسره وجود الحقيقة استدل بالحق على الخليقة ، ومن سبق له وجود الخليقة ترقى بالنظر فيها إلى الحقيقة .

فظهر على كل فى شاهده ، ماأودع فى غائبه ، إظهاراً لنسبته فى رتبته .

وقال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله فى حكمه : شتان بين من يستدل به ،

وبين من يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه اهـ .

قال سيدى أحمد زروق رضى الله عنه فى مقسميه : شتان أى بعدان وفرقان بين مرتبتيهما وإن اجتمعا فى أصل واحد فى المعرفة ووجه الاستدلال ، إذ لا يستوى من تعرف إلى الله بعقله ، ومن تعرف الله إليه بنوره ، بينهما فى الحظ ما بينهما فى الخط ، ثم قال : المستدل به هو الذى سبق لقلبه وجوده تعالى . والناس فى ذلك ثلاثة :

الأول : رجل قام فى مبادىء أمره بتقرير البراهين على نفسه ، حتى تحقق فيها من حقائق التوحيد ما لم يمكن أن يسبق لقلبه سواه ، فتكون معرفته نتيجة كسبه .

والثانى : رجل أدركت حقيقته وجودا مطلقا ، دون شعور بغيره فحمل عليه موجودا مطلقا إذ لا وجود إلا بموجود يحمل عليه ذلك الوجود . قلت : فشهد الموجود ولم ير الوجود لما أدركه بمعرفته من حقائق الموجود ، فكان وجوده بموجود . ثم قال :

الثالث : رجل مكث فى قلبه وجود الحق على وجه لا شعور له بأصله ، ولا يمكنه التردد فيه لوضوح الأمر عنده ، بل صار علمه به كسائر الضرورات فكانت معرفته عن تجل سبقت مادته يوم « ألست بربكم » ، فعرفه معرفة يشهد بها كل كمال له فى الجملة .

قال رضى الله عنه : ويحكى أن سهلا كان ابن ثلاث سنين إذا قام خاله معروف رضى الله عنهما لصلاته من الليل قعد فى سريره ينظر إليه فقال له ليلة : يا ابنى نم ، فقد شغلت سرى ، فقال أرأيت من تجلى لقلبه شيء فسجد له قال له : إلى متى ؟ قال إلى الأبد فقال له يا ابنى اقعد ، أو نم ، فإن خالك لم يفهم ، أو كما قال . ثم قال الشيخ زروق رضى الله عنه فى المستدل به : فهو لا يرى شيئا إلا قال رأيت الله قبله . قلت : فالدليل عليه عند القوم عمى بصيرة ، وانطماس سريرة . قال فى لطائف المنن : أعلم أن الدليل إنما نصب لمن يطلب الحق ، لا لمن يشهد الحق ، فإن الشاهد غنى لوضوح المشهود عنده .

الحكمة الثانية والخمسون

﴿ الفكرة فكرتان : فكرة تستدل بها على خالق الأكوان ، وفكرة تشهدك مقام الإحسان ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : الفكرة فكرتان: دنيا وعليا ، فالدنيا لأهل الظاهر وهى شريعة ، والعليا لأهل الباطن وهى حقيقة ، فالأولى بمنزلة الجسد ، والثانية بمنزلة الروح ، والجسد خلق من التراب الأسفل ، والروح خلقت من النور الأعلى ، ولكل من الفكرتين أهلها وقبيلها ، فالأولى للمريدين ، والثانية للعارفين المحققين فمن لازم الأولى كان له قوله صلى الله عليه وسلم : فكرة ساعة خير من عبادة سنة ، ومن لازم الثانية كان له قوله صلى الله عليه وسلم : فكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، وكلاهما خير ، وإن تفاوتا فى الدرجات .

قال سيدى ابن عطاء الله فى حكمه : ما نفع القلب شىء مثل عزلة ، يدخل بها فى ميدان فكره .

واعلم أن الفكرة على قسمين : فكرة فى الحدوث ، وفكرة فى القدم ، فالفكرة فى الحدوث الفكرة فى صنائع قدرته ، وهذا هو النوع الأدنى منها ، والأعلى هو الفكرة فى القدم .

والفكرة فى القدم تنقسم إلى أربعة أقسام : فكرة ذاتية ، وأسمائية ، وصفاتية ، وأفعالية . فالقسم الأول وهو الفكرة الذاتية ينقسم إلى قسمين: ممنوع ومطلوب ، فالقسم الممنوع هو الفكرة فى كيفيـــة الذات ، وماهيتها ، وأنيتها ، وعينيتها ، قال تعالى : ويحذركم الله نفسه ؛ أى ذاته . وقال صلى الله عليه وسلم تفكروا فى مخلوقاته ولا تتفكروا فى ذاته ، والقسم المطلوب على قسمين أيضا : أدنى وأعلى ، فالأدنى هو الفكرة فى وجود

الذات وقدمها ، وبقائها، ومخالفتها للخلق، وقيامها بنفسها ووحدانيتها، والأعلى هو الدهش في كبريائها أي كمالها عن كل نقص وعيب ، والغيبة بها عما سواها، وذلك هو التجلي الذاتي .

والفكرة الاسمائية على قسمين : أدنى وأعلى، فالأدنى معانيها ، ومظاهرها وعظمتها ، والأعلى قيام الوجود بالحروف المفردة الثمانية والعشرين حرفا ، وتركيبها في الأسماء ، والاسم عين المسمى وذاته ، وهو عجيب .

والفكرة الصفاتية على قسمين : أدنى وأعلى ، فالأدنى جولان القلب فكرة وعبرة بأنه تعالى قادر ، ومريد ، وعالم ، وحي ، وسميع ، وبصير ومتكلم . وتعلق ذلك بالممكنات والموجودات ، والواجبات ، والمستحيلات والجائزات . والأعلى مشاهدة إن كل ماسوى الله مما يوصف بالحياة ميت في الحقيقة ، وأن لاحي إلا الله .

والفكرة الفعلية على قسمين : أدنى وأعلى ، فالأدنى أنه تعالى فاعل من غير معين ، ومن غير آلة ، بخلافنا نحن في أفعالنا ، فانا محتاجون إلى العون والآلة ، والأعلى : أنه هو الفاعل ، وليس لسواه فعل ، لأن بيده ملكوت كل شيء ، وتارة يفعل بآلة ، وتارة يفعل بغير آلة ، ودليل فعله بالآلة قوله تعالى للصحابة : قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم .

والفكرة مما حثت عليه الآثار ورغبت فيه كل الترغيب ، قال صلى الله عليه وسلم : عليكم بالفكرة العليا حتى تعرفوا الله حقاً وصدقاً ، وقال عليه السلام : فكرة ساعة خير من عبادة سنة ، وفي رواية أخرى : خير من عبادة سبعين سنة ، وقال أيضاً : الفكرة سير القلب في ميدان الأغيار ، وقال أيضاً : الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له فمن أراد تنوير باطنه بالمعرفة فعليه بها ، وأن يصمت ويجعل باطنه منعزلا عن الخلق ، ولو كان معهم ، لقوله عليه الصلاة والسلام : الصمت يورث معرفة الله ، والعزلة تورث معرفة

الدنيا ، والجوع يورث معرفة الشيطان ، والسهر يورث معرفة النفس ا ه .

« فكرة تستدل بها على خالق الأكوان » من جماد ، ونبات وحيوان ، فى العوالم العلوية والسفلية ، فتستدل بها على صانعها ، وتعرفه بها ، وتجيل فكرك فى بدائع صنعه تعالى ، حتى تندهش من عظمة الصانع ، التى توحيها إليك عظمة الصنع . على أن فكرك فى نفسك أتم وأكمل .

« وفكرة تشهدك » أيها العارف « مقام الإحسان » فتدهش فى المعارف الإلهية ، وتفنى فى مجالى الرحمن ، ولاتعلم بنفسك أنك إنسان .

قال العارف بالله ، القطب الصمدانى ، والغوث الرحمانى ، الشيخ محمد السمانى قدس الله سره العزيز مشيراً لهذه الفكرة : نظرة من العارف بالله فى الملكوت تعدل عند الله عبادة الثقلين .

وقال سيدى العارف بالله أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى : الفكرة أعلى من العبادة ، لأن العبادة تنقطع من صاحبها فى الجنة ، والفكرة لاتنقطع عنه أبدا .

وقال سيدى العارف بالله تعالى الشيخ إدريس رحمه الله : الفكرة لها عين ، وفى العين أربعة أبواب : الأول منها باب الرحمة ، الثانى باب النعمة ، الثالث باب الرضا ، الرابع باب الوصول .

قلت مفصلا ماأجمله رضى الله عنه : باب الرحمة فكرة الندم على المعاصى ، وتوبة يرحم الله بها صاحب القلب القاسى ، وباب النعمة فكرة النظر بالقلب إلى نعم الرب ، ومابكم من نعمة فمن الله . وباب الرضا تحققك أن ماسبق من قضاء الله عليك ، وأصل إليك ، خيرا كان ، أم شرا ، فتكون راضيا باختيار الله لك ، ولقد ناجى موسى ربه فقال : يارب علمنى شيئا أنال به رضاك ، فقال تعالى ، ياموسى رضاى فى رضاك بقضائى ، وباب الوصول ، الفكرة فى أصل الأصول وهو شهود عدمك لوجوده ا ه .

وقال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى فى الفكرة : الفكرة فكرتان، فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان .

قال سيدى الشيخ أحمد زروق رضى الله عنه فى مقسميه : الفكرة أربعة:

الأولى : فكرة تفيد التصديق والإيمان ، وهى فى أدلة الصنع ، طلباً لبرهان الحق .

الثانية : فكرة ناشئة عن التصديق والإيمان وهى الفكرة فيما دل عليه من لوازمه كالدار الآخرة ، وأخبار الأمم السالفة وانقراض الدنيا إلى غير ذلك .

الثالثة : فكرة ناشئة عن شهود الحقيقة ومعانيها ، ومرجعها لجولان القلب فى بساط التعظيم والإجلال .

الرابعة : فكرة موجبة للشهود والعيان ، وهى الفكرة فى مجارى الحقيقة من تصرفات إلا لحق ، وتقلبات الخلق ، ونحو ذلك مما يهدى للحقيقة ، اهـ كلامه رحمه الله ، والله أعلم .

الحكمة الثالثة والخمسون

﴿ الحب حبان ، حب منشؤه التصديق والإيمان ، وحب منشؤه شهود المنعم بالعيان ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناشرا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « الحب» هو ميل القلب إلى المحبوب ، وحب السالكين ، ميل قلوبهم إلى الحضرة الإلهية ، والشوق أعلى منه ، وهو اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب ، وكل منهما مرتبط بالآخر ، وإن كانا مختلفين فى المراتب ، فإن من أحب شيئا اشتاق إليه ولابد ، ومن تشوق لشىء كان له محباً .

والشوق إذا عظم كان فناء ، والفناء ماغاب صاحبه عن نفسه ، وتلاشى فى محبوبه ، فقال : هو أنا .

والحب على الحقيقة ، حبان : حب ناشىء عن تصديق وإيمان بما وعدنا الله به من النعيم فى الدار الآخرة ، وأن الله تعالى هو خالقنا ورازقنا وهو المنعم علينا بجميع النعم الظاهرة والباطنة ؛ فنحن نحبه لهذا الإحسان ، وكذلك نحب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لإيماننا بأنه محبوب لله ومحبوب المحبوب محبوب ، وكذلك نحب الأنبياء أجمعين ، وإن كانت محبتنا لهم دون محبتنا لسيد الخلق ، صلواته وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، فانه حبيب الله الأعظم ، ومنزلته عند الله بالنسبة لغيره من الرسل والأنبياء كمنزلة الاسم الأعظم لله تعالى ، من بين سائر أسمائه الحسنى .

« وحب منشؤه شهود المنعم بالعيان » وهو حب العارفين بالله ، أهل المعاينة إلى حضرة الله المنزهة عن كل نقص ، وهم فى ذلك درجات عند ربهم .

فالمحبة نار تحرق ، وإن كانت ناشئة عن التصديق والإيمان ، فكيف بها

إذا كانت عن شهود وعيان ، واعلم ياأخى أن الطريق إلى محبة الله تعالى منته وآلاؤه ، فلو فتح لك باب التودد إلى الله لرأيت العجب أى من منن الله تعالى . قال صلى الله عليه وسلم : أحبوا الله لمايغذوكم به من نعمه ، وأحبونى بحب الله . قال تعالى : وما بكم من نعمة فمن الله .

واعلم أن حقيقة الحب أن يلتذ المحب بمحبوبه فى كل لذة ، وكيفية ذلك أن يعلم ويشهد أن حصولها له إنما كان به ، وعطاءها إياه إنما كان منه ، فيغيب بذلك عن اللذات بشهود الملذ ، وعن المحبوبات بشهود المحبوب ، وعن النعم أيا كانت بشهود المنعم .

والالتذاذ إنما يحصل عن طريق الحواس الخمس ، وهى السمع ، والبصر والشم ، والذوق ، والحس ، فلذة السمع ، مايلتذ به سمعك من اللغات من الإنس وجميع الحيوانات ، ولذة البصر مايلتذ به بصرك من الجمالات ، ولذة الشم مايشمه أنفك من طيب الرائحات ولذة الذوق مايلتذ به عن طريق لسانك من المذوقات ، ولذة الحس ماتلتذ به ذاتك من الراحات . وهو مشتمل على مايحصل للذات من لذة هواء طيب يمر على الجسم ، أو لذة جماع ، أو راحة من خروج غائط ، والعقل هو ملك هذه الحواس جميعها وهى الطرق الموصلة إلى التلذذ بنعم الله ، والعارف المحب لله يلتذ ، فى كل مايلذ ، بالله ، لأنه يذوق بروحه ، ويعرف بعقله الروحانى النورانى لولا الله لم تحصل له ، ولم تكن ، فيشهد اللذة من الله فيحبه .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه فى مقسميه : إن الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه قال يوما: أمالانحب إلاالله ، فقال له رجل قد أبى ذلك جدك ياسيدى لقوله عليه السلام جبلت القلوب على حب من أحسن إليها .

فقال له الشيخ رضى الله عنه : حيث إنا لم نر محسنا إلا الله ، لم نحب سواه ، اهـ . بمعناه :

أحبك حبين : حب الهوى   وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى   فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهـــل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا
وما الحمد فى ذا ولا ذاك لى   ولكن لك الحمد فى ذا ، وذاكا

وقال صاحب « مفتاح الكنوز،وحل الرموز » رضى الله عنه : قد أطلق القوم القول فى المحبة بألفاظ مختلفة ومعان متقاربة فتكلم كل منهم بحسب ذوقه ونطق على مقدار شوقه ، كذلك اختلفوا فى تسميتهـــا واشتقاقها من حيث اللغة فقال قوم : الحب اسم لصفاء المودة . وقال آخر : المحبة محو المحب لصفاته . وإثبات المحبوب لذاته . وقال آخر : هى مواطاة القلب لمراد الرب .

وسئل الجنيد عن المحبة فقال دخول صفات المحبوب . على البدل من صفات المحب .

وقال الشبلى : سميت المحبة لأنها تمحو من القلب ماسوى المحبوب . وقال أيضاً : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك .

وقال بعضهم : هى أغصان تغرس فى القلب فتثمر على قدر العقول . وقال النصر باذى : محبة توجب حقن الدماء ، ومحبة توجب سفك الدماء .

وقال الحارث المحاسبى : المحبة ميلك إلى الشىء بكليتك إيثارا له على نفسك وروحك ومالك . ثم موافقتك له سراً وجهراً . ثم علمك بتقصيرك فى حبه .

وقال الشيخ السرى السقطى : لاتصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا . وقيل : المحبة أن تنطبق جميع مرادات المحب على جميع مرادات الحبيب فلا يبقى له معه إرادة .

وقيل للشبلى : مابال المحبة مقرونة بالمحنة ، فقال لئلا يدعيها كل سفلة . وتذاكر قوم المحبة عند ذى النون المصرى فقال : كفوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها .

وقال أبو بكر الكتانى : جرت مسألة بمكة فى المحبة ، فتكلم فيها المشائخ وكان الجنيد أصغرهم سنا فقالوا : هات ماعندك ياعراقى . فأطرق برأسه . ودمعت عيناه ثم قال : المحب عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه . ناظر إليه بقلبه . أحرقت قلبه أنوار هويته وصفا مشربه من كأس وده . وكشف له الجبار عن أستار غيبه . فإن تكلم فبالله . وإن نطق فمن الله . وأن تحرك فلله . وإن سكن فمع الله . فهو بالله . وإلى لله . ومع الله . فبكى الشيوخ ، وقالوا : ما على هذا مزيد . جبرك الله ياتاج العارفين اهـ .

وقيل : المحبة أولها يحبهم ، وآخرها يحبونه ، وبينهما مهج تذوب . وأرواح تطير إلى المحبوب .

قال الشيخ رحمه الله : فمن ثبت قدمه عند كأس يحبهم ، قال : هو ، ومن تجاوز سكره حد الثبوت حتى تناول كأسه بكف محبوبه قال أنا ، فالشارب بكأس يحبهم متمكن ، والشارب بكأس يحبونه متلون ، والناطق « بالأنانية» متكلم من وادى المحو بلسان الإثبات ، والناطق بالهوية متكلم من وادالفناء بلسان البقاء، فكلاهما ناطق صادق، وللحقيقة موافق . لأن من قال أنا ماأراد بها نفسه ، لأنه مأخوذ من نفسه ، مجذوب عن حسه . فآخذه وسالبه ، وجاذبه ، هو المتكلم بلسانه .

وسئل المجنون : أتحب ليلى ؟ قال لا . فقيل : كيف ؟ قال لأن المحبة ذريعة الوصلة . وقد سقطت الوصلة بينى ، وبين ليلى ، فأنا ليلى ، وليلى أنا .

وقال المحب العارف بالله الشيخ عبد السلام المقدسي قدس الله سره العزيز ، ونور ضريحه :

ولقد تصافينا المحبـــة بيننا فأنا ومن أهوى كشيء واحد
لا زلت أقرب منـه حتى صـــار لى
بصري وسمعي حيث كنت وساعدى
فإذا رأيت فلا أرى إلا به وإذا بطشت فلا يزال مساعدى
ماشئت شاء ، وما أراد أريده فلى الهنا فلقد بلغت مقاصدى

قلت : يا أخي ، إن صاحب المحبة الأولى إن تكلم شطح ، ولم يدر المقصد . ولم يعرف المرصد ، فإن من دهش من حلاوة الحب ، لم يدر ما القرب . وصاحب المحبة الثانية إن تكلم تكلم فتحاً ، كهذا الأستاذ وغيره من القوم . . والله أعلم .

الحكمة الرابعة والخمسون

﴿ الحال معنى يرد على القلوب ، والتجلى ما يكشف لك الله به أنوار الغيوب ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناشرا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « الحال » حقيقة هو السالب للاختيار ، وأصله معنى يرد على القلب من حضرة الرب. وهذا الوارد يختلف باختلاف حال السالكين ، ومشارب العارفين ، وتكلم فيه القوم بعبارات جليلة أفيضت معانيها على قلوبهم .

وقيل : إنه يرد على القلب فى اليوم والليلة ألف وارد من خير وشر ، وهذا بمعناه العام ، وليس مرادنا ، وإنما مرادنا فى هذه الحكمة وارد أهل السلوك المقبلين على الله تعالى ، يرد على قلوبهم فيحصل لهم منه مايدلهم على الله تعالى رغبة أو رهبة . .

والواردات الدينية التى ترد فتنتج الأحوال ثلاثة ، وارد شريعة ، ووارد طريقة ، ووارد حقيقة .

فوارد الشريعة إذا ورد على قلب السالك ، حثه على اتباع أوامر الله ، واجتناب نواهيه .. ووارد الطريقة إذا ورد على قلب السالك رغبه فى الأخلاق المحمدية ، كالرضا بمراد الله ، وحب الله ، وحب رسول الله من أجل الله ، والحلم واللطف والكرم ، والرحمة ، والشفقة على الخلق ، والصبر على أذاهم ، والزهد فيما فى أيديهم ، والمجاهدة فى ذكر الله ، ومخالفة النفس وتسييرها فيما يرضى الله ، إلى غير ذلك من الأخلاق المحمدية .

ووارد الحقيقة يرد على القلب فينفى عنه السوى ويبقى الرب لاشريك له . ويشهد صاحبه نفسه بلانفسه وهو أعظم الأحوال وأقربها من حضرة الله ، وهو مقصد القوم .

روى عن الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه أنه قال : سحت خمسا

وعشرين سنة حتى طرقني الحال الذى يطرق أهل الله تعالى ، يعنى بذلك حال أهل الحقيقة الوارد منه تعالى على قلوب بعض الخليقة ، والتجلى : هو تكشف لقلب السالك من أنوار الغيوب وأصله اللغوى الظهور بعد الخفا .

والتجلى على أقسام ثلاثة : جلالى وجمالى ، وكمالى . فمن تجلى له الله بالجلال قبضه ، وإذا نظر إلى شخص بعين غضب أهلكه ، ومن تجلى الله عليه بالجمال بسطه ، وإذا نظر إلى شخص بعين الرضا أصلحه ؛ ومن تجلى الحق عليه بالكمال كان دائرا بين ماتقدم من جلال وجمال ، فأعطى كل رتبة حقها .

وأهل تجلى الجلال لهم كتم السر ، وأهل تجلى الجمال لهم كشف السر وإفشاؤه ، وصاحب تجلى الكمال دائر بينهما ، فافهم التجليات ، فلله خوارق العادات .

وقد سمعت من شيخى قطب عصره الشيخ محمد السمان رحمه الله تعالى : أن التجلى لايدوم مع العبد .

وكان بعض الأولياء إذا كان فى حال التجلى يقول للناس : حدثنى قلبى عن ربى ، فكان الحجاب الذى يخاطبه ربه من ورائه ، قلبه ، فافهم الأخذ عن الله بواسطة القلب النورانى ، ولقد تجلى ربى على روحى ليلة من الليالى فى سر المشاهدة بأربع كلمات فقال لى : عليك بالمجاهدة ، والتسليح ، والتركيب ، والمسرة ، وألهمنى بعد صحوى أن المجاهدة مجاهدة النفس فى كل مايرضيه ، رغبة ، أورهبة ، سواء أكان مارغب فيه الشارع غير مستوجب ؛ أم واجباً ، مع اجتناب جميع النواهى ، والتسليح التعلق ، والتخلف ، والتحقق ، بأسمائه تعالى مع ملاحظة المعنى القائم بكل اسم منها والتركيب رؤية الوحدة فى الكثرة والكثرة فى الوحدة ، والمسرة إرادة مايريده الله تعالى من خير وشر ، وبالله التوفيق .

قال سيدى الشيخ محمد السمان ، رضى الله عنه : فمن زالت بشريته ، كلمه ربه ، وما سمى البشر بشرا إلا لمباشرته للأمور المانعة له من التوجه للخالق ، فلو زال حكمها وانسلخ منها صاحبها سمع خطاب الحق من غير حجاب اه . من تحفة القوم . هذا والولى الكامل ، والوارث المحمدى ، العارف بالله

تعالى إذا حصل له تجل يقول : حـــدثنى قلبى عن ربى ، ولا يقول كلمنى ربى ، كما كلم موسى لما فى ذلك من المكر الخفى الذى يعرفه الكاملون من أهل الله تعالى .

والتجلى يكون من العرش إلى الفرش كشفاً ، بعد المشاهدة القدسية ، لكن ذلك لاثبوت له كما مرآنفاً ، والكشف على حسب المنح ، قل أوجل ، فافهم ، وبعض الأولياء لايكشف لهم سبحانه وتعالى إلا عن تجليات ذاته فقط ، فلا يشهدون غيره .

قال صاحب مفتاح الكنوز فى ذلك المعنى : الحق سبحانه وتعالى إذا تجلى على قلب عبده المؤمن يشاهده بعين يقينه ، ويجتليه ببصيرته من غير حلول ، ولا تحيز ولا انفصال ، ولااتصال ، مثال ذلك — ولله المثل الأعلى — التجلى للمرآة ومقابلتها وانعكاس أشعة أنوارها لناظرها ، والولى يشهد جمال محبوبه فى قلبه من غير حصر ، ولا تحيز ، ولاحلول ، وقال رضى الله عنه وأرضاه فى ذلك المعنى مايشرح الصدور ويفرح ويبهج النفوس :

ولما تجلى من أحب تكرما ... وأشهدنى ذاك الجناب المعظما
تعرف لى حتى تيقنت أننى ... أراه بعينى جهرة لاتوهما
وفى كل وقت أجتليه ولم يزل ... على طور قلبى حيث كنت مكلما
وما هو فى وصلى بمتصل ولا ... بمنفصل عنى ، وحاشاه منهما
وما قدر مثلى أن يحيط بقدره ... وأين الثرى من رفعه البدر إنما
أشاهده فى صفو سرى فأجتلى ... جمالا عليا جل أن يتقسما

واعلم أن هذه الخصوصية لابن آدم دون الملك ، لما ذكرنا من أن الآدمى مخلوق من العالمين اللطيف والكثيف فينزل القلب منزلة المرآة فى لطيفها وكثيفها اللذين لولاهما معا لما انطبع فيها مايقابلها من المرئيات ، وليس كذلك الملك ، فإنه مخلوق من اللطاف فقط ، فهو نور كله ، ظاهره وباطنه ، كالزجاجة الشفافة التى تخترقها الأشعة فلا تنعكس منها ، لعدم الكثيف ، والله أعلم .

الحكمة الخامسة والخمسون

﴿ عجبا منك ياذا القدرة والاعتزاز ، تارة تقول الحقيقة ، وتارة تقول المجاز ، فى ذلك حكمة مخفية علمها عاز ، ماأصابك من حسنة فمن الله حقيقة ، وماأصابك من سيئة فمن نفسك مجاز ﴾ .

(ش) قلت به عنه ، مستعينا بحوله وقوته على ماخفى عنى من علوم وحدته : « عجبا » أى ياعجبا ، لما ظهر لنا من عجائب حكمته تعالى فى كلامه المقدس ، قال الإمام على كرم الله وجهه : القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ، يخاطب فيه سبحانه كل مخلوق على قدر عقله . ولله علوم مخفية لايعلمها إلا أهل العلم بالله .

ومثال الحقيقة والمجاز فى « لاإله إلاالله » وفى غيرها : كل إله سوى الله مجاز ، وهو الإله الحقيقى . ووجود ذواتنا مجاز ، ووجود ذاته تعالى حقيقى ، وصفاتنا وأفعالنا مجاز كذلك ، فافهم ياهالك . قال صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل وكل نعيم لامحالة زائل

فالباطل هو الذى لاحقيقة له مع الحق .

قال الشيخ الدسوقى : الكون من عرشه إلى فرشه خيال فى الحقيقة .

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه فى حكمه : ماحجبك عن الله وجود موجود معه ، إذ لاشىء معه ، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه .

وقال أيضا : شعاع البصيرة يشهدك قربه منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده لاعدمك ، ولا وجودك . يشير رضى الله عنه لوحدة الأفعال ، والصفات ، والذات ، فمن فنى عنه أفعاله

فنى عن قدرته ، ومن فنى عن قدرته فنى عن جميع صفاته ، ومن فنى عن جميع صفاته فنى عن ذاته وشاهد حقيقة : «كان الله ولا شىء معه» ، وهو الآن على ماعليه كان . وصار ميتا فى حضرة اللاهوت .

قال صلى الله عليه وسلم : موتوا قبل أن تموتوا ، قيل معناه موتوا عن أفعالكم ، وصفاتكم ، وذواتكم .

إذ الموت على قسمين : دينى ودنيوى ، وكل من هذين القسمين يتفرع إلى قسمين آخرين : أصغر وأكبر ، فالموت الدنيوى الأصغر النوم ، والأكبر الخروج من الدنيا ، والموت الدينى الأصغر هو الموت فى الطريقة وهو التزام الطاعة ، وخلاف النفس عن شهواتها فى كل ساعة ، والموت الدينى الأكبر هو خروج العبد عن أفعاله ، وصفاته ، وذاته ، وهو موت الحقيقة ، والله أعلم .

الحكمة السادسة والخمسون

﴿ سبحان من جعل خلقه حجابا لحضرة مملكة قدسه ، فمن فنى عن أفعالهم وصل لحضرة وحدة فعله ، ومن فني عن أسمائهم ، وصل لحضرة وحدة أسمائه ، ومن فنى عن صفاتهم وصل لحضرة وحدة صفاته ، ومن فنى عن ذواتهم وصل لحضرة وحدة ذاته ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : سبحان فى هذه الحكمة وأمثالها للتعجب والمتعجب منه هنا واردات الحق فى حجاب الخلق، لأن البشرية إذا لم يسلخ عنها صاحبها ، لايعرف الخصوصية ولا يشهد حقائق الأحدية ، بالكلية والجزئية فى مقام الجمعية .

قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه : سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور البشرية .

والمراد بهذه الخصوصية خاصية العلوم الجبروتية فى المعارف اللاهوتية ، والعارف بالله تعالى يشهد الحق فى أستار الخلق فى كل حال ، وعلى كل حال، وليس كل مايعلم يقال .

ومثال جعله الخلق حجابا لحضرة مملكة قدسه ، أى أن الملوك المجازيين الذين لاحقيقة لهم ولا لملكهم : إنما الملك لله الواحد القهار : يجعلون لهم حجبا تحمى أسرارهم التى لايريدون أحدا يعثر عليها إلا بإذنهم ، فالملك منهم مثال لله تعالى فى ذلك ، ولله المثل الأعلى ، فجعل تعالى خلقه حجابا عن حضراته الأربع : حضرة أفعاله،وحضرة أسمائه ، وحضرة صفاته،وحضرة ذاته ، فمن فنى عن أفعالهم شهد وحدة فعله وكشف له تعالى عن أول حجاب من حجبه ، وتجلى عليه بنوره حتى شاهده وعرف جريان قدرته فى جميع

الكائنات ، وكان من أهل شهود الوحدة فى الكثرة ومن فنى به فيه عن أسمائهم شاهد وحدة أسمائه ، وكشف له تعالى عن الحجاب الثانى ، وتجلى عليه بنور الدرجات .

وتوحيد الأسماء على مراتب ثلاث : أدنى وأوسط ، وأعلى : فالأدنى معرفة معانى الأسماء ، والأوسط معرفة مظاهر الأسماء ، والأعلى مشاهدة الأسماء كلها اسما واحدا ، والاسم عين المسمى فافهم ، فليس كل مايعلم يقال .

ومن فنى به تعالى فيه عن صفات الخلق شهد وحدة صفاته وتجلى عليه الحق بنور من أنوار ذاته ، وصرفه فى مخلوقاته ، وكان سمعه الذى يسمع به الحديث .

وصفة الفناء فى الصفات القائمة بالذات أن يفنى فى صفة القدرة الواجبة له تعالى مثلا : فيشاهد التأثير فى الأفعال الظاهرة والباطنة له تعالى لالغيره ، لله مافى السموات ومافى الأرض .

أو أن يفنى فى صفة الإرادة ، وذلك بأن يكون كارها لغير إرادته تعالى، مريدا لكل مايريده ، فرحا به مسرورا ، راضيا غير ساخط ، مطمئنا غير منازع ، قال تعالى مربيا لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم : ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. ولكن لابد من مراعاة الشرع ظاهرا ، لاباطنا ، افهم تغنم .

أو أن يفنى فى صفة العلم الواجبة لله تعالى ، وذلك بأن يتحقق بجهله المطلق بكل معلوم ، إلا بتعليم الله ، مفتقرا إليه ، ناظرا لقوله سبحانه وتعالى: سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، والا يشاهد لنفسه علما ، وإن قل ، فان ذلك شرك خفى فى صفة العلم ، وقال بعض العارفين بالله : من رأى لنفسه علما فهو الجاهل حقا .

والفناء فى حياته تعالى مشاهدة موتك حالا لوجود حياته : هو الحى لا إله إلا هو : أى لاحى إلا هو .

والفناء فى كلامه أن تكون أبكم ، ولاتتكلم إلا به ، وهذا سرقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث القدسى عن الله عزوجل : لايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى يتكلم به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمسى بها .. وطى ذلك كله فى الباء : بى كان ما كان ، وبى يكون مايكون .

الحكمة السابعة والخمسون

﴿ لايحظى بأعلى الدرجات إلا لمن يسمع بسمع الشاهد ، ويبصر التأثير من عين الذات ببصر الواحد . الأفعال ظاهرها لذات الحيوان وباطنها لذات الملك الديان ، التأثير إنما هو مجاز ، للصفات ، وحقيقة ، للذات الموصوفة بالصفات ﴾ .

قلت به لابى : « لايحظى بأعلى الدرجات » العرفانية الوهبية « إلا من يسمع بسمع الشاهد ، ويبصر ببصر » الذى هو الأحد « الواحد » ويبصر « التأثير » أى الفعل « من عين الذات » فى جميع المخلوقات ، لأن الأفعال كلها للمتحقق العليم ، ظاهرها من حادث ، وباطنهامن قديم ، فالحادث حقيقة ظاهرة من ذاته ، وحقيقة باطنة كذلك ، فهو راجع فى كلتا الحالتين لذات القديم ، والصفات قائمة بالذات،فافهم قربهما وهو معكم أينما كنتم ، رأيته هو الفاعل وسمعته هو الناطق فحققت نفسى بالعدم ، وشاهدت القدم ، وتلاشى الناسوت ، وبقى اللاهوت .

قال الشيخ المقدسى رضى الله عنه : الحق سبحانه وتعالى أقرب إلى عين الإنسان من الإنسان ، ومن الآماق إلى الأجفان ، موجود فى كل مكان ، لايخلو منه مكان ، منزه عن المكان والزمان ، منزه عن التمكن فى مكان .

وقال أيضا على لسان الحق تبارك وتعالى :

طريق الوصل سهل إن تردنى ... فنى إياك اطلبنى تجدنى
قريب حيث كنت وحيث تغدو ... وحيث تروح فاطلبنى تجدنى
فانى منك فى قرب وبعد ... كقاب القوس فاطلبنى تجدنى
ولم أك غائبا فيظن أنى ... بعيد عنك فاطلبنى تجدنى

وإنى منك أقرب منك حتى
كأنك فى اتحـــاد القرب أنى
فلا تسأل أهيـــل العشق عنى
ولكن ياقتيـــل الشوق سلنى

قلت : فمن تناول كأسا من حضرة القرب ، وشرب حتى امتلأ باطنه من الحب ، سكر سكرة يفنى فيها عن الأغيار ، بمشاهدة جمال العزيز الجبار ، وكان سمعه منه ، وأخذه عنه ، فيالها من حضرة قدسية ، ومملكة علوية ، والله أعلم .

الحكمة الثامنة والخمسون

﴿ السماع فى مشارب القوم على طرق ، وحقيقته أن تسمع من الحق ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « السماع ويشمل ما كان من الحيوان والجماد على السواء » فى مشارب القوم على طرق » كل منهم يشرب على حسب ذوقه قال الله تعالى : قد علم كل أناس مشربهم ، فمن أهل السماع من سماعه واقف من الخلق ، ومنهم من سماعه من الخلق ، ومرجعه بعدهم إلى الحق ، ومنهم من سماعه من الحق إلى الخلق، ومنهم من سماعه من الحق إلى الحق، فالأول للمحجوبين والاثنان بعده للسالكين: الأول منهما للمبتدىء، والثانى للمتوسط فى السلوك ، والرابع للمنتهى من أهل الحقائق . وهذا معنى قولنا : إن السماع فى مشارب القوم على طرق .

« وحقيقته أن تسمع من الحق » قال بعض العارفين بالله تعالى : من لم يسمع من نفسه على لسان غيره ماشم رائحة المعرفة . ثم قال : من تخلى تحلى، ومن تحلى تولى ومن تولى تدلى ، ومن تدلى تجلى ، ومن تجلى تعلى ، ومن تعلى شاهد ، ومن شاهد تحقق ، ومن تحقق تخلق، ومن تخلق فقد فاز بسعادة الأبد ، وبقاء السرمد . ثم قال :

هاء الهوية قد أحاط بجمله ومفصل فى عالم التركيب
ماثم إلا العين فى أعيانها ماعجب لجمع قد بدا بعجيب

وقال صاحب مفتاح الكنوز : السماع حقيقة ربانية ، ولطيفة روحانية، تسرى من سماع المستمع إلى الأسرار ، بلطائف التحف والأنوار ، فتمحق من القلب مالم يكن ، فيبقى فيه من لم يزل ، فهو سماع حق بحق من حق ، وأما الانزعاج الذى يلحق المتواجد ، فهو لمن ضعف حاله عن تحمل الوارد ، وذلك لازدحام الأنوار فى دخول باب القلب ، فيلحقه دهش ، فيعبث بجوارحه ،

ويستريح إلى الصعقة والصرخة ، والشهقة ، لغلبة وجده ، وأكثر مايكون ذلك لأهل البدايات ، وأما أهل النهايات فالغالب عليهم السكوت والسكون لانشراح صدورهم ، وتساع سرائرهم للوارد عليهم ، فهم فى سكونهم متحركون ، وهم فى ثبوتهم متقلقلون ، قيل لأبى القاسم الجنيد : مالنا لانراك تتحرك عند السماع . قال : وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب .

وقال أيضاً : السماع تذكار الروح للميثاق الأول حين قال : «ألست بربكم قالوا بلى» ، فسمع من سمع كلامه حيث لاحد ولارسم ولاصفة إلا المعنى الذى سمع ، وبقيت حلاوة ذلك السماع فيهم ، فلما أخرجهم وردهم إلى الدنيا ظهر ذلك فيهم . فإذا سمعوا نغمة طيبة ، وقولا حسنا طارت همتهم إلى ذلك الأصل فسمعوا من الأصل وأشاروا إلى الأصل ، فالعارف هو الذى يسمع من الله ، ومن لايعرف الله كيف يسمع من الله ، ومن لايسمع من الله ، فالبهيمة خير منه كما أخبر الله تعالى فى كتابه المبين حيث قال : «لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل» .

قال أبو عثمان المغربى : من ادعى السماع ، ولم يستمع من صوت الطيور وتصفيق الرياح ، وصرير الباب ، فهو مفتر مدع ، فالعارف يسمع ألطف الإشارة ، ويكتفى بها عن العبارة . ودخل يوما أبو عثمان المغربى وواحد يستقى من بئر فتواجد ، فقيل له فى ذلك فقال : إنها تقول : الله الله ، وسمع على ابن أبى طالب كرم الله وجهه صوت ناقوس فقال لأصحابه أتدرون مايقول؟ قالوا لا ، قال يقول : سبحان الله حقا حقا ، إن المولى صمد يبقى . قلت :

ما استماعى فى مشهد الأكوان ... بل سماعى لو ارادت المعانى
انظر انظر تر الحقيقة تبدو ... من غيوب فى عرشها الرحمانى
تشهد الكل واحدا والأسامى ... عين مسماها والذات مالها من ثانى

ومر الشبلى يوما فسمع قائلا يقول : مابقى إلا واحدا . فصاح وقال :

هل كان إلا واحد . وقيل لبعض مشايخ الطرق : لمن يصلح السماع ؟ فقال : لمن لا يفرق بين صرير الباب والصوت الطيب .

وقال الشيخ أبو طالب المكى : إن طعنا على السماع فقد طعنا على سبعين صديق . وسئل الشبلى عن السماع فقال : ظاهره فتنة . وباطنه عبرة . فمن عرف الإشارة حل له السماع ، وإلا فقد استدعى الفتنة ، وتعرض للبلية . ومعلوم ذلك أن السماع مهيج ما فى القلوب ، ومحرك مافيها . فلما كانت قلوب القوم معمورة بذكر الله ، صافية من كدر الشهوات محترقة بحب الله ليس فيها سوى الله . لم يكن السماع فتنة لهم ، لأن الشوق والوجد والهيجان والقلق ، كل ذلك كامن فى قلوبهم ككمون النار فى الزناد ، أما من كان قلبه ملطخا بأقذار الشهوات ، وحب الدنيا ، فالسماع فى حقه فتنة .

حكى عن بعض المشايخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له : ماتقول فى هذا السماع الذى قد اختلف فيه أصحابنا فقال هو الصفاء الزلال الذى لا تثبت عليه إلا أقدام العلماء . وحكى عن ممشاد الدينورى رضى الله عنه أنه قال : رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يارسول الله : هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ قال ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن . ويختتمون بعده بالقرآن ، قلت يارسول الله : إنهم يؤذوننى ، فقال احتملهم ياأبا على . هم أصحابك ، فكان ممشاد يفتخر بها ويقول : كنانى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحكمة التاسعة والخمسون

﴿ إذا أراد الله أن يطلعك على ولى من أوليائه طوى عنك وجود بشريته . وأشهدك سر خصوصيته ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة: « إذا أراد » بمشيئته سبحانه وتعالى « الله » ، وهو أعظم أسمائه الدالة على ذاته « أن يطلعك » أى يعلمك بإلهام منه أو بغيره « على ولى من أوليائه » الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون «طوى عنك» بكشف خاص منه لك «وجود بشريته» المانعة من معرفته « وأشهدك » بتجل منه على قلبك « خصوصيته » المختص بها بين عباده من خصوصيات الخواص .

فالولى إذا أراد الله أن يطلع عليه عبداً من عباده طوى عنه كل وصف ذميم ، وأشهده منه كل وصف حميد ، وظهر له منه أيضا فى النوم واليقظة مايدل على ولايته وحظه عند ربه ، وإن لم يرد الله سبحانه وتعالى أن يظهر على وليه أحد سهل حجاب البشرية بينه وبينه وأراه منه فى النوم واليقظة . ماينفر هذا المخذول ، والعياذ بالله من ذلك .

روى أن رجلا كان من المتكبرين على الشيخ عبد الغنى النابلسى رضى الله عنه . وكان من أهل قريته . فرأى فى المنام سيدى عبد الغنى على صورة خنزير فأتاه فى الصباح وقال له : ياسيدى رأيتك الليلة البارحة على صورة خنزير . فنظر إليه الشيخ وقال :

قل للوشاة الألى ظنوا الخنا فينا ذا من صفانا ، رأوا أوصافهم فينا
نحن الألى قد شربنا ساقينا الله يعلم بادينا وخافينا

وروى أيضا أن مريدا لسيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه ، جاء

لشيخه ، وكان فى نفسه شىء ، فقال : ياسيدى رأيت وجهك الليلة البارحة وجه خنزير ، فقال له أبويزيد : صدقت ياولدى ، فإننى مرآة الوجود .

هذا ماكان من أمر النوم . أما فى اليقظة ، فقد قال سيدى الشيخ أحمد زروق رضى الله عنه : الإقرار بخصوصياتهم يعنى الأولياء نتيجة العرفان بخصصهم ، وأيضاً كما لادليل عليه سوى ماظهر من أفعاله ، كذلك لادليل عليهم سوى ماظهر من أعمالهم، بل قد قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : الولى إذا أراد أغنى .

وقال سيدى الشيخ أحمد زروق رضى الله عنه : الوصول للولى هو تحقق العلم بنسبته لجناب الحق ، حتى يقتضى ذلك تعظيما واحتراما ، وخدمة واكراما .

وقال أيضا رضى الله عنه : وأولياؤه هم الذين تولاهم فى جميع الأحوال فلم يدعهم لغيره . فاكتفوا به عن كل ماسواه .

وقال شيخه أبو العباس رضى الله عنه : فهنيئا مريئا لمن ذاق أذواق بعض ماذاقوا .. وقال : رأى بعض الصالحين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام . فقال له : يارسول الله مارأيناك حتى نسألك عن أفضل الأعمال ؟ فقال له عليه أفضل الصلاة والسلام : أفضل الأعمال . وقوفك بين يدى ولى من أولياء الله ولو قدر حلب شاة ا هـ . من المقسم .

وقال بعض العارفين بالله : حقيقة الولى هو العارف بالله تعالى وبصفاته على قدر الإمكان ، المواظب على الطاعات ، المجتنب للمنهيات . المعرض عن الانهماك فى اللذات ، والشهوات المباحات .

والولاية على قسمين : ولاية صغرى . وولاية كبرى . فالولاية الكبرى أن يتولى الله العبد بأن يمحق من قلبه كل ماسواه ويجمعه إليه بحيث لايرى إلا إياه ، والولاية الصغرى أن يتولى العبد ربه بالعكوف على طاعته ، ومنابذة أسباب سخطه .

واعلم ياأخى أن الله ساتر أولياءه بستره الجميل لأنهم عرائس الكون والعرائس مخفيات ، والدليل عليهم من شواهد العظمة .

قال سيدى ابن عطاء الله : سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه .

وقال سيدى أبو القاسم الجنيد ، رضى الله عنه: الإيمان بطريقتنا هذه ولاية .

وجاء فى التنوير : الإيمان بالفتح ، لا يكون إلا بفتح . قلت: إساءة الظن بعامة المسلمين مصيبة عظمى ، فكيف بهم؟ .

واعلم أن بأولياء الله عمارة الكون وعددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، لا يزيدون ولا ينقصون فى كل عصر . على عدد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، كلما انتقل واحد منهم إلى الدار الآخرة . حل محله آخر فى دار الدنيا .

وقد ذكرهم سيدى محي الدين بن العربى رضى الله عنه وقدس سره العزيز وسماهم فى الفتوحات المكية ، وعدهم جميعاً . ذاكرا الرجبين ، والأبدال ، والأقطاب ، وغيرهم ، فاطلب تفصيل ذلك فى الفتوحات ، تنظر فيه العجب العجاب . والله أعلم .

الحكمة الستون

﴿ إذا أراد أن يخفى عنك نفسه حجبك عن أهل حضرته ، وعرفك بأهل غفلته ، وهذا من علامات مقته ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « إذا أراد » سبحانه وتعالى بإرادته الأزلية وتقدير مشيئته الربانية « أن يخفى » أى يحجب « عنك » أيها المريد « نفسه » الوجودية . ولا يجعلك من أهل معرفته الكشفية « حجبك » بحجاب الوهم والخيال ، والوقوف مع الأغيار « عن أهل حضرته » القائمين بأداء حقوقه الربانية ، المتجملين بالأخلاق المحمدية، الناظرين إليه بعين البصيرة فى أنفسهم وفى آفاق البرية ، « عرفك » الحق جل وعلا « بأهل غفلته » أبناء الدنيا المقبلين عليها بالكلية حالا ، وقالا : وجسما وروحا ، إذا أصبحوا انظروا فيما يفعلون لافيما يفعل بهم ، وإذا أمسوا فكذلك ، كما قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى : الغافل إذا أصبح ينظر فيما يفعل . والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به .

« وهذا من علامات مقته » من هنا ، للتبعيض ، لأن علامات المقت ، والعياذ بالله كثيرة ، والمقت ، من الله ، الطرد والبعد من حضرته ، ويكون بسبب من العبد ، وتارة بغير سبب ، لحكمة يعلمها الله تعالى ، وكل من الوجهتين يتفرع إلى ماشاء الله .

وأسباب المقت أربعة : النفس ، والشيطان ، والدنيا ، والهوى ، وهذه هى العوائق الحاجبة عن الترقى إلى حضرة الخالق ، وكل ماسوى الله حجاب عن أهل الحقيقة ، وجميع الأغيار خواطرها شيطانية بإرادة رب

البرية جل شأنه ، يزيد مايشاء فى ملكه ، ويفعل مايشاء بحكمته : هؤلاء للنار ولا أبالى ، وهؤلاء للجنة ولا أبالى .

قال بعض العارفين بالله تعالى : من ترقى من الخواطر الشيطانية ، قطع حجب العنصر النارى ، ومن ترقى عن الخواطر النفسانية وقطع حجب العنصر الهوائى ، ومن ترقى عن الحجب النورانية ، فقد ترقى عن ملاحظة روحه القائمة بصورته الجسمانية . . إن كان لابد لك من طلب الكشف ، فاطلب الكشف على شهودك وإن كان لابد من الوقوف فلا تقف إلا مع حقيقة وجودك ، فانك البرزخ الجامع والمعنى الواسع ، والكل طالب إليك ، مسخر لديك ، وأنت سيد الوجود ا . ﻫ .

قلت : أيها الناظر إن من جالس الغافلين غفل ، ومن غفل أفل ، ومن أفل سفل ، ومن سفل خسر ، ومن خسر انصرع ، ووقع فى النار ، وكانت له القرار ، واعلم أن الجليس يشقى جليسه ، ويسعد بحسب حاله .

قال صلى الله عليه وسلم : ولا تجلسوا عند كل داع مدع ، يدعوكم من اليقين إلى الشك ، ومن الإخلاص إلى الرياء ، ومن التواضع إلى الكبر ، ومن النصيحة إلى الغش ، ومن الزهد إلى الرغبة فى الدنيا ، وتقربوا من عالم يدعوكم من الكبر إلى التواضع ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الغش إلى النصيحة . ا . ﻫ .

قلت : فالخذلان كل الخذلان فى مجالسة الغافلين عن الله ، الراغبين فيما سواه ، فانهم جلساء السوء ، الواحد منهم بوزن ستين شيطانا ، كما ذكر ذلك العارفون . وقال سيدى ابن عطاء الله : لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله . ا ﻫ .

فالعاقل يصحب صاحب الحال والمقال فإن لم تجده فعليك بصاحب الحال ، فإن لم تجده فبصاحب المقال ، فإن لم يصبها وابل فطل ، وأما من

لأحال له ولاقال فلا فائدة فى صحبته فإنه غافل منهمك فى غفلته ، قاطع عن الله ورسوله . كما قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى : غافل منهمك فى غفلته ، ويت دائرة حسه ، وانطمست حضرة قدسه .

فعليك ياأخى بفراغ القلب من الأشغال ، وإذاكانت لك دنيا فاجعلها فى يديك ، ولا تجعلها فى قلبك فيشتغل بها .

قال الشيخ أبو القاسم القشيرى : فراغ القلب من الاشغال نعمة عظيمة، فاذا كفر العبد هذه النعمة ، بأن فتح على نفسه باب الهوى ، وانجرف فى قياد الشهوات شوش الله عليه قلبه ، وسلبه ما كان يجد من صفاء قلبه . اه . رواه زروق فى مقسميه .

وروى عن الشيخ البيهقى أنه سأل أبا يزيد البسطامى عن حقيقة المعرفة فقال : المداومة على ذكر الله بالقلب بلا فتور ، وعن حقيقة الجهل قال الغفلة اه . قال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » .

فمن جالس الغافلين عن الله ، المستهزئين بأولياء الله ، صحبته القطيعة فى أولياء الله ، وكان من أعداء الله لقوله عليه الصلاة والسلام حاكيا عن الله ، من عادى وليا فقد آذنته بالحرب ، أى أعلمته أنى محارب له ، فمن من الله عليه بالتسليم ، كان من أهل جنات النعيم ، فإياك ؛ إياك ، ياأخى ، وظن الخير فى عامة المسلمين، بله الأولياء والصالحين، أهل الحضرة الملازمين ، فإن هذه أمة مرحومة ، بصاحب شفاعة معلومة، حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه وقف صباحا بالمزدلفة ، وسأل الله أن يعطى المظلوم حقه من الجنة . ويغفر للظالم فأجيب إلى ماسئل ، فضحك فقال له أبو بكر وعمر : بأبى وأمى أنت ، هذه الساعة مايضحكك يارسول الله ؟ فقال لهم : إن عدو الله إبليس لما علم أن الله استجاب دعائى

وغفر لأمتى ، حثا التراب على رأسه وجعل يدعو بالويل والثبور .

ولما فرغنا من شرحنا على الحكم وما تضمنته من لوازم النعم ، أتيت بعدها بالمناجاة ، وما تضمنته من الأمور الظاهرات والباطنات ، والمعانى الجليات والخفيات ، فانها جليلة المقدار ، كثيرة الافضال ، من لازمها آخر الليل ذاق حلاوتها ووصل إلى الخير ذكرت فيها اسم الألوهة ثمانى مرات على عدد حروف الحاء ، فان حياة القلوب ، وراحة الروح ، وتفريج الكروب ، فأقول به عنه ، طالبا للمدد منه :

المناجاة الأولى

﴿ إلهى كيف تخفى وأنت المعين لنا فى الباطن والظاهر ، أم كيف تغيب وأنت قريب منا إلينا ناظر ﴾ .

(ش) أقول به كما يريد : « إلهى » أى سيدى ومالكى ، وخالقى ، ومعبودى ومولاى وثقتى ، ورجائى ، « كيف تخفى » وقد سميت لنا نفسك باسمك الظاهر قبل الباطن « وأنت المعين لنا فى الباطن » بطون تخصيص إرادتك ورحمتك فينا ، « والظاهر » بظهور فعلك علينا « أم كيف تغيب » ولك صفات فاعلة فينا « وأنت » مع ذلك « قريب » منا بقدرتك وإرادتك وعلمك وسمعك « إلينا ناظر » ببصرك القائم بك ، المتعلق بكمال الوجود لذاتك فى مخلوقاتك .

قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله تعالى : عميت عين لاتراك عليها رقيبا .

قال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى : وحق لها العمى ، إذ لم تشهد وتراقب من هو أقرب إليها من وجودها ، فالويل لمن لايخاف ربه ، ولا يراقب مولاه الذى خلقه .

قال الإمام البونى رحمه الله تعالى: الرقيب هو الذى يراعى سرائر السرائر واللحظات ، دائم الوجود فى شهودها ، لايحد بزمان ولا مكان ، وليس ذلك إلا الله تعالى . ثم قال : ذلك الرقيب على عالم الملك والملكوت والجبروت ، وماحوته من جميع أطوارها وأنواع أدوارها ، واختلاف مبانيها ، وعجائب معانيها . قلت : فمن أعمى الله بصيرته لم يشهد نظره تعالى إليه فى حركاته وسكناته وخواطره وجميع إرادته فى كل الأحوال .

قال الله تعالى : فإنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، فحقيقة العمى ، عمى البصيرة ، لاعمى البصر .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فى الآية ثلاثة تقديرات :

أولها : لاتعمى الأبصار على الحقيقة دون عمى الأخرى ، لأن البصيرة أصل الباصرة فى نظرها ، وهذا مشاهد فى المستغرق فى حزن أو سرور حتى لايعرف مابين يديه .

الثانى : فإنها لاتعمى الأبصار عن إدراك الحقائق إذ ليست هى بمحل لإدراكها، ولكن تعمى القلوب عنها لأنها محل إدراكاتها، وهذا أظهر الوجوه .

الثالث : أن العمى الذى يلحق بالأبصار ليس هو العمى الحقيقى الضار ، وإنما العمى الحقيقى الضار إنما هو عمى القلوب التى فى الصدور فعمى الأبصار بالقياس إليه ليس بعمى اه بتصرف .

قلت : فمن راقب مولاه فى جميع أحواله فقد تعرض لنفحاته ، لقوله عليه الصلاة والسلام : إن لله فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها ، والله أعلم .

المناجاة الثانية

﴿ إلهى أعنا على فعل ماتحب وترضى ، فإن فعلت بنا خلاف ماترضى ، فرضنا بالقضا ﴾ .

(ش) قلت به عنه تعالى : « إلهى » أى سيدى ومالكى وخالقى ومعبودى ومولاى وثقتى ورجائى ، أناديك ياإلهى فاقبل دعاى ، وأحسن مثواى ، « أعنا » لم أقل أعنى ، لأشرك المريدين والإخوان ، أعنا وأنت المستعان ، وعليك التكلان . « على فعل ماتحب وترضى » من كل ما أمرتنا به ورغبتنا فيه ، من أمور ديننا ، فإننا لانملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا ، إذ لا حول ولا قوة إلا بك ، « فان فعلت بنا خلاف ماترضى » مما نهيتنا عنه ، تحقيقا لمشيئة أزلية ، وحكمة علية خفية ، « فرضنا بالقضاء » السابق منك إلينا ، من ذل ، وفقر ، وقهر ، وهد وضرب ومقت ، وما جرى هذا المجرى .

والرضا بالقضاء مقام النفس الراضية وهى الخامسة فى النفوس عند ساداتنا الخلوتية .

قال صاحب سير السلوك إلى ملك الملوك : النفس الراضية ليس لها وارد ، لأن الوارد لايكون إلا مع بقاء الأوصاف ، وقد زالت فى هذا المقام حتى لم يبق لها أثر ، ولذلك كان السالك فى هذا المقام فانيا لاباقيا بنفسه كما كان قبل هذا المقام ، ولا باقيا بالله تعالى كما سيكون فى المقام السابع . وهذه حالة لاتدرك إلا ذوقا .

وصفات هذه النفس الزهد فيما سوى الله ، والإخلاص ، والورع والنسيان والرضا بكل مايقع عليه فى الوجود من غير اختلاج قلب ولاتوجه لدفع المكروه ، ولا اعتراض أصلا ، وذلك لأنه مستغرق فى شهود الجمال المطلق ، ولاتحجبه هذه الحالة عن الإرشاد والنصيحة للخلق ، وأمرهم ونهيهم

ولا يسمع أحد كلامه منه إلا وينتفع به ، وقلبه مشغول بعالم اللاهوت وسر السر ، وصاحب هذا المقام غريق فى بحر الأدب مع الله ، وهو عزيز عند الخلق ، محترم عند الأكابر والأصاغر ، قد نودى عليه من حضرة القرب : إنك اليوم لدينا مكين أمين ا ﻫ .

واعلم أن سبب ارتفاع هذه النفس من هذا المقام رضاها بقضاء الله تعالى .

قال البونى رحمه الله تعالى : فلا اعتراض عليه سبحانه وتعالى ، له الكمال المطلق ، والفعل المحقق بما يفعله ا ﻫ . قلت ولا يكمل للعبد هذا الحال مع الله تعالى ، إلا إذا كان صادقا فى العبودية ، لأن حقيقة الصدق فى العبودية ، الرضا بمراد المعبود .

قال سيدى ابن عطاء الله : مطلب العارفين من الله الصدق فى العبودية ، والقيام بحقوق الربوبية .

المناجاة الثالثة

﴿ إلهى - الهمم السوابق ، لا تخرق أسوار القدر السابق ، فكيف يفيدنا فى ذلك ، تدبيرنا اللاحق ﴾ .

(ش) قلت به عنه تعالى : « إلهى » أى سيـــدى ومالكى ، وخالقى ، ومعبودى ، ومولاى ، وثقتى ، ورجائى ، أناديك ياإلهى ، فأقبل دعاى ، وأحسن مثواى ، « الهمم السوابق » أى النفوس الخارقة للعادات ، «لاتخرق» أى لاتنفذ فى « أسوار القدر» أى المقدورات المقدرة «السابق» يعنى فى الأزل . « فكيف » استفهام يراد به هنا التعجب والإنكار « يفيدنا » يعود علينا بالفائدة « تدبيرنا اللاحق » أى الآتى بعد ذلك القدر السابق . والمعنى أنه لا يفيد .

قال سيدى ابن عطاء الله رحمـــه الله تعالى : سوابق الهمم لاتخرق سور الأقدار .

قال الشيخ زروق رحمه الله تعالى : الهمم أنواعها ثلاثة :

أحدها : الهمم القواصر وهى التى تقتضى التهمم دون حزم ولا عزم .

الثانى : الهمم المتوسطات وهى توجب العزم ، ووجود الفعل ، سواء وقع عنها انفصال أم لا .

الثالث : الهمم السوابق وهى قوى النفوس الفاعلة فى فلاة الوجود بلا تردد ولا توقف ، بل التى يقع الانفصال عند مجرد حصولها ، وهى ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يجرى للعائن والساحر عن خبثها ، ولذلك لا يصح من نفس كريمة ... بخلاف الثانى ، وهو ما يقع للمريد والمتوجه من تحريك قوى نفسه ، ولذلك لا يصح شىء منه عند ملابسته العادات المخالفة لأصله .

الثالث : ما يظهر على يد العارف بالله تعالى عن تحققه فى قوة يقينه وقوة إيمانه حتى تصير بسم الله منه موافقة ، لكن من الله تعالى فلا يريد شيئا إلا كان

لوقته دون عمل ولا توقف ، وإليه الإشارة بحديث كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به فى أحد التأويلات ويعضده أن الله تعالى يقول : عبدى ، أنا الذى أقول للشىء كن فيكون ، فأطعنى أجعلك تقول للشىء كن فيكون .

وهذامعنى قولهم: أحال فلان همته على كذا فالفعل له ، لكن وقوع الفعل والانفعال بما هو بقدرة الله ذى الجلال ، فهى محيطة بكل شىء معنى ، كإحاطة السور بالمحصور حساً ، لاخروج لشىء عنها ، يسرع نفوذه وبما يتوقف وجوده ، وهذا مماتشهد به براهين العقول وتعضده أدلة الشرع المنقول ، قال تعالى فى شأن السحرة : وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله . وقال جل وعلا : وكان الله على كل شىء مقتدرا ، وقال تعالى : وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

واعلم ياأخى أن التدبير لانفوذ له فى المقدورات السوابق ، فالعارف لايدبر فى الظاهر تدبيرا يعتمد عليه فى الباطن ، بل يكون اعتماده على ماسبق فى الأزل ، ورضاه بذلك ، فإن الاعتماد على تدبير المولى جل وعلا راحة الروح وسر الفتوح . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل الروح والراحة فى الرضا واليقين . وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : من لم يدبر دبر له .

وقال ابن عطاء الله رضى الله عنه فى حكمه : فما قام به غيرك عنك لاتقم به لنفسك اﻫ . فارجع أمرك لمولاك ، يتولاك ويرعاك ، ولا تجعل تدبيرك اللاحق غاية منتهاك ، فإن الهمم السوابق لاتخرق أسوار المقادير ، فكيف بالتدبير . افهم تغنم ، والله أعلم .

المناجاة الرابعة

﴿ إلهى ، متى بعدت إرادتك عنا حتى نشاء معك ، ومتى غابت قدرة ذاتك عنا ، حتى نستدل بصنعها عليك ﴾ .

(ش) قلت به عنه : « إلهى » أى سيدى ، ومالكى ، وخالق ، ومولاى ، وثقتى ، ورجائى ، أناديك بيا الهى فاقبل دعاى ، وأحسن مثواى « متى بعدت إرادتك » القائمة بذاتك ، المتصرفة بتأثيرها قبل تأثير قدرتك فى مخلوقاتك « عنا حتى نشاء معك » أى حتى تكون لنا معك إرادة تؤثر فى الأشياء «ومتى غابت قدرة ذاتك » المتصرفة فى مخلوقاتك « عنا » عن بصرنا دون بصيرتنا بحجاب حاجب لنا منها ، «حتى نستدل بصنعها عليك » حتى نتخذ منها ومن متعلقاتها ومن صنعها دليلا يعرفنا بك ، يامن هو الله الذى لا إله إلا أنت ، تحتجب عمن تشاء وتظهر لمن تشاء ، ولا حول ولا قوة إلا بك فى جميع الآناء .

واعلم أن فى توحيد الخواص مشكلات ، كما فى توحيد العوام مشكلات ، فإن لم تدرك معنى ما أقول فى هذا الكتاب ، ففوض الأمر للوهاب ، فمن لم يسمع من نفسه على لسان غيره لم يشم رائحة المعرفة بالله كما قيل عن بعضهم رضى الله عنهم . فالإرادة ظاهرة بالتخصيص فينا ، والقدرة قاصرة على إيجاد كل ما كان عدما ثم وجد فإن الإنسان بعد وجوده . إذا سكن ، سكن بالإرادة، وإذا تحرك تحرك بالقدرة ، وإذا صمت فبالإرادة ، وإذا نطق فالبقدرة ، وقس على ذلك . فقدرته تعالى حاضرة معنا ، فاعلة فينا ، فدليلنا على آثارها فى الوجود حجاب عن المؤثر فيه . قال سيدى ابن عطاء الله فى حكمه : فمتى غاب حتى يستدل عليه ، ومتى بعد حتى تكون الآثار هى الموصلة إليه .

قال الشيخ زروق : فمن وقف مع الأسباب ، ولم ينفذ إلى قدرته ، فذلك عين الحجاب . قال الشيخ فى لطايف المنن : ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه ، فليت شعرى هل لها من وجود معه حتى توصل إليه ،

وهل لهـا من الوضوح ماليس له حتى تـكون الموصلة إليه . قلت : اعلم أن الوصول إليه عبارة عن كمال المعرفة به تعالى .

قال الشيخ العارف بالله تعالى القطب الـكامل سيدى عبد الـكريم الجيلى رحمه الله تعالى فى كتابه المسمى بالإنسان الـكامل فى الباب الثامن عشر منه فى الإرادة : اعلم أن الإرادة صفة تجلى علم الحق على حسب المقتضى الذاتى ، فذلك المقتضى هو الإرادة وهى تخصيص الحق تعالى لمعلوماته بالوجود على حسب مااقتضاه العلم فهذا الوصف فيه تسمى الإرادة .

والإرادة المخلوقة فينا هى عين إرادة الحق سبحانه وتعالى لـكن لما نسبت إلينا كان الحدوث اللازم لنا لازما لوصفنا فقلنا بأن الإرادة مخلوقة يعنى إرادتنا ، وإلا فهى بنسبتها إلى الله تعالى عين الإرادة القديمة التى هى له ، ومامعناها من إبراز الأشياء على حسب مطلوبها إلا انسبتها إلينا وهذه النسبة هى المخلوقة فإذا ارتفعت النسبة التى لها إلينا ونسبت إلى الحق على ماعليه له انفعلت بها الأشياء فافهم ، كما أن وجودنا بنسبته إلينا مخلوق وبنسبته إلى الله قديم وهذه النسبة هى الضرورية التى يعطيها الـكشف والذوق أو العلم القائم مقام العين ، فما ثم إلا هذا فافهم ، انظر الإنسان الكامل صفحة ٤٨ من الجزء الأول .

وقال فى أول الصفحة حسب مقامه العالى فى معارف الوالى :

إن الإرادة أول العطفات	كانت لنا وله من النفحات
ظهر الجمال بها من الـكنز الذى	قد كان فى التعريف كالمنـكرات
فبدت محاسنه على أعطافه	وهو الخليفة صورة الجلوات
لولاه أى لولا محاسنه اقتضت	من نفسها إيجاد مخلوقات
ماكان مخلوقا ولولا كونه	ماكان منعوتا بحسن صفات
ظهروا به وبهم ظهور جماله	كل لـكل مظهر الحسنات
والمؤمن الفرد الوحيد لمؤمن	فيما روى المختار كالمرآة
هو مؤمن والفرد منا مؤمن	كمراءتين تقابلا بالذات

فبدت محاسنه بنا وبدت محا سننا به من غير ماإثبات
وبنا تسمى بل تسمينا به كل لكل نسخة الآيات
لولا إرادته التعرف لم يكن للكبر إبراز من الخفيات
فلذاك المعنى نقدم حكمها عن سائر الأوصاف والنسبات

ا ﻫ ماقاله الشيخ فى الإرادة ، نذكر بعده ماذكره فى القدرة لأننا فى أصل الحكمة قدمنا الإرادة لتقدمها على القدرة بتأثير التخصيص اللازم لها .

قال رضى الله عنه فى الباب التاسع عشر (صفحة ٤٩) : القدرة قوة ذاتية لاتكون إلا لله وشأنها إبراز المعلومات إلى العالم العينى على المقتضى العلمى فهو مجلى التجلى أى مظهر أعيان معلوماته الموجودة من العدم لأنه يعلمها موجودة من عدم فى علمه ، فالقدرة هى القوة البارزة للموجودات من العدم وهى صفة نفسية بها ظهرت الربوبية وهى عين هذه القدرة الموجودة فينا فبنسبتها إلينا تسمى قدرة حادثة وبنسبتها إلى الله تعالى تسمى قدرة قديمة . والقدرة فى نسبتها إلينا عاجزة عن الاختراعات وهى بعينها فى نسبتها إلى الله تعالى تخترع الأشياء وتبرزها من كتم العدم إلى شهود الوجود .

فافهم ذلك فانه سر جليل لايصح كشفه إلا للذاتيين من أهل الله تعالى .
ا ﻫ من « التقريب والتسديد على ياقوتة التوحيد » .

وما ذكر فى الصفتين من توحيد الخواص ، والله أعلم .

المناجاة الخامسة

﴿ إلهى لاجاهل بك إلا من أجهلته ، ولا عارف بك إلا من عرفته . الأمر إليك ، والقلوب بين يديك ، حققنى بأوصافى بمنك لديك ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : إلهى ، أعنى سيدى ومالكى وخالقى ، ومولاى « لاجاهل بك إلا من أجهلته » عن كال معرفتك الدالة على وحدانيتك ذاتا ، وصفاتا ، وأفعالا .

قال الشيخ على بن برى رضى الله عنه فى وسطاه : الجهل ينقسم إلى قسمين ، جهل مركب ، وجهل بسيط .. فالجهل المركب هو اعتقاد الشىء على خلاف ماهو عليه ، وإنما سمى مركبا لتركيبه من أمرين أحدهما الجهل بالشىء ثم يجهل جهلا آخر ، وهو عدم شعور صاحبه بجهله به ، واعتقاده الصواب والحق فى جهله ؛ والتنافى الحاصل بينه وبين العلم تنافى الضدين لأنه اعتقاد جازم غير مطابق ، استند إلى شبهة أو تقليد ، والجهل البسيط عبارة عن عدم إدراك أمر من الأمور ، فالتنافى الحاصل بينه وبين العلم تنافى العدم والملكة ، فالملكة هى العلم ، والعدم هو الجهل البسيط .

هذا هو عند أهل الظاهر ، أما عند الصوفية فالجهل واحد أى كل ماحجبك عن الله فهو جهل ، ومع ذلك فهو يظهر بالصورتين المذكورتين آنفا ، صورة الجهل البسيط ، وصورة الجهل المركب ، والفرق بينهما أن الجهل البسيط عبارة عن نفى العلم عمن شأنه أن يتصف بالجهل ، والجهل المركب يزيد عليه بالدعوى الكاذبة وعدم الشعور بهذا الجهل ، ولذلك كان الجهل المركب أصلا من أصول الكفر فيمن كفر ، كما أنه مضر بالإيمان والشرائع بخلاف البسيط فى غير الواجب والمستحيل فهذا تعريف الجهل ، ولا يشترط فى إزالة هذا الجهل التعلم والتعلق بالأسباب الظاهرة فى حصول

العلم ونفى الجهل فإن القدرة صالحة ومن كمال وصف القدرة أنها لاتحتاج لعلاج ولاضرب من العلل والأسباب، ما قال للشىء كن إلا كان على وفق الإرادة .

فمن علم ذلك فليصرف نظره إلى مطالعة مصنوعاته ، وسمعه إلى تلقى ما ينبىء عن مرضاة الله واجتناب نواهيه ولا يتعرض للخلق فى الجهل ، فإن حقيقة المعرفة لاتكمل إلا بنظارة رضا منه تعالى فى سريرة عبده .

« ولا عارف بك إلا من عرفته » أى لاعارف بك معرفة الخواص المشاهدين الحق فى الناس . الفانين عن الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ، إلا من عرفته بمعارف الحضرة الإلهية الكاشفة للعبد عن حقائق الأشياء .

قال سيدى رسلان الدمشقى رحمه الله تعالى : المعرفة طريق الكشف ، والكشف طريق الفناء يعنى عما سوى الله .

وقال أيضا رضى الله عنه : العلم طريق العمل والعمل طريق العلم ، والعلم طريق المعرفة .

قال الشيخ حجازى المصرى رحمه الله تعالى : العلم - أى بمقتضى الظاهر - طريق العمل إذ لا يصح العمل إلا بالعلم ، والعمل طريق العلم اللدنى . قال الله تعالى : واتقوا الله ويعلمكم الله . وقال صلى الله عليه وسلم : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم ، والعلم اللدنى طريق المعرفة بالله تعالى لأنها تحصل بما أمدك الله تعالى به من التعريف ، وهو تعالى يتعرف لعباده بقدر ماوهبهم من العلم اللدنى .

وفى الحديث القدسى : كنت كنزا مخفيا لم أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فبى عرفونى اه بالمعنى ، وهو صريح فى أن المعرفة لاتكون إلا بالوهب منه لقوله تعالى فبى عرفونى . فمن تعرف الله إليه عرف نفسه ، ومن عرف نفسه عرف ربه ، ومن عرف ربه جهل نفسه ، فالتعرف من الله يتعلق

بمعرفة النفس ، ومعرفة النفس تتعلق بمعرفة الرب ، ومعرفة الرب تتعلق بجهل النفس .

وفى الخبر : أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه ، فإذا أكملت المعرفة كان بعدها الفناء ، والفناء يكون علما ، ثم يكون عينا ، ثم يكون حقا ، على مراتب علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين . اه . فاذا ظهر لك هذا الأمر وألهمت معناه ، علمت ، بالعلم النظرى ، معنى قولنا فى الحكمة الأمر إليك والقلوب بين يديك . فإذا شاهدت القلوب بين يدى خالقها تحققت أن المعرفة منه به .

« حققنى بأوصافى بمنك لديك » أعنى إن لم تحققنى بها وتمن على بذلك ، لم أتحقق بها .

قال سيدى الشيخ زروق : أوصاف الربوبية أربعة تقابلها أربعة هى أوصاف العبودية :

أولها الغنى ويقابله الفقر . الثانى : العز ويقابله الذل .

الثالث : القدرة ويقابلها العجز . الرابع : القوة ويقابلها الضعف .

وكل هذه متلازمة إن وجد واحدها وجد جميعها ووجود المقابل ملزوم بوجود مقابله ، فمن استغنى بالله افتقر إليه ، ومن افتقر إلى الله استغنى به ، ومن تعزز بالله ذل له ، ومن ذل له تعزز به ومن شاهده قدرته رأى عجز نفسه ، ومن رأى عجز نفسه شاهد قدرة مولاه ، ومن نظر ضعف نفسه رأى قوة مولاه ومن رأى قوته علم ضعف نفسه لكن إن كان انبساط النظر لأوصافك فأنت الفقير إلى الله ، وإن كان انبساط النظر إلى أوصافه فأنت الغنى بالله ، وهما يتعاقبان على العارف فتارة يغلب عليه الغنى بالله ، فتظهر عليه آثار العناية ، وتارة تظهر عليه آثار الفقر إلى الله فيلتزم الرعاية فحين غلب الغنى على حبيب الله أطعم ألفا من صاع ، وحين غلب عليه الفقر إلى الله شد الحجر على بطنه من الجوع اه .

قلت : والتعلق بالغنى هو أن يبدو فى حقيقة القلب فقر كل شىء إلى الله فيقف همته عليه اكتفاء به . وحقيقة التعلق بالعز أن يتمكن من القلب ألا عز لشىء إلا به تعالى . والتعلق بالقدرة هو أن يتحقق وجوده بعجز كل شىء ، ولولا إقدار الله تعالى له ماقدر ، فلا ينظر شيئا إلا استشعر قدرته تعالى فيه ، وحقيقة التعلق بالقوة أن يرى كل شىء ضعيف إلا بتقوية الله إياه فيخرج عن حوله وقوته رجوعا لقوله تعالى: فما له من قوة ولا ناصر .

وإذا رجعنا بالنظر إلى الشريعة والطريقة فلنا كمال،قال سيدى ابن عطاء الله رحمه الله : كن بأوصاف ربوبيته متعلقا ، وبأوصاف عبوديتك متحققا، وإن نظرنا إلى الحقيقة كما فى خبر آخر فى الحكمة فأوصاف العبودية كثيرة لاتتناهى لأنها مقابل أوصاف الربوبية التى لاتتناهى .

وقد ذكر الشيخ إدريس بن الأرباب قدس الله سره وروحه قولا نافعا لكل فقير ، فقال : ينبغى للفقير إذا عيب أن يرضى بالعيب ولا يطالب التنزيه ، لأن ذلك ـ أى العيب ـ من أوصاف العبد والتنزيه لايكون إلا لله . اهـ والله أعلم .

المناجاة السادسة

﴿ إلهى أخفيت ذاتك فليست ترى ، وأظهرت صفاتك فى الورى ؛ وقلت الرحمن على العرش استوى ، سبحانك أين كنت قبل ذا ﴾ .

(ش) قلت به عنه ناسجا لما انطوت عليه هذه الحكمة : « إلهى » أى سيدى ، ومالكى ، وخالقى ، ومولاى ، « أخفيت ذاتك » عن الإدراك « فليست ترى » لأحد من المخلوقات . « وأظهرت صفاتك » القائمة بذاتك فى أوصاف موجوداتك العلوية والسفلية « فى الورى » من ممكناتك « وقلت الرحمن على العرش استوى » إظهارا لصفة العزة والبقاء، ووصفا القهرك وملكك لعرشك الأعلى « سبحانك » أى تنزهت عن الحلول والنزول ، والخروج والدخول . الاستواء لذاتك بذاتك التى لاتشبه الأشياء « أين كنت قبل ذا » أى أين كنت قبل أن تخلق عرشك وتقول: الرحمن على العرش استوى ، فما أنت على ما كنت عليه قبل وجود الأشياء .

قال صاحب مفتاح الكنوز وحل الرموز : سئل بعض العارفين بالله تعالى عن قوله : الرحمن على العرش استوى : فقال الحق سبحانه وتعالى عرفنا بهذا القول من هو ، وما عرفنا ماهو لأنه لايعرف ماهو إلا هو .

وقيل لصوفى : أين الله فقال للسائل : قبحك الله ، هل تطلب مع العين أينا . يشير لقوله تعالى : وهو معكم أينما كنتم، وسئل الشبلى عن قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى ، فقال : الرحمن لم يزل ، والعرش محدث، فالعرش بالرحمن استوى : وسئل ذو النون عن قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى . فقال أثبت ذاته ، ونفى مكانه فهل موجود بذاته ، والأشياء كلها موجودة بحكمته ، كما شاء .

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن الاستواء فقال : استوى كما أخبر ، لا كما يخطر للبشر .

وسئل الإمام الشافعى رضى الله عنه عن الاستواء ، فقال آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل ، واتهمت نفسى فى الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك .

وقال الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه : من قال لا أعرف الله فى السماء هو أم فى الأرض فقد كفر ، لأن هذا القول يوهم أن للحق مكانا ، ومن توهم أن للحق مكاناً فهو مشبه .

وسئل الإمام مالك رضى الله عنه عن الاستواء فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . هذا ماذهب إليه الأئمة الأربعة رضى الله عنهم وأرضاهم .

ولقد روى صاحب التقريب والتسديد فى شرحه على «ياقوتة التوحيد» كلاما ، شعرا ، يجلو عن قلب قارئه درن التشبيه ، والشعر للقطب الكامل ، أحد السلاطين الأربعة ، سيدى وسندى العارف بالله تعالى الشيخ إبراهيم الدسوقى قدس الله سره العزيز ، ونفعنا به آمين ، قال :

يأيها المدعى لله عرفانا ... وقد تفوهت بالتوحيد إعلانا
ظننت جهلا بأن الله تدركه ... بثاقب الفكر أو تدريه إيقانا
وتطلب الحق بالعقل الضعيف فهل ... أدركت ويحك تحقيقاً وتبيانا
هل العقول أحاطته بديهتها ... أو هل أقامت به لولاه برهانا
أوالعلوم وماسطرن من كتب ... هل كن إلاعن التحقيق عميانا
الله أعظم شأنا أن يحيط به ... علم وعقل ورأى : جل سلطانا
أودى بك العقل إن عطلته عدما ... وخانك النقل إن صورت جثمانا
إياك إياك والتعطيل فى صفة ... واحذر تكن عابدا بالوصف أوثاناً

وإن سمعت أحاديث الصفات فقل — آمنت بالله تصديقاً وإيماناً
ورد علم خفاياها لعالمه — فان تأولت قد أولت بهتانا
إن قيل كيف استوى قل كيف شاء ولا — تصغى إلى كيف تصبح ثم ندمانا
أو قيل أين فقل أنى اتجهت تجد — مولاك ماغاب لحظات ، ولا بانا
وهو الذى فوق كل الفوق رتبته — وحيث كنت وجدت الله ديانا
من ظن جهلا بان العرش يحمله — قد افترى ، واجترا، ظلما وعدوانا
العرش والفرش والكرسى صنعته — وقد براهن إحكاما وإتقانا
العرش وطهان فيما عز مطلبه — ولم يزل فى طلاب الحق ولهانا
الخلق فى العلم تاهوا فى تطلبه — والعلم فى الاسم لاينفك حرمانا
والاسم دل بسر فى غوامضه — على المسمى وصار الاسم عنوانا
وعين ذاك المسمى ليس يدركه — شيء ولوح وإنس ، لا ، ولا جانا
هذا اعتقادى وإن قصرت فى عملى — فأسأل الله توفيقا وغفرانا

ولنرجع إلى ما نحن بصدده من شرح الحكمة . اعلم أن خفاء الذات أصل حقيقتها ، فلا تدركها العقول النيرات ، فكيف بالمظلمات؟ وعن بعض العارفين بالله : أن أجزاء العقل على ألف جزء . جزء لآدم ومن معه من الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنين ، كل منهم على قدره عند الله ، وتسعمائة وتسعة وتسعون جزءا لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

واعلم أنه صلى الله عليه وسلم مع ذلك الكمال النورانى لايدرك من الذات العلية مايدركه الحق من حقيقة ذاته تعالى ، مع كونه عليه السلام رآه بعين الرأس من غير شك عندنا ولا التباس . لكن مارآه من تجلى الذات لم يكن لغيره من المخلوقات . ولا يعرف حقيقة ذات الله إلا الله تعالى .

وكان عليه السلام يقول : حجابه النور ، وكان يقول : نورانى أراه ، ذكر الحديث زروق فى مقسميه فافهم . وأما ماوقع له عليه السلام فى عالم

المثال وهو عالم حقيقته ملكوتية ، وبمثل ماليس من شأنه التمثيل كرؤية العلم فى صورة العين ، وكرؤية الله فى الصورة ؛ فقد ذكر سيدى عبد الوهاب الشعرانى أن ذلك عادة جعلها الله لعالم المثال فافهم ، وتارة تكون العينان مفتوحتين فى حين أن حقيقة صاحبهما فى عالم المثال ، ويسميها الأولياء الفهوانية . وفيها يلبس الشيطان على من أراد أن يضله الله تعالى .

ومن بعض مايؤيد جواز رؤية الله فى المنام ماذكره صاحب سير السلوك إلى ملك الملوك فقال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : رأيت ربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة وقال لى:فيم يختصم الملأ الأعلى يامحمد ، قلت أنت أعلم أى ربى ، مرتين ، قال فوضع كفه على كتفى فوجدت بردها بين ثديى ، فنظرت مافى السموات والأرض ، وأهل قدمه لهم فى ذلك أسوة اه .

فاذا علمت مما تقدم أن حقيقة ذاته لاترى بغيره فكن منزها له عن التمثيل وأما ظهوره فى الورى فتجلى القدرة النورانية وسريانها فى أجزاء العوالم من قول وفعل وحركة وسكون وقهر وملك . وغير ذلك . والله أعلم وفى توحيده أحكم .

المناجاة السابعة

﴿ إلهى نفسى تتشوق لوصف ذاتك ، وهى جاهلة بوصفها هى . فتى تشرف لك ، سبحانك لقد تنزهت عن الشبيه والمثيل والنظير ، ذاتا وصفاتا وأفعالا ، وأنت بهم خبير ﴾ .

(ش) قلت به عنه ، « إلهى » أعنى سيدى وخالقى ومعبودى ومولاى « نفسى » التى بين جنبى « تتشوق » تتطلع وتشتاق لكمال المعرفة والفهم « لوصف ذاتك » القديمة ، القائمة بنفسها والمنزهة فى قدسها ، عن كل وصف لايليق بها « وهى جاهلة » جهلا مركبا « وبوصفها هى » فلا تعلم له كيفا ، ولا مثالا ولا كنها من عندها . « متى تشرف لك » بوصف تصفك به « سبحانك » تنزهت وتعاليت بتنزيه من نفسك لنفسك ، لامنتهى له دون علمك ، « لقد تنزهت » بتحقيق وتدقيق « عن الشبيه ، والمثيل والنظير » ليس كمثلك شىء « ذاتا وصفاتا وأفعالا » فذاتك لاتشبهها ذات ، وصفاتك لاتشبهها صفات ، وأفعالك لاتشبهها أفعال . . « وأنت بهم » أى بالشبيه والنظير والمثيل « خبير » أى عليم أنهم خلقك وليسوا مثلك ... فلا يعزب عنك بواطن الأسرار ، ولا تتحرك ذرة فى الملك ولا تسكن إلا وعندك خبرها إجمالا وتفصيلا ، يا ذا الجلال والإكرام .

واعلم أن النفس والروح شىء واحد ، وقيل كذلك العقل ، والكل من أمر ربى ، فجعل الله سبحانه وتعالى لها هذه الأسماء ليدل كل اسم على حالة من الحالات ، وطور من الأطوار ، لحكمة يعلمها ، إليه مانعلم ومالا نعلم .

قال صاحب مفتاح الكنوز وحل الرموز ، الشيخ عبد السلام قدس الله سره العزيز : فمن فتح الله عينى يقظته ، وأشهده خفايا سريرته ، علم أنه لم يكن فى الكونين ولا فى العالمين من متفرقات ذاته شىء ، إلا وهو منطو

فىطوايا زوايا ذاته ، مندرج فى خفايا صفاته . وهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم : من عرف نفسه فقد عرف ربه . وقد ظهر لى من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه ، وهو أن الله تعالى وضع هذه الروح الروحانية ، فىهذه الجثة الجثمانية ، لطيفة لاهوتية ، مودعة فى كثيفة ناسوتية دالة على وحدانيته ، وربانيته وجهة الاستدلال بذلك من تسعة أوجه :

االوجهلأول : أن هذا الهيكل الإنسانى، لما كان مفتقرا إلى مدبر ومحرك، وهذه الروح تدبره وتحركه . علمنا أن هذا العالم له إله واحد لاشريك له فى تدبيره وتقديره .

الوجه الثانى : لما علمنا أن هذا الجسد لايتحرك إلا بإرادة الروح وتحريكها له ، علمنا أنه تعالى مريد لما هو كائن فى كونه ، لامتحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه .

الوجه الثالث : لما كان الجسد لايتحرك إلا بعلمها أى الروح وشعورها به بحيث لايخفى على الروح من حركات الجسد وسكناته شىء علمنا أنه تعالى لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

الوجه الرابع : لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شىء أقرب إلى الروح من شىء ، بل هو قريب من كل شىء ، فى الجسد بنفس النسبة ، علمنا أنه تعالى قريب من كل شىء ، وليس شىء أقرب إليه من شىء ولا شىء أبعد عنه من شىء ، لابمعنى قرب المسافة لأنه متنزه عن ذلك .

الوجه الخامس : لما كانت الروح موجودة قبل الجسد ، وتكون موجودة بعد فناء الجسد ، علمنا أنه تعالى موجود قبل تكوين خلقه . وبعد تكوين وفناء خلقه ، مازال ، ولا يزال ، تقدس عن الزوال .

الوجه السادس : لما كان الروح فى الجسد لايعرف له كيفية ، علمنا أنه سبحانه وتعالى منزه ومقدس عن الكيفية ، ولا يوصف بأين ولا كيف ،

بل الروح فى سائر الجسد ماخلا منه شىء من الجسد ، كذلك الحق موجود فى كل مكان ، ماخلا منه مكان ، وتنزه عن المكان والزمان .

الوجه السابع : لما كان الروح فى الجسد لايعلم له أينية علمنا أنه تعالى تقدس وتنزه عن الأينية .

الوجه الثامن : لما كان الروح فى الجسد لايحس ، ولا يمس ، ولا يجس، علمنا أنه تعالى منزه عن الحس والمس والجس .

الوجه التاسع : لما كان الروح فى الجسد ، لايدرك بالأبصار ولا يمثل بالصور والآثار ، ولا يشبه بالشموس والأقمار ، علمنا أنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، فهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام : من عرف نفسه فقد عرف ربه . طوبى لمن نفسه عرف ، وبذنبه اعترف .

وفى هذا الحديث تفسير آخر ، وهو أن تعرف أن صفات نفسك على الضد من صفات ربك ، فمن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء ، ومن عرف نفسه بالخيانة والخطأ ، عرف ربه بالوفاء ، والعطاء ، ومن عرف نفسه كما هى عرف ربه كما هو . واعلم أنه لاسبيل لك إلى معرفتك إياك ، كما أنت إياك ، فلا سبيل إلى معرفتك إياه ، كما هو إياه . فكأنه عليه السلام فى قوله « من عرف نفسه عرف ربه » علق مستحيلا على مستحيل ، لأنه يستحيل أن تعرف نفسك وكيفيتها ، فاذا كنت لاتطيق أن تصف نفسك التى بين جنبيك بكيفية ، ولاأينية ، ولاسجية ، ولاهيكلية ، وليست هى بمرئية ، فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بكيف أوأين وهو مقدس عن الكيفية والأينية ، سبحان من تنزه عن الحركة ، والسكون ، والأشكال والأمثال ، والكيفية والأينية لا إله إلا هو فافهم ا هـ . والله أعلم .

المناجاة الثامنة

﴿ إلهى علمنا علما من لدنك ، ولاتشهدنا ذلك إلا بك عنك ﴾ .

(ش) قلت به عنه تعالى : « إلهى » أى سيدى ومولاى وثقتى ورجائى أدعوك باسم الألوهية ، فأجب دعائى يارب البرية ، وخلصنى بإرادة منك لى من دعاوى النفس الشهوانية ، حتى تصير بك راضية مرضية .

واعلم يا أخى أن الدعاء هو الكنز الذى لاتفنى عجائبه ، ولقد وردت فيه أحاديث كثيرة ، شهيرة ، ومنها:إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، وإذا كان الدعاء بيقين وحضور مع المسئول فهو الغاية القصوى ، والسعادة الكبرى للسائل ، وقد ورد فى الحث على اليقين بالإجابة ، قوله صلى الله عليه وسلم : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة كما ورد فى الحضور حال الدعاء قوله عليه الصلاة والسلام : لايقبل الله دعاء القلب الغافل .

وقد ذكر صاحب «سير السلوك إلى ملك الملوك» أحاديث شتى فى عجائب الدعاء ، قال : ولا تمل من الدعاء ولا تقل إن الله تعالى ماتقبل منى لأن هذا مما يقطع عن الحق،قال النبى صلى الله عليه وسلم : الدعاء هو العبادة ثم تلا: وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين وقال صلى الله عليه وسلم الدعاء مخ العبادة ، وقال صلى الله عليه وسلم من فتح الله له باب الدعاء فتحت له أبواب الإجابة ، وقال صلى الله عليه وسلم : لايرد القضاء إلا الدعاء وإن البر يزيد فى الرزق وإن العبد ليحرم بالذنب يصيبه .

وقال صلى الله عليه وسلم:الدعاء جند من أجناد الله المجند يرد القضاء بعد أن يبرم ، وقال صلى الله عليه وسلم : الدعاء يرد البلاء ، وقال صلى الله عليه وسلم : لايغنى حذر من قدر والدعاء ينفع مما ينزل ، ومما لاينزل .

وقال صلى الله عليه وسلم ليس شيء أكرم على الله من الدعاء ، وإنه لم يهلك مع الدعاء أحد، وقال صلى الله عليه وسلم من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء فى الرخاء ، وقال صلى الله عليه وسلم : مامن مؤمن مسلم ينصب وجهه إلى الله تعالى فى مسألة إلا أعطاها إياه ، إما يعجلها له ، وإما يدخرها له ، فانظر ما أكرم الإنسان على الله كيف جعل دعاءه وتوجهه إليه يؤثر فى قضائه المبرم ، ويرد البلاء . وقال الشيخ عبد العزيز الديرينى رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى جواد كريم يستحى من العبد المسلم أن يمـــد يده إليه ثم يقلبها من قبل أن يجعل فيها شيئا اهـ .

« علمنا من لدنك » علمنا منك بالأخذ عنك علما من علومك اللدنية الباهرة السنية ، روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : العلم علمان : علم اللسان ، وعلم القلب . علم اللسان علم الشريعة ، وعلم القلب علم الحقيقة . وهو علم يؤخذ عن الله من غير واسطة ، وكل من العلمين يتفرع على علوم شتى . قال تعالى : أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه .

قال بعضهم : الإيمان علم الشريعة ، والروح التى منه علم الحقيقة، وهو النور الداخل من لدنه فى العقول والذى يكشف للعبد علم الأسرار وعلم الأنوار ، فعلم الأسرار علم المكاشفة ، وعلم الأنوار علم المشاهدة وهو العلم المكنون، قال صلى الله عليه وسلم : إن من العلم كهيئة المكنون لايعلمه إلا العلماء بالله فإذا ذكر ، أنكره أهل الغر بالله . قال بعضهم يعنى المغترين من أهل الظاهر . ولذلك قال أبو هريرة رضى الله عنه : أخذت من رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من العلم بثثت إليكم جرابا ولو بثثت الآخر لقطعتم هذا البلعوم فالجراب الأول علم الشريعة والثانى علم الحقيقة .

واعلم أن العلوم قسمان : علم تعلم ، وعلم كشف من لدنه ، قال بعض العارفين بالله فى الفرق بين التعلم وطريق الصوفية : اعلم أن للقلب بابين :

باب ينفذ إلى عالم الحواس ، وباب ينفذ إلى عالم الغيب ، فما جاء للقلب من الباب النافذ إلى عالم الحواس فهو التعلم .

وماجاء للقلب من الباب النافذ إلى عالم الغيب ، فهوعلم القلوب ، الكشف — علم الحقيقة ، وتعرف صدق هذا القول بالتأمل فى النوم فانك ترى فيه العجائب ، ويظهر للقلب ماسيكون بعد مدة ، قلت من بعض العلوم اللدنية والكرامات الكونية ، والكشوفات الوهبية ، والمشاهدات القدسية . قال بعض العارفين بالله : قد يحصل العلم الموهوب بالذكر مع الفكر فى غالب الأمور ، وقد يحصل على سبيل الوهب من الله تعالى من غير سبب لقوله تعالى : يختص برحمته من يشاء .

وقد رأيت فى بعض الكتب كلاما لسيدى الشيخ دفع الله رضى الله عنه فى الفرق بين العلم بالقراءة ، وحصول العلم بالذكر ، قال : القراءة والذكر كالجسم والروح ، جسم بلاروح لافائدة منه ، وروح بلاجسم لافائدة فيها ، فعلمنا من ذلك أن العلم اللدنى إذا وهب للعبد بعد قراءة العلم والكسب ، كان هذا العبد أوسع دائرة فى العلوم الظاهرة والباطنة .

« ولاتشهدنى ذلك إلا بك عنك » أى ولا تستشهدنى يامولاى ماتهبه لى من علمك اللدنى منى ، بل أشهدنى ذلك العلم منك لأعرف منك الظاهرة والباطنة معرفة أسلم بها من موارد الجهل ، فى طول الدهر ، معرفة تامة كاملة لاتغادر جهلا . وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد مفتاح المعارف وعلى آله وأصحابه عدد حسنات كل عارف وغارف .

(ش) قلت به عنه ، ولما كانت إجابة دعائنا موقوفة على صلاتنا على نبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم أتينا بالصلاة عليه فى آخر هذه الحكم المسماة بالنفس الرحمانى فى الطور الإنسانى لقوله عليه الصلاة والسلام: الدعاء موقوف بين السماء والأرض حتى يبدأه الداعى بالصلاة على ويختمه بها .

فانظر لذلك ، وهو الرسول الأعظم ، والملاذ الأفخم ، والنبي الأكرم ، صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر صاحب التقريب والتسديد فى شرحه على ياقوتة التوحيد ، قولا حميدا ، رواه عن سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو أن من أكثر منها رآه جهارا وذلك يدل على أنه صلى الله عليه وسلم حى ومايجرى على غيره من التغيير يستحيل عليه وأن الملائكة الكرام تأتيه كل يوم تقبل يديه وتسمع منه مايقول عليه الصلاة والسلام ، ومن لم يعتقد فى حقه وفى سائر الرسل الحياة فقد تزندق ، نسأل الله تعالى السلامة والعافية .

قال صاحب مفتاح الكنوز وحل الرموز كان صلى الله عليه وسلم يؤخذ منه فيقول:لست كأحدكم ، وتارة يرد عليه فيقول : إنما أنابشر مثلكم ، وتارة يستغرق فى المشاهدات الربانية فيقول : لى مع الله وقت لايسعنى فيه غيرى، وتارة تخطفه الجذبات القربية فيقول : إن أدرى مايفعل بى ولا بكم .

والحمد لله أولا وآخراً ، وباطنا وظاهرا ؟

﴿ تم الكتاب ﴾

فهرس الكتاب

صفحة

٣ مقدمة للسيد مصطفى الطيب
٧ مقدمة الكتاب للسيد المؤلف
٩ أول الكتاب
٤٨ الحكمة الأولى
٦٢ « الثانية
٦٥ « الثالثه
٧١ « الرابعة
٧٨ « الخامسة
٨١ « السادسة
٨٥ « السابعة
٨٩ « الثامنة
٩١ « التاسعة
٩٥ « العاشرة
٩٩ « الحادية عشرة
١٠٣ « الثانية «
١٠٥ « الثالثة «
١٠٩ « الرابعة «
١١٢ « الخامسة «
١١٧ « السادسة «
١٢٠ « السابعة «
١٢٣ « الثامنة «

صفحة

١٢٥ الحكمة التاسعة عشرة
١٢٨ « العشرون
١٣٠ « الحادية والعشرون
١٣٥ « الثانية «
١٣٨ « الثالثة «
١٤٠ « الرابعة «
١٤١ « الخامسة «
١٤٣ « السادسة «
١٤٦ « السابعة «
١٤٩ « الثامنة «
١٥٢ « التاسعة «
١٥٦ « الثلاثون
١٦٠ « الحادية والثلاثون
١٦٣ « الثانية «
١٦٦ « الثالثة «
١٦٨ « الرابعة «
١٧١ « الخامسة «
١٧٤ « السادسة «
١٧٧ « السابعة «
١٧٩ « الثامنة «
١٨٢ « التاسعة «

صفحة
١٨٧ الحكمة الأربعون
١٩٠ « الحادية والأربعون
١٩٢ « الثانية «
١٩٤ « الثالثة «
١٩٦ « الرابعة «
١٩٩ « الخامسة «
٢٠١ « السادسة «
٢٠٣ « السابعة «
٢٠٥ « الثامنة «
٢٠٧ « التاسعة «
٢٩٩ « الخمسون
٢١١ « الحادية والخمسون
٢١٣ « الثانية «
٢١٧ « الثالثة «
٢٢٢ « الرابعة «

صفحة
٢٢٥ الحكمة الخامسة والخمسون
٢٢٧ « السادسة «
٢٣٠ « السابعة «
٢٣٢ « الثامنة «
٢٣٥ « التاسعة «
٢٣٨ « الستون
٢٤٢ المناجاة الأولى
٢٤٤ « الثانية
٢٤٦ « الثالثة
٢٤٨ « الرابعة
٢٥١ « الخامسة
٢٥٥ « السادسة
٢٥٩ « السابعة
٢٦٢ « الثامنة

﴿ تم الفهرس ﴾

مطبعــة الصفــــا
الوايلى الكبير
ت: ٤٥٢٨٣٨٧